من ذكريات الحركة القومية العربية

تفضل الأستاذ الجليل الأمير مصطفى الشهابى فأذن لى بنشر هذا الفصل الرائع من تاريخ الحركة القومية العربية ، فله من قراء هذه المجلة أجزل الشكر وأطيب الثناء .

محمد شفيق غربال

حلقة الشيخ طاهر الجزائرى :

كانت دمشق فى النصف الثانى من القرن الماضى غارقة فى سبات عميق يحرص عمال الترك على ألا يوقظوها منه . لما فى يقظتها وطموحها إلى المجد من أضرار تلحق بحكمهم الاستبدادى ، وبتسلطهم الاستعمارى على بلاد العرب .

ونجد أنه عند ما كان مدحت باشا والياً على الشام برز فى دمشق رجل نابغة فى علمه وتفكيره ونشاطه وإخلاصه وهو الشيخ طاهر الجزائرى . لقد كان الشيخ طاهر ضليعاً بالعلوم العربية والدينية ، ومجيداً للتركية وعارفاً للفارسية ، ومطلعاً على مجمل العلوم العصرية . وكانت له صلة صداقة برئيس ديوان الولاية التركى واسمه بهاء بك ، ففى أحاديث الشيخ معه أقنعه بضرورة افتتاح مدارس حكومية تدرس العلوم بالعربية ، وتعنى بتدريس آداب هذه اللغة . واحتج لرأيه هذا بأن مدارس الإرساليات الأجنبية من بروتستانتية وكاثوليكية كلها تدرس العربية وآدابها ، خلافاً لمدراس الحكومة العثمانية . فإذا طالت هذه الحال نشأ فى المدارس الأجنبية نشء له تفكير خاص ومذاهب سياسية لا تسر الدولة . ولذلك يجب مقاومة هذه النزعات بالطريقة التى يتبعها الأجانب .

كان بهاء بك ، فاضلا واسع التفكير ، سرعان ما اقتنع بصحة هذا الرأى ، وأقنع الوالى مدحت باشا باتخاذ الأساليب الآيلة إلى تحقيقه . وكان مدحت باشا هو صاحب الدستور الأول والملقب بأبى الأحرار العثمانيين وكان مشهوراً بحبه للحرية وبمساعيه لإصلاح شئون الدولة .

وعين الشيخ طاهر مفتشاً عاماً للمعارف فى الولاية . ولكن مدحت باشا عزل فى ذلك الحين (١٢٩٥هـ) وبقى رئيس ديوان الولاية فى منصبه . فاستقر رأيه مع الوالى الجديد ، حمدى باشا ، على أن يتم تحقيق الفكرة المتفق عليها مع الشيخ طاهر على أساس إنشاء جمعية سميت « الجمعية الخيرية » تكون شبه رسمية . وتعينها الحكومة بالمال ، ويخصص لها أبنية وقفية وحكومية تفتتح فيها المدارس ، ويكون لها مطبعة تطبع الكتب التى تنهض بالمعارف ، ولا سيما الكتب المدرسية باللغة العربية .

واستطاع الشيخ أيضاً أن يحقق أمنية من أعظم أمانيه وهى جمع الكتب الموقوفة على المساجد والمدارس فى قبة الملك الظاهر بدمشق فتألفت من تلك الكتب نواة المكتبة الظاهرية التى تتبع اليوم المجمع العلمى العربى . وقد جمع فيها منذ أيام الشيخ ، بضعة آلاف من المخطوطات العربية النفيسة ، وفيها اليوم غرف للبحث والمطالعة .

ولم تستسغ حكومة السلطان عبد الحميد فى اسطنبول قيام نهضة عربية يستعان فيها بسلطة الدولة وبأموال خزانتها ، فألغت مفتشية المعارف ، وعرقلت أعمال الجمعية الخيرية . ثم عادت بعد بضع سنوات فعينت الشيخ طاهراً مفتشاً لدور الكتب فى الشام ، ثم اتهمته بالاشتراك فى إذاعة نشرات كانت جمعية « تركية الفتاة » تذيعها للطعن باستبداد السلطان عبد الحميد ، فنزح الشيخ إلى مصر ملجأ الأحرار .

وفى تلك المدة التى قضاها الشيخ طاهر الجزائرى بالشام ، فى السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر والسنوات الخمس الأولى من القرن

العشرين كانْ يتحلق حوله فى دمشق صفوة المتعلمين والنبهاء والمفكرين العرب ، فتألفت من جماعهم أكبر حلقة أدبية وثقافية كانت تدعو إلى تعلم العلوم العصرية ، ومدارسة تاريخ العرب وتراثهم العلمى وآداب اللغة العربية ، والتمسك بمحاسن الأخلاق الدينية . والأخذ بالصالح من المدنية الغربية[1] . ومن الثابت عند العارفين أن هذه الحركة التى نشأت منذ تأسيس الجمعية الخيرية ، وأخذت تتشعب وتتسع فى الحلقة المذكورة ، تعد أقدم أساس وأوسع ركن قامت عليه النهضة الأدبية والعلمية فى عاصمة الأمويين .

ومن الطبيعى أن يتولد فى هذه الحلقة الأدبية وخارجها شعور قوى بالوضع السيء الذى كانت عليه شعوب الدولة العثمانية عموماً ، والشعب العربى فيها خصوصاً . وقد نتج عن هذا الشعور قيام حلقة أو جمعية سرية سياسية فى دمشق مؤلفة من أعضاء عرب وأتراك[2] ، هدفها السعى للقضاء على استبداد السلطان عبد الحميد وحكمه المطلق ، بجعل الحكم شورى فى الدولة ، أى بنشر الدستور المعلق . وكان لأفراد هذه الجمعية اتصال سرى برجال «تركية الفتاة» الذين قاموا فيما بعد بثورة سنة ١٩٠٨ ، وانتهوا فى السنة التالية إلى خلع ذلك السلطان .

وذكر لى الأستاذ فارس الخورى وغيره من الأعضاء العرب فى الجمعية أنه كان لهم فيها ، وفيما بينهم ، خطة خاصة وهى العمل على إبلاغ عرب الدولة حقوقهم ضمن الرابطة العثمانية .

---

(١) كان من الرجال الأول فى هذه الحلقة علماء مصلحون ومؤلفون معروفون كالشيخ جمال الدين القاسمى ، والشيخ عبد الرازق البيطار والشيخ سليم البخارى وغيرهم ، ثم التحق بها عدد كبير ممن كانوا دونهم فى السن منهم رفيق العظم ومحمد كرد على وفارس الخورى وعبد الحميد الزهراوى وشكرى العسلى وعبد الوهاب المليجى وعبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائرى ، واشتهروا جميعاً فيما بعد بأعمالهم العلمية والسياسية .

(٢) كان فى هذه الحلقة السرية ضابطان عربيان من الأركان هما سليم الجزائرى وأسعد درويش الطرابلسى ، وفيها من العرب المدنيين فارس الخورى وشكرى العسلى وعبد الوهاب المليجى « عبد الوهاب الإنكليزى » وغيرهم ، ومن الأتراك أمير اللواء بدرى بك ومدير المعارف حسين عونى بك .

حلقة دمشق الصغيرة وجمعية النهضة العربية :

بعد هذه الإلمامة بالحركة الأدبية والسياسية فى ذلك الزمن ، آن لنا أن نتكلم قليلا على حلقة سياسية سرية مجهولة[١] تألفت بدمشق فى سنة ١٩٠٣ من الميلاد . وكانت أعمالها بلا مراء من أجل الأعمال القومية الواعية المنظمة ، ومن أكبرها تأثيراً فى جميع الحركات القومية العربية التالية التى كانت مغبتها استقلال الأقطار العربية عن الدولة العثمانية عقب الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨ م) .

فقد كان فى الصفوف (الفصول) الأخيرة من مدرسة الحكومة الثانوية بدمشق ، وفى خارج تلك المدرسة ، شبان نبهاء فى ميعة الصبا يتردد بعضهم على حلقة الشيخ طاهر الجزائرى ، ويصغون فى انتباه وتواضع إلى ما كان يدور فيها من أحاديث ومحاورات فى اللغة العربية وقواعدها وآدابها ، وفى حضارة العرب والإسلام ، وفى ذلك التراث العلمى العظيم من المخطوطات التى خلفها لنا الأجداد وفى الجهل الضارب أطنابه بالبلاد العربية ، وفى الوسائل التى يجب التوسل بها لرفع مستوى التفكير والتعليم جميعاً الخ .

وسرعان ما نتج عن اتصال هؤلاء الشبان بحلقة الشيخ ، واتصال بعضهم ببعض ، ظهور نزعة قومية عربية فيهم ، فراحوا يفكرون ويتناقشون فى الخفاء فيما كان للعرب من أوضاع سيئة فى دولة تتنكر للغتهم ولقوميتهم ، على حين أنهم كانوا أكثر من نصف سكان تلك الدولة .

وما عتموا أن ألفوا حلقة خاصة نعتت بحلقة دمشق الصغيرة ، تمييزاً لها من حلقة دمشق الكبيرة ، أى حلقة الشيخ طاهر الجزائرى ، وكان محب الدين

---

(١) أشار إليها محب الدين الخطيب فى مجلة « الزهراء » التى كان يصدرها فى القاهرة (م ٢ ص ٤٢٠) ، وذكر لى شيئاً كثيراً عنها ، وما زلت أحتفظ بدفاتر لأخى عارف الشهابى تشتمل على مساجلات ومراسلات نثرية وشعرية لبعض أعضائها .

الخطيب لولب الحلقة الصغيرة ، وأكثر شبابها اتصالا بالشيخ وحلقته[١] .
وكان الهدف الظاهر لهؤلاء الشبان فى حلقتهم مدارسة تاريخ العرب وقواعد اللغة العربية وآدابها ، وتأسيس غرف للمطالعة . ومدارس أهلية لنشر العلم وأسس القومية . أما هدفهم الخفى فقد كان بعث العروبة من رقادها بتلقين شباب العرب الوسائل المؤدية إلى هذا البعث . وكانوا على صغر سنهم بعيدى النظر يرون أنه لا بد من مرور زمن طويل . فى عمل متصل منظم ، قبل أن ينشأ فى جمهرة العرب وعى صحيح ، وقبل أن ترسخ فى نفوسهم نزعة قومية ترتكز على الإيثار والتضحية . ولذلك كانوا يقتصرون فى دعوتهم السرية على برنامج سياسي محدود . وهو مطالبة الدولة العثمانية باتخاذ نظام لامركزى يضمن للعرب حقوقهم فى الحكم ، ويجعل لغتهم فى الولايات العربية لغة رسمية فى مدارس الحكومة ودواوينها ومحاكمها .

وأخذ هؤلاء الشبان ينشرون دعوتهم فى السر ويضمون إلى حلقتهم النابهين من شباب دمشق . ثم انتقل بعضهم إلى بيروت ، فراحوا يتصلون بمن كانوا يتوسمون فيهم الاستجابة لمبادئهم من طلاب الكلية الأمريكية وكلية الشيخ عباس الأزهرى على الأخص .

وفى سنة ١٩٠٥ من الميلاد انتقلوا للدراسة فى مدارس اسطنبول العالية ، فوجدوا فيها عدداً كبيراً من الطلاب العرب كان معظمهم ضعفاء فى اللغة العربية ، جهلاء بآدابها وبتراثها العلمى ، أذهانهم خالية من الفكرة القومية ، خائفين من أن يتهموا بنزعة عربية ، مؤثرين التكلم بالتركية ، متباهين بالتحدث مع الشبان الأتراك بلهجة رقيقة اسطنبولية يلفظون فيها العين ألفاً ، والحاء هاء ، والقاف كافاً وهلم جرا .

---

(١) كان من أعضاء الحلقة البارزين محب الدين الخطيب وعارف الشهابى وعثمان مردم ولطفى الحفار وصالح قنباز وصلاح الدين القاسمى . وعندما أصبحت الحلقة « جمعية النهضة العربية » دخل فيها شبان ينتمون إلى أسر مختلفة وأطلعنى محب الدين الخطيب على مذكرات له يقول فيها : « وأنبه شباب الحلقة وأعلاهم قدراً فى نظرى عارف الشهابى » .

لقد هال هذا الوضع شبابنا القوميين من حلقة دمشق الصغيرة ، فاتفق محب الدين الخطيب وعارف الشهابي على أن يتطوعا لتعليم هؤلاء الطلاب اللغة العربية وآدابها ، في يومين أو ثلاثة أيام من كل أسبوع ، على أن يبثا فيهم فكرة القومية العربية في حذر وتؤدة . وسرعان ما اقتسما النبهاء من الطلاب ، وراحا يدرسانهم ، ويجلبان لهم من مصر مجلة المقتبس التي كان يصدرها الأستاذ محمد كرد علي ، ومجلة المقتطف وجرائد اللواء والمؤيد والأهرام وغيرها . وكلها كان دخولها محظوراً ، فكانت ترسل إليهم بالبرد الأجنبية[1] .

وفي السنة نفسها أسسا في اسطنبول ، ومعهما عبد الكريم قاسم الخليل وشكري الجندي ، « جمعية النهضة العربية » ، على أن يكون مركزها الثابت في دمشق حيث كان رفاقهم في الحلقة الصغيرة . وانتخب محب الدين الخطيب رئيساً لها في اسطنبول ثم في دمشق . ولعل هذه الجمعية الوطنية السرية تعد أول جمعية قومية عربية منظمة نشأت في أوانها ، فكان لها أكبر تأثير في بث الشعور القومي الواعي في شباب العرب ، قبيل إعلان الدستور وخلع السلطان عبد الحميد .

ومما لا مرية فيه أن أعمال هذه الجمعية ، أو قل أعمال حلقة دمشق الصغيرة ومن انضم إليها من شباب العرب كانت تصدر كلها عن عقيدة وطنية راسخة . وخطط محكمة ، وشعور بالتبعة . وأن اتصال هؤلاء الشباب برفاقهم في اسطنبول واتحاد الشام وسع مجال الحركة القومية ، وكثر عدد رجالها العاملين الذين أسسوا بعد الانقلاب العثماني ، المنتدى الأدبي . وجمعية « العربية الفتاة » ، وجمعية « العهد » ، وعقدوا المؤتمر العربي في باريس ، وشاركوا في الثورة العربية الخ . وهؤلاء الرجال هم الرعيل الأول الذين لهم الفضل الأكبر في

---

(١) مما أذكره أني عند ما ذهبت مع أخي عارف الشهابي تلميذاً في السنة المدرسية ١٩٠٧ – ١٩٠٨ والسنة المدرسية ١٩٠٨ – ١٩٠٩ دخلت مباءته ، وتلقيت فيها درساً في قواعد العربية وآدابها ، وفي تاريخ العرب وحضارتهم ، واستمعت إلى أحاديث في القومية العربية ونزعاتها ، وفي الوسائل الواجب اتخاذها للنهوض بالأمة العربية إلى صفوف الأمم الحية المستقلة .

إيقاظ الشعوب العربيةمن سباتها ، وفى توجيه الحركات الوطنية فى الأقطار العربية التابعة للدولة العثمانية . وهم الذين داوموا على الكفاح بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤–١٩١٨ م)، ووجهوا كفاحهم وجهة الاستعمار الفرنسى والإنكليزى فى بلاد الشام والعراق حتى استقلت . وقد هلك منهم عشرات فى سبيل هذا الهدف القومى السامى . وما زال منهم بقية على قيد الحياة .

ولم يتناول أحد حلقة دمشق الصغيرة وجمعية النهضة العربية بالبحث الدقيق على ما كان لهما من تأثير كبير فى الحركات القومية . ولكى نعرف شيئاً عن الوطنية التى كانت تتأرجح فى صدور أعضائها ، هاكم أبياتاً من قصيدة طويلة لعارف الشهابى نظمها فى فروق « اسطنبول » فى السابع عشر من ربيع الآخر سنة ١٣٢٥ (١٩٠٧م) أى فى زمن السلطان عبد الحميد ، وهى موجهة إلى الأمة العربية ، ومكتوبة بخطه فى دفتر كان يجمع فيه قصائده . وأشاد فى هذه القصيدة بمجد العرب وسؤددهم وحضاراتهم فى الماضى ، وندد بجهلهم وخنوعهم للأجنبى فى الحاضر ، وأشار إلى عدد من الشعوب التى نهضت من كبوتها واستقلت ، وحث الأمة العربية على العلم وتأسيس المدارس الوطنية ، والتشبث بحقوقهم الضائعة . ومما جاء فيها عن مدارس الحكومة والمدارس الأجنبية السائرة قوله :

فذى للبنين وذى للبنات ... تراها تلظى دروساً دروسا
يؤم إليها بعيد الشروق ... جموع الشباب خميساً خميسا
يسوس عقـــولهم الأجنبى ... كأنا على العجز من أن نسوسا
ويلقى علوما تميت النفوس ... ولا خير فيها يميت النفوسا
إلى أن محى ضـــوء آمالنا ... ولم يبق من ذاك إلا نسيسا

وختمها بالأبيات الآتية فى الحث على النهوض للمطالبة بحقوق العرب الضائعة :

بنى وطـــنى آن وقت القيام ... ووقت البروز ووقت الزحام

وأن نتمطى بتلك القيود   وأن نطلب العيش عيش الكرام
وأن لا نؤول بأوطـاننا   إلى الأجنبي ونبقى نيام
وأن نرفع البؤس عن أمة   تسام إلى الذل سوق السوام
أحييكم ياجُـنوداً جرت   إلى قمم المجد جرى السهام

مصطفى الشهابي

يوناليس فى مصر

كاتب هذا المقال المرحوم الدكتور وهيب كامل ، وقد سلمه للمجلة قبل وفاته بأسبوعين فى يناير سنة ١٩٥٧ . والدكتور وهيب كامل معروف لقراء هذه المجلة . وقد كان لموته المفاجئ رنة أسف شديد فى الأوساط العلمية .

تخرج الفقيد فى كلية الآداب بجامعة القاهرة عام ١٩٣٩ ، من قسم الدراسات القديمة وحصل منه على درجات الماجستير عام ١٩٤٢ ؛ ثم حصل من جامعة لندن على درجة الدكتوراه ببحث عنوانه The Sources of Plantine Comecy .

ونشر الفقيد كتبا وأبحاثاً عديدة منها – باللغة العربية – هيرودوت فى مصر (دار المعارف ١٩٤٦) ، وديودور الصقلى فى مصر (دار المعارف ١٩٤٧) ، واسترابون فى مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٣) ، وأميانوس ماركلّينوس فى مصر (مكتبة الأنجلو ١٩٥٥) . كما نشر أبحاثا ومقالات عديدة باللغة العربية والإنجليزية ، ظهر الكثير منها بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة .

والمجلة إذ تنشر لقرائها هذا البحث ، تحيى ذكرى مؤلفه الفقيد الكريم وتسأل الله له خير الجزاء بقدر ما قدم للعلم والمتعلمين .

كان يوناليس أقذع شعراء الهجاء عند الرومان ولعله أبرز شاعر هجائى فى العالمين القديم والحديد جميعاً . أخرج فى القرن الثانى للميلاد ست عشرة قصيدة هجائية . أصدرها فى خمس مجموعات على فترات متقاربة . ولا نعرف من سيرته إلا النزر اليسير نستنبطه من أبيات شعره التى تعمد فيها أن يخفى ملامح شخصيته وراء ما يعالج من موضوعات . ولعل استخفاءه هذا كان نتيجة للخوف مما يتصدى له الهجاءون عادة من بطش الأباطرة . أو لعله كان زهداً فى التحدث عن نفسه الحزينة وظروفه القاسية ، أو لعله كان ، موضوعياً ، يؤثر إبراز الموضوع الذى يتناوله ويفرض على ذات نفسه أن تتوارى فلا تلوح من خلال ما يصور من مخازى المجتمع الذى يهجوه .

وتضم المجموعة الأولى القصائد من ١ — ٥ . وقد وردت فى القصيدة

الأولى إشارة إلى نفى ماريوس بريسكوس[١]. الذى لم تنته محاكمته إلا سنة ١٠٠ ب . م . فلا بد أن تكون هذه المجموعة قد صدرت بعد هذا التاريخ . وثمة إشارة أخرى ، وردت فى القصيدة الثانية ، إلى حملات الإمبراطور أوتو إلى أنها « تستحق أن تسجل فى الحوليات الجديدة والتاريخ الحديث[٢]» وقد وصف المؤرخ تاكيتوس هذه الحملات فى « تاريخة » الذى صدر فيما بين ١٠٤و١٠٩ ولعله أشار إليها أيضاً فى حولياته وقد كان متوفراً على إصدارها حوالى ١٠٩ . فالأرجح أن تكون هذه المجموعة قد صدرت حوالى سنة ١١٠ .

والمجموعة الثانية قاصرة على القصيدة السادسة وهى كبرى قصائده . وفيها إشارة إلى زلزال فى الشرق[٣] ؛ فقد حدث زلزال فى أنطاكية فى ديسمبر سنة ١١٥ . ولا بد أنه كان مادة للحديث فى روما فى السنة التالية . فالأرجح أن يكون هذا الكتاب قد صدر سنة ١١٦ .

وتضم المجموعة الثالثة القصائد ٧ — ٩ . وقد أعلن الشاعر فى أولاها « أن الأمل فى الأدب والدراسات الأدبية يتوقف على قيصر لأنه « وحده يحترم ربات الفنون وهن فى هذا العصر حزينات[٤] . وهى تحية لعل الشاعر قد استقبل بها عهداً جديداً لإمبراطور جديد يرعى الفنون ويعين الفنانين . وأحرى بهذا الإمبراطور الجديد أن يكون أدريانوس وقد دخل روما سنة ١١٨ .

وتضم المجموعة الرابعة القصائد ١٠—١٢ وليس فيه من الإشارات ما يعين على جلاء سيرة الشاعر .

وتضم المجموعة الخامسة القصائد ١٣ — ١٦ . وقد كتبت القصيدة ١٣

---

(١) ١ ، ٤٩ — ٥٠ « إن ماريوس فى منفاه يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ، ويرتع فى غضب السماء ، أما أنت أيتها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين » . وقد طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس بريسكوس فأدين بتهمة الرشوة وسوء الإدارة ونفى . وقد ورد وصف المحاكمة فى رسائل بلينيوس (المجموعة الثانية ، الرسالة ١١ ، ١٢)

(٢) ٢ ١٠٢ — ٣ .

(٣) ٦ ، ٤١١ « إن المدن تهتز ، والأرض تغوص » . راجع فى تاريخ الزلزال «حرب ترايانوس البارثية » تأليف ف . أ . ليبر . اكسفورد ١٩٤٨ ص ٩٥ وما بعدها.

(٤) ٧ — ١ — ٣ .

فى سنة ١٢٧ . ذلك أن الشاعر يواسى فيها بعض أصدقائه وقد وقع فريسة للاحتيال فيخاطبه بقوله :

« وهل تعجب أنت مما حدث وقد جاوزت الستين إذ ولدت فى عهد قنصلية فونتيوس ؟(١) » وقد كان فونتيوس قنصلا سنة ٦٧ . ثم إن الشاعر يصف فى قصيدته ١٥ حادثة وقعت فى مصر فيقول « وقعت حديثاً فى عهد قنصلية يونكوس »(٢) وقد كان يونكوس قنصلا سنة ١٢٧ . ثم أن الشاعر فى قصيدته ١٤ ينعى على الرومان تهودهم وتختنهم(٣) . وقد قام اليهود سنة ١٣١ بثورة عارمة من أسبابها أن الإمبراطور أدريانوس قد أصدر أمره بمنع الختان . فلا بد أن تكون القصيدة قد كتبت قبل صدور هذا الأمر الإمبراطورى الذى جعل التختن عملا غير مشروع . وإذن فقد صدرت المجموعة الخامسة فيما بين ١٢٧ ، ١٣١ .

وإذن فقد كان نشاطه الأدبى واقعاً فى عهدى الإمبراطورين ترايانوس (٩٨ — ١١٧) وهادريانوس (١١٧ — ١٣٨) ولعله لم يمتد إلى آخر حكم هادريانوس .

وفى شعره إشارات طفيفة أخرى إلى حياته . فهو يتحدث فى قصيدته ١١ عن نفسه باعتباره رجلا مسناً(٤) ، وقد صدرت هذه القصيدة ضمن المجموعة التى نشرت فيما بين ١١٨ ، ١٣٠ فأحرى بنا أن نضع ميلاده بين سنة ٦٠ ، ٧٠ ميلادية

وهو يتحدث عن مصر فى قصيدته ١٥ ويقول « كما لاحظت بنفسى(٥) وهى إشارة إلى زيارته لمصر وإقامته بين أهلها(٦) .

---

(١) ١٣ ، ١٦ – ١٧ (٢) ١٥ ، ٢٧

(٣) ١٤ ، ٩٦ – ١٠٦ . (٤) ١١ ، ٢٠٣

(٥) ١٥ ، ٤٥

(٦) راجع J. Wright Duff فى A Literary History of Rome in the Silver Age الطبعة الثالثة سنة ١٩٣٥ ص . ٦٠٢ هامش ٢١١ حيث يقرر أن قوله « كما لاحظت بنفسى » ليس دليلا ملزماً على زيارته لمصر .

وإنا لنعلم أن يوناليس كان مقيماً فى روما حوالى سنة ٩١ ، ٩٢ لأن صديقه الشاعر مارشياليس قد كتب إليه فى ذاك الحين رسالتين(١) .

وهناك سيرة قديمة تعزى أحياناً إلى المؤرخ سيوتونيوس ولكنها على التحقيق متأخرة عنه(٢)، وهى تقول(٣) «يونيوس يوناليس : ليس من المحقق إن كان ابن أو ربيب عتيق ثرى . مارس الخطابة إلى منتصف عمره تقريباً إرضاء لنزعته لا استعداداً لتعاطى الفلسفة أو المحاماة . وبعد أن كتب قصيدة هجائية من أبيات قليلة وإن كانت مرضية ضد الممثل باريس وضد شاعر آخر ازدهاه أنه حظى بوظيفة حربية لمدة ستة أشهر فحسب ، توفر فى إمعان على كتابة هذا الضرب من الشعر . ومع أنه ظل مدة طويلة لا يجرؤ على إلقاء شعره حتى فى المحافل الصغيرة ، فإنه سرعان ما سُمع فى المحافل الغاصة بنجاح عظيم مثنى وثلاث . حتى أنه كان يضيف أبيات جديدة إلى القصائد التى كان قد صاغها من قبل .

« إن ما لا يمنحه العظماء سوف يمنحه ممثل . فلماذا تزور دور النبلاء العظيمة من الكاميريين والباريين ؟ إن پيلوپيا هى التى تعين القادة وفيلوميلا هى التى تعين الطّرابنة » .

وكان الممثل محل رضا فى هذا الحين فى البلاط وكان يرقى يومياً الكثيرين ممن يتملقونه ، ومن ثم فقد اتهم يوناليس بأنه كان يشير تلميحاً إلى هذا الذى يجرى فى البلاط . وبالرغم من أنه كان فى الثمانين من عمره يومئذ فقد نفى عن المدينة فى وظيفة حربية وأرسل قائداً لكتيبة فى طريقها إلى أقصى حدود مصر . ولقد اختير له هذا الضرب من العقوبة لأنه يناسب ما اقترف من جرم هين عابث . والحق أنه مات بعد وقت قصير جداً من الحزن والمضض .

(١) مارشياليس ، ٧ ، ٢٤ و ٧ ، ٩١ .

(٢) كتب سيوتونيوس كتابه سنة ١١٤ وقد عاش يوناليس إلى مابعد ١٢٧ فلا بد أن تكون سيرته هذه بقلم متأخر عن سيوتونيوس .

(٣) راجع نص هذه السيرة فى "Thirteen Satires of Juvenal" J. E. B. Mayer سنة ١٨٧٨ الجزء الثانى المقدمة صفحة ١١ وفى كتاب "Juvenal and Persius" G.G. Ramsay سنة ١٩٤٠ . المقدمة صفحة ١٧ .

وهناك ثمان سير وشروح أخرى كلها أحدث من هذه السيرة عهداً ، وهى تتضارب تضارباً يحملنا على الأخذ بها بحذر شديد . فنها ما يذهب إلى أن نفيه كان إلى بريطانيا contra Scotos وهى متأثرة ولا شك بدقة وصفه لبعض أرجاء الجزائر البريطانية[١] . ومنها ما تذهب إلى أن نفيه كان فى عهد الإمبراطور نيرون[٢] (٥٤ — ٦٨) وهو خطأ ظاهر لأن يوناليس كان لا يزال فى قيد الحياة سنة ١٢٧ . ومصدر هذا الخطأ أنه كان هناك ممثلان يسميان باريس ، وقد خلط الشراح بينهما أما أحدهما فقد قتل فى عهد نيرون وأما الآخر فقد لاقى المصير نفسه فى عهد الإمبراطور دوميتيانوس (٨١ — ٩٦) ، فكان الأولى بالشراح أن يصرفوا الكلام الوارد فى القصيدة السابعة إلى ثانيهما دون الأول . ومع ذلك فالظاهر أن دوميتيانوس — على شدة مقت الشاعر له[٣] — لم يكن مسئولا عن نفيه ، لأن مارشياليس كان يراسل يوناليس فى روما سنة ٩١ أوحولها ، ولم يكن مارشياليس من استقلال الرأى وقوة الشخصية بحيث يراسل صديقاً وقع تحت طائلة سخط الإمبراطور هذا ولم تقل « السيرة » إن الممثل المهجو كان محل رضا البلاط ، بل قالت إن ممثلا كان فى ذلك الحين أثيراً لدى البلاط . وكان الممثل باريس قد اتهم فى علاقته بزوجة الإمبراطور دوميتيانوس فاغتاله سنة ٨٣ . وليس من الجائز أن الشاعر نفى فى ذلك العهد البعيد . ومن هنا ذهب رامساى Ramsay إلى أن كل المحاولات التى تهدف إلى وضع نفى الشاعر فى عهد الإمبراطور دوميتيانوس قد باءت بالفشل[٤] وأن الأرجح أنه حدث فى عهد الإمبراطور

---

(١) راجع Duff « المصدر نفسه » صفحة ٦٠٠

(٢) راجع الشرح على البيت ٩٢ من القصيدة السابعة . Propter hunc versum missus est in exilio a Claudio Nerone.

(٣) إن كره يوناليس للإمبراطور دوميتيانوس مستفيض . انظر ٢ ، ٢٩ — ٣٣ ، و ٤ ، ٣٧ — ٣٨ ؛ ٦٩ — ٧١ ؛ ٧٢ — ١٠٣ ؛ ١٥٠ — ١٥٤ .

(٤) المصدر نفسه . المقدمة صفحة ١٩ .

اهدريانوس لأنه كان من رعاة الممثلين والفنانين من جميع الأنواع وأنه كان قميناً أن يثور لإهانة يتوهمها موجهة ضد أحد أخصائه(١)

ويرى هايت(٢) أنه بالرغم من أن المثمل باريس قد اغتيل سنة ٨٣ فمن الممكن أن يكون يوناليس قد كتب سنة ٩٢ هجاء لأحد أحلاس البلاط ممن يتمتعون بنفوذ فيه أقوى من نفوذ النبلاء وخصوصاً فيما يتعلق بالترقيات العسكرية ، فرأى فيه الإمبراطور عيباً فى ذاته الإمبراطورية وتعريضاً بنزاهة الحكم فنفاه.. والحق أن هذا التفسير لا يعدو أن يكون فرضاً لايعززه إلا أن الشاعر كان شديد المقت للدوميتيانوس وإلى أنه جاء مصر .

فلو صح أن الشاعر قد نفى لسبب أو لآخر حول هذا التاريخ فأين كان منفاه ؟ إن كتاب السير والشراح يختلفون فى هذا كل الاختلاف فمنهم من يزعم أنه نفى فى ليبيا(٣) ومنهم من يزعم أنه نفى فى « واحة » وهم يعنون الواحة الخارجة(٤) . ولكن منشأ القول بنفى الشاعر هو السيرة التى نقلناها . فأولى بنا أن نتبعها وهى تقول إنه نفى إلى « أقصى حدود مصر » وهى تعنى على الأغلب أسوان وقد كانت مركز ثلاث كتائب رومانية فى ذلك العهد(٥)

---

(١) المصدر نفسه المقدمة صفحة ٢١

(٢) Juvenal The Sstirist: G. Highet اكسفورد سنة ١٩٥٤ صفحة ٢٥

(٣) راجع Joannes Malalas chronographia. ١٠ ، ٣٤١ ، وقد ورد النص فى Mayor . المصدر نفسه صفحة ١٢ ، وفى Highet المصدر نفسه صفحة ٢٣٩ ، . ويلاحظ . أن هذه المنطقة كانت إلى عهد الإمبراطور دقلديانوس تابعة لولاية كويت وقورينة . فلم تكن إذن فى مصر .

(٤) راجع الشارح على البيت الأول من القصيدة الأولى حيث يقول :

hos autem libros in exilium missus ad civitatem ultimam Aegypti Hossim ab ipso Domitiano scripsit

وراجع الشارح أيضاً على البيت ٣٨ من القصيدة الرابعة حيث يقول :

propterea quod Juvenalis sub specie bonoris relegtus est ad cohortis curam in Aegypto Hoesa, ubi mortuus est.

(٥) راجع J. Lesquier L'Arnèe romaini d'Égypte سنة ١٩١٨ صفحات ٨٨ ، ٩٠ ، ٩٤ ،

ويعزز هذا الرأى ما يبديه يوناليس من معرفة بأسوان باعتبارها سوق للعاج فهو يقول « أما اليوم فلا يجد الأغنياء لذة فى مأكلهم ، ولا نكهة لسمك موسى Rhombus ولا لدّما damma وتبدو العطور والرياحين كأنها عطنة إن لم تكن ألواح المائدة عريضة قائمة على فهد ضخم فاغر فاه من العاج الصب المتخذ من السن الذى ترسله إلينا أسوان » .(١)

ولعله رأى وهو فى أسوان بعض أهل مروى فهو يصف نساءهم وصفاً كأنه صادر عن شاهد عيان : «من يعجب لحلق وارم فى جبال الألب أو لثدى امرأة من أهل مروى أضخم من طفلها السّمين ؟ »(٢) .

والحق أن يوناليس كان مشغول الخاطر بمصر وأهلها وآثارها وديانتها منذ بدأ ينشر شعره ، وهو دائم الإشارة إليها من قريب أو بعيد لا تغيب عن ذهنه قط . فهو إن نعى قلة الأتقياء قال « إن الأتقياء قليل ، لا يكاد عددهم يبلغ عدد أبواب طيبة أو مصبات النيل الثرى(٣)» وإن عاب على الإمبراطور أوتو ولعه بمظهره قال « إن الإمبراطور أوتو يطل فى مرآته قبيل المواقع وهو شيء لم تأته سميراميس وهى تحمل جعبتها فى مملكتها الأشورية ولا كليوباترة التعسة على ظهر سفينتها فى أكتيوم » .(٤) وإن أراد أن يقول إن الرجل بأعماله لا بحبه قال « أسلم ياجايتوليكوس أو أنت ياسيلانوس مهما يكن منبتك فإن أنت أثبت لوطنك أنك مواطن نادر ممتاز فسيفخر بك وسيردد الجميع ما يردده الشعب كله عندما يجدون أوزيريس »(٥) .

---

(١) راجع القصيدة ١١ ، ١٢٠ – ١٢٤

(٢) « « ١٣ ، ١٦٢ – ١٦٣

(٣) « « ١٣ ، ٢٦ ، ٢٧

(٤) « « ٢ ، ١٠٨ ، ١٠٩

(٥) « « ٨ ، ٢٦ – ٣٠ . لقد تواترت الأقوال عند المؤرخين القدماء بتهليل المصريين عند ما يمجدون عجل أبيس إذ كانوا يعتقدون إنه تجسد لأوزريس .

راجع مينوكيوفيلكس ٢٢ exultant mox ir.u·nts parvulo gaudet Isis, sacrdotes.

وانظر ترتوليانوس « ضد ماركيو » ١ ، ١٣ quaesitur et cam . . Osiris

gaudio invenitur

هذه إشارات بريئة . ولكن شعر يوناليس يفيض بأبيات تنم عن كرهه لمصر وأهلها وديانتها وتغلغل هذه الديانة فى روما بل إن حقده على أحد المصريين كان من الأسباب التى دفعته إلى كتابة الهجاء . فهو يقول فى مستهل هجائياته :

« إذا ما بنى الخصى الرقيع بزوجة ، وإذا ما كشفت ميوبا عن ثديها وامتشقت حربة وتصدت لصيد الدب الاترسكى ، وإذا ما انبرى أحدهم وقد كانت ذقنى الخشنة تئز عند ما كان يحلقها لى فى شبابى فتحدى بثروته الخاصة النبلاء قاطبة ، وإذا ما كان فرد من حثالة النيل هو كريسپينوس وقد كان عبداً فى كانوبوس[1] يطوح بعباءته الصورية على كتفه ويهوى خاتما صدفياً على أصابعه الندية لأنه لا يستطيع أن يحتمل ثقل حجر كريم أكبر من هذا حجماً . فمن العسير أن لا يكتب المرء الهجاء[2] . لقد بلغ كريسپينوس هذا مرتبة قائد الحرس الإمبراطورى فى روما . ولكن حقد يوناليس المتأجج عليه

= وانظر أيضاً بلوتارخوس إيزيس وأوزيريس ٣٩ .

وحدث فى سنة ٧٠ أن عثر على أبيس وقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيبه (راجع سيوتونيوس «حياة تيتوس») وقد كانت حفل تنصيب أبيس سنة ١٢٢ مناسبة لقيام اضطرابات فى مصر . وإنا لنعلم أن العجل أبيس كان له أجل معلوم لا يحل له أن يتجاوزه وهو خمسة وعشرون عاماً . فأغلب الظن إذن أن المناسبة التى علقت بذهن الشاعر والتى أشار إليها فى هذه الأبيات كانت مناسبة تنصيب العجل أبيس التالى للعجل الذى حضر تيتوس حفل تنصيبه سنة ٧٠ وهى تقع بين ٩٥ ، ٩٧ .

وقد ظل الاحتفال بتنصيب العجل أبيس يحيا فى مصر إلى أواخر القرن الرابع الميلادى فقد رأى المؤرخ أميانوس ماركيلينيوس فى حوادث عام ٣٦٣ « أنه قد رفع إلى الإمبراطور يوليانوس كتاب من والى مصر يقول فيه إنه بعد مجهود شاق قد أمكن أن يجدوا أخيراً بعد ردح من الزمن عجل أبيس وهو أمر فيما يعتقد سكان مصر يبشر بالرخاء ووفرة المحاصيل ومختلف الخيرات » . (الكتاب ٢٢ ، ١٤ ، ٦) .

(١) موقعها الآن كوم سمعدى بالقرب من أبى قير . وكانت تشتهر بالعبث والمجون (راجع استرابون ١٧٠ ، ١ ، ١٧) وقد عرف عنها يوناليس هذا الفجور وكان يضرب بها الأمثال فقال : « عند ما هربت إيپيا زوجة عضو مجلس الشيوخ مع مصارع إلى فاروس والنيل أى إلى مدينة لاجوس الشهيرة فإن كانوبوس نفسها قد استنكرت مخازى روما وأحوالها » . القصيدة ٦ ، ٨٢ ، ٨٤)

(٢) القصيدة ١ ، ٢٢ — ٣٠

ويكرهه المدّفين له قد حملاه على مهاجمته أشد الهجوم وأعنفه غير عابئ بما قد تجره عليه هذه الجرأة من عواقب وخيمة حتى لقد ذهب البعض إلى أن كريسبينوس هذا كان مسئولا عن نفي الشاعر إلى مصر[1] .

وقد قال يهجوه وهو لا ينوى أن يكف عنه :

« هاكم كريسبيوس مرة أخرى . فلا بد لى من حق ذكره فى المحافل كثيراً . فهو وحش ليس به من فضيلة واحدة تنقذه من رذائله . وهو داعر كليل ليس فيه من قوى إلا شهواته . وزان لا يتعفف إلا عن الآنسات فحسب فماذا يجديه إذن أن تتسع ساحاته فتضني خيله . وأن تنفسح أرجاء أحراشه التى يتريض فى ظلالها ، وأن تكثر الأفدنة والقصور التى اشتراها بالقرب من قلب المدينة ؛ ليس من شريد سعيد . وخصوصاً الداعر المتفحش الذى ضاجعته منذ عهد حديث كاهنة معصوبة الشعر[2] قضى عليها أن ترقد تحت الثرى ولا يزال دمها يجرى فى عروقها » .

« سأتحدث الآن عن أشياء أقل خطراً . ومع ذلك فلو أن شخصاً غيره قد أتى نفس العمل لوقع تحت طائلة اللوم . ذلك أن ما يشين الرجال الفضلاء من أمثال تيتيوس وسيپوس يزين كريسپينوس وماذا عساك أن تصنع إن كان الشخص نفسه أبشع وأشنع من كل ما يقوم به ؛ لقد اشترى بوريه بستة آلاف سيسترتيوس[3] أى ألف سيسترتيوس لكل رطل فيها كما يقول الذين يتحدثون عن الأمور الضخمة بتعابير ضخمة . ولو أنه حصل بهذه الهدية

---

(١) انظر G. Highet المصدر نفسه صفحة ٢٩ . وكان أول من نادى بهذا القول هو B. Borghesi فى كتابه Annotazione alle satire di Giovenale باريس ، ١٨٦٩ صفحات ٥١٣ – ٥١٦ .

(٢) كانت كاهنات فستا Vesta العذارى يلبسن عصابة Vitta حول شعورهن . وكن ينذرن للإلهة بكورتهن – وقد حكم على هذه الكاهنة بالدفن حية لقاء إهدارها هذا النذر .

(٣) أى حوالى ٦٠ جنيهاً .

الكبيرة على المكانة الأولى فى وصية عجوز لا ولد له . أو لو أنه أرسلها — وهذا أفضل — إلى صديقة رائعة الجمال تركب محفة مغلقة ذات نوافذ عريضة . لمدحت خطته الماكرة . ولكن لا تنتظر شيئاً من هذا القبيل . فقد اشتراها لنفسه ، إنا لنشهد اليوم أشياء كثيرة لم يأتها أبداً أبيكيوس[١] النقير الشحيح . وهل انفقت أنت يا كريسپينوس — وقد كنت فيما مضى تأتزر ببردى[٢] وطنك — هذا المبلغ لقاء سمكة ؟ لعل السماك كان يمكن أن يشترى بأقل من ثمن السمكة . إن ضياعاً تشترى فى ولاية من الولايات بهذا المبلغ ، وتشترى أكبر منها فى أبوليا بهذا الثمن . وكيف نتصور أصناف الولائم التى كان يلتهمها الإمبراطور نفسه إذا كان كل هذا القدر من المال لا يمثل إلا جانباً ضئيلا وصنفاً واحداً على هامش مأدبة متواضعة وقد يتجشأه حلس مطيلس من أحلاس القصر العظيم هو الآن رئيس الفرسان وكان همه فيما مضى أن ينادى بأعلى صوته على قراميط بلده الفاسدة »[٣] .

وهو يصفه فى حضرة الإمبراطور فيقول : « وكان حاضراً أيضاً كريسبينوس ، وبالرغم من أن الوقت كان الصباح المبكر فقد كان يفوح برائحة لا تكاد تفوح بمثلها جنازتان »[٤] .

ولو أن الأمر اقتصر على هجاء كريسبينوس هذا لسهل تعليله بأن العداوة استعرت بينه وبين الشاعر لخصومة كانت بينهما . أو ليأس الشاعر من خير رجاه على يديه . ولكن يوناليس لا يكاد يسمع بمصرى أو بمن له صلة بمصر حتى يشحذ للهجو لسانه فى مرارة وحقد . كان يسير فى السوق forum يوماً فرأى تمثال طيبريوس يوليوس الكسندر وقد كان والياً على مصر من سنة ٦٧

---

(١) عاش أبيكوس فى عهد الإمبراطورين أغسطس وطيبريوس وكان يشتهر بالفهم والولع بأطياب الموائد (راجع سنيكا الرسالة ٩٥) .

(٢) قال بلنيوس فى حديثه عن البردى (١٣ ، ٢٢) كان المصريون يصنعون من لبابه الشراع والحصير كما كانوا يصنعون منه الملابس .

(٣) القصيدة ٤ ، ١ — ٣٣ .

(٤) سنة ٤ ، ١٠٨ — ١٠٩

إلى سنة ٧٠[١] . وكان الرجل يهودياً لا يمت لمصر إلا بأوهى الصلات ومع ذلك فقد تعرض لهجو الشاعر إذ يقول : « ثم بلغنا تماثيل النصر التى تجرأ أحد المصريين من حكام الصحراء الشرقية[٢] لا أدرى له اسماً فوضع بينها ألقابه . وحلال بالقرب من تماثله ألا يقتصر الناس على التبول »[٣] .

هذا مبلغ كرهه لرجلين يمتان لمصر ببعض الصلة . أما كرهه للشعب المصرى فقد تجلى فى أوضح صورة فى قصيدته الهجائية الخامسة عشر وقد جاء فيها ١ — ١٣ « من يجهل ياولوسيوس البيثينى ضروب المسوخ التى تقدسها مصر المفتونة[٤] . فهذه المنطقة تعبد التمساح[٥] وتلك تقدس الأبيس المتخوم بالثعابين[٦] وفى المنطقة التى تدوى فيها الأوتار السحرية من ممنون

(١) انظر كتاب "A History of Egypt under Roman Rule" J.G. Milne الطبعة الثالثة سنة ١٩٢٤ صفحات ٢٢ — ٢٩

(٢) لقد أثبت M. Rostowzew فى "Römische Mitteilungen" أن لقب « حاكم العرب » Arabarches حاكم المنطقة التى تسمى فى مصر بلاد العرب .

(٣) القصيدة ١ ، ٣٠ — ٣١ .

(٤) لقد كان تقديس المصريين لبعض الحيوانات موضوعاً أثيراً لدى الكثيرين من الكتاب القدماء . انظر هيرودوت ٢ ، ٦٥ — ٧٦ . ويودور الصقلى ١ ، ١١ — ٢٦ ، ٨٣ — ٩٠ ، استرابون ١٧ ، ١ ، ٣٨ ، ٤١ وباوتارخوس « إيزيس وأوزيريس» ٧١—٧٥ ، وماكسيموس الصورى ٨ ، ٥ .

(٥) يعنى الإله « سبك » وكان يعبد فى كروكوديلوبوليس أى مدينة الفيوم الآن

(٦) الأبيس يمثل الإله تحوت وقد كان مقدساً فى هرموبوليس الكبرى أى الأشمونين وهرموبوليس الصغرى أى دمنهور . وقال هيرودوت ٢ ، ٧٥» وتذهب الرواية إلى أن الحيات المجنحة تطير فى الربيع من بلاد العرب صوب مصر ولكن الطائر أبا منجل (الأبيس) لا يدعها فى طريقها بل يبيدها . ويقول الأعراب إنه من أجل هذه الخدمة يقدس أبو منجل عند المصريين تقديساً عظيما . ويوافق المصريون على أنهم يقدسون هذه الطيور من أجل هذه الخدمات » . ويقول بلينيوس ١٠ ، ٧٥ ويستعيذ المصريون بالأبيس ضد هجمات الثعابين » . وقال كيكرو فى كتابه « فى طبيعة الآلهة » ١ ، ٣٦ « فالمصريون وهم مثار السخرية لا يقدسون الحيوان إلا لفائدة يجنونها منه . فالأبيس (أبو منجل) وهو طائر كبير ذو سيقان قوية ومنقار طويل صلب يهلك عدداً كبيراً من الحيات . فهذه الطيور إذن تحمى مصر من الأمراض الوبائية بقتلها والتهامها للحيات الطائرة التى تجلبها الرياح الجنوبية الغربية من صحراء ليبيا . وهكذا تجنب مصر ويلات لدغاتها وهى حية وشر العدوى عند مماتها » . وقال أميانوس ماركيلينوس ٢٢ ، ١٥ ، ٢٥ » : =

المصدوع [1] وحيث تقع طيبة القديمة المتداعية بأبوابها المائة [2] يتلألأ التمثال الذهبي للنسناس [3] . هنا يعبدون القطط [4] وهنا سمك النيل [5] . وهناك

= « ومن الطيور المصرية الأبيس وهو مقدس وأليف ومحبوب لأنه ينقل بعض الحيات إلى أعشاشه ليتخذها طعاماً له ، فيكون بذلك سبباً في هلاك هذه اللعنات المميته وندرتها . وهذه الطيور أيضاً تصطرع مع جحافل الحيات المجنحة ، التي تأتي من مستنقعات بلاد العرب وتنتج سموماً خبيثة . وتهزمها في معارك جوية وتلتهمها قبل أن تغادر حدود بلادها » .

(١) في الأساطير اليونانية أن أن ممنون ابن تيثونوس وإلهة الفجر . وقد أطلق الإغريق اسمه على تمثالي أمنحتب الثالث وزوجه الليبية تي . وأول من وصف ظاهرة صدور الأنغام عن التمثال هو : استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٦ حيث قال « ويوجد هنا تمثالان ضخمان متجاوران كل منهما من حجر واحد . أحدهما سالم أما الآخر فقد تهدم من القاعدة إلى الأجزاء العليا على إثر حدوث زلزال فيما يقولون . والمعتقد أنه يصدر مرة كل يوم صوتاً كأنه صفير خافت من ذلك الجزء من التمثال الذي بقي على العرش ومن القاعدة . وعند ما كنت حاضراً في هذه البقاع مع ايليوس جاللوس وجمهور حاشيته من الأصدقاء والجند ، (سنة ٢٥ ق) سمعت أنا نفس الصوت حوالي الساعة الأولى (الأولى من شروق الشمس أي السادسة صباحاً) ولكني لست بقادر أن أجزم فيما إذا كان الصوت قد صدر من القاعدة أم من التمثال أم قد أطلقه أحد الذين كانوا واقفين في دائرة بالقرب من القاعدة . ذلك أني أميل — لخفاء العلة — إلى تصديق أي شيء إلا أن يكون الصوت صادراً من الحجارة المصفوفة على هذا النحو » . ولما زار الإمبراطور سيفيروس مصر سنة ١٩٦ ب .م . أمر بترميم التمثال فلم يصدر عنه صوت منذ ذلك التاريخ .

(٢) كانت طيبة وموقعها الآن الأقصر تعرف بذات المائة باب فقد قال هوميروس « الالياذة » (٩ ، ٣٨٣) طيبة ذات المائة باب ، التي ينطلق من كل باب منها مائتا محارب بخيلهم ومركباتهم » .

وقد زارها استرابون سنة ٢٥ ق . م فقال (١٧ . ١ . ٤٢) وترى إلى الآن آثار عظمتها ممتدة مسافة ثمانين أستاد طولا وتوجدبها معابد عديدة وقد خرب قمبيز أكثرها . والمدينة الآن مجموعة من القرى » .

(٣) **Cercopithecus** ؛ جاء في معجم الحيوان للفريق أمين المعلوف أنه الهجرس وهو قرد صغير طويل الذنب يعرف عند عامة المصريين بالنسناس . وكان يرمز للإله تحوت ويقدس من الأشمونين .

(٤) القط يرمز للإلهة باست وكانت تعبد في بوباسطين وموقعها الآن الزقازيق . قال هيرودوت (٢ ، ٦٧) « وتنقل القطط بعد موتها إلى مقاصير مقدسة في مدينة بوباسطيس حيث تحفظ وتدفن » . وقال ديودور الصقلي (١ ، ٨٣) ومن يقتل عامداً أحد الحيوانات المقدسة يلاقي الموت ، أما من يقتل قطاً أو أبا منجل (أبيس) فسواء قتلها عامداً أو غير عامد فالموت نصيبه على كل حال .

(٥) قال هيرودوت (٢ ، ٧٢) « ويعتبر مقدساً من الأسماك ، النوع الذي يسمى بالشبوط وثعبان الماء وهذان النوعان من الأسماك مقدسان فيما يقولون للنيل » . وقال استرابون (١٧ ، =

القرى كلها تعبد الكلب[١] . ما من أحد يعبد ديانا[٢] . وحرام أن يدنس الكرات والبصل[٣] وأن يقضم بالأسنان . يا له من شعب قدسي تنمو عنده هذه الآلهة في حدائقه ؟ إن الموائد كلها تعزف عن ذى الوبر[٤] من الحيوان ، ومن الحرام هناك ذبح صغار الجداء[٥] . ومع ذلك من الحلال أكل اللحم البشرى[٦] .

= ١ ، ٤٠ ،) ويوجد على الضفة المقابلة من النهر مدينة أوكسير نخوس = أى مدينه القنومة (هى البهنسة الآن) وإقليم بهذا الاسم . وهناك يعظمون القنومة ويوجد عندهم معبد للقنومة مع أن سائر المصريين يشتركون فى تعظيمها .... وأهل إقليم لاطوپوليس (هى إسنا الآن) يعظمون اللوطوس وهو نوع من السمك فى النيل » .

(١) كان الكلب مقدساً للإله ست . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « مدينة لينوپوليس أى مدينة الكلب (وموقعها الآن الشيخ فضل فى مواجهة بنى مزار حيث يعظم أنوبيس وحيث تقام مأدبة مقدسة للكلاب » . ويقول ديودور الصقلى ١ ، ٨٧ « يصور المصريون الإله الذى يسمونه أنوبيس على هيئة إنسان له رأس كلب إشارة إلى أنه حارس أتباع أوزيريس وإيزيس ... « إن كافة المصريين يشتركون فى تعظيم بعض الحيوانات كالثور والكلب والقط »

(٢) الإلهة Diana تقابل عند اليونان أرتميس وقال هيرودوت ٢ ، ١٣٧ « والإلهة بوباسطيس هى فى اللغة اليونانية أرتميس »

(٣) قال بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » (٨) « ولكن الكهنة يعزفون عن البصل ويكرهونه ويتعمدون أن يتجنبوه » . وقال بلينيوس (١٩ ، ٣٣) « والمصريون يعدون الثوم والبصل بين الآلهة عند الحلف » . هذا عن البصل أما الكرات فلم يرد ما يشير إلى تقديسه فى غير هذا الموضع .

(٤) يعنى الكبش وهو مقدس لخنوم . قال استرابون ١٧ ، ١ ، ٤٠ « أهل سايس (صا الحجر) يعظمون الكبش وكذلك أهل طيبة « الأقصر » وقال هيرودوت (٢ ، ٤٢) « ولا يضحى أهل طيبة بالكباش فهى عندهم مقدسة » .

(٥) يقول استرابون (١٧ ، ١ ، ١٩) منديس (تل الربع فى الجنوب الشرقى من المنصورة) حيث يعبدون بان » ويقول هيرودوت (٢ ، ٤٦) « يقدس أهل منديس الماعز ولكن الذكور منها أكثر من الإناث ورعاة الذكور يحظون بتعظيم أكثر من رعاة الأناث ، ويقدس واحد من الذكور بوجه خاص ، فإذا مات يعم الحداد العظيم كل إقليم منديس وفى مصر يسمى الماعز وبان كلاهما بمنديس» .

(٦) لقد أنكر هيرودوت مجرد التضحية بالإنسان فنتساءل (٢ ، ٤٥) « كيف يجوز لقوم لا تحل لهم التضحية بالحيوان إلا الخنازير والثيران والعجول ما كان منها طاهراً والأوز ، أن يضحوا بآدميين ؟ » ومع ذلك فقد قال ديودور الصقلى (١ ، ٨٤) « يحكى أن القحط هصر المصريين مرة فصاروا فى عوزهم يأكلون بعضهم بعضاً ولكن أحداً منهم لم يتهم -بجرد تهمة- بتناول أى الحيوانات المقدسة » .

ثم يقول (٢٦ — ٨٣) بعد استطراد قصير « سأروى الآن قصة عجيبة وقعت حديثاً فى عهد قنصلية يونكوس (١) خارج أسوار قفط المحرقة . سأروى خبر جريمة ارتكبها الشعب كله هى أبشع من كل ما فى المآسى المسرحية من جرائم . فإن أنت استعرضت كل الجرائم فى المآسى المسرحية فلن تجد بين كتاب المآسى من جعل الشعب هو المجرم . واسمع أى جريمة أتت بها الهمجية العارمة فى عصرنا هذا .

إن العداء القديم المتأصل والكره الأبدى الذى لا تندمل جراحه أبداً لا يزال إلى الآن متأججاً بين المدينتين المتجاورتين أمبى (٢) وتنتيرا (٣) . فالحنق فى كليهما عظيم شامل لأن كل منطقة منهما تمقت آلهة جيرانها (٤) . لأنها تؤمن أن الآلهة الوحيدة التى يجوز أن تعد آلهة هى الآلهة التى تعبدها هى

(١) كان يونكوس قنصلا سنة ١٢٧ ب . م .

(٢) كان المعتقد قديماً أن أمبى هى كوم أمبو ولعل ما حدا بالعلماء إلى هذا الرأى ما اكتشف فى كوم أمبو من جبانات شاسعة للتماسيح المحنطة . راجع Moset (المصدر نفسه) صفحة ٣٦٥ . وحيث أن كوم أمبو « تبعد عن مدينة تنتيرا وهى دندرة الحالية بمسافة تزيد عن ١٢٠ ميلا فقد شك فى صحة وصف المعركة لأن كوم أمبو على الجانب الأيمن من النيل فى حين أن دندرة على الجانب الأيسر منه ، ثم إن واحدة منهما فقط إلى الشمال من قفط . وإذن فلا يمكن أن تقوم بينهما معركة على الإطلاق .

وقد ذهب العلماء بصدد هذا الشك مذهبين فأما الأول فقد أنكر صحة نسبة القصيدة الخامسة عشرة برمتها إلى يوناليس (راجع C. Kempf فى كتابه De Satira quinta decima quae sub Juvenalis nomine circumfertur ، برلين سنة ١٨٤٣) وأما الثانى فقد أنكر أن يوناليس زار مصر (راجع Duff. المصدر نفسه ص . ٦٠٢ هامش (١) .

ولكن J.Dümichen أخرج سنة ١٨٧٩ فى برلين كتابه فى تاريخ مصر القديمة Geschichte des Alten Agyptens وبرهن فيه (صفحة ١٢٥ — ١٢٦) على أن أمبو هى مدينة نبط المتاخمة لدندرة . وفى سنة ١٨٩٥ قام W. M. F. Petrie J.E. Quibell, بالحفائر فى هذه المنطقة وأخرجا سنة ١٨٩٦ كتابهما Naqada and Ballas وأثبتا فيه أن أمبى هى نبط بما لا يدع مجالا لشك (انظر صفحات ٦٥ — ٧٠) .

(٣) موقعها الآن دندرة وكان اسمها فى العصر اليونانى الرومانى أفروديتوبوليس أى مدينة هاتور .

(٤) كان الإله ست يعبد فى أمبى ويقول Moret (المصدر نفسه ص . ٦٨) إن نبط كانت أقدم مراكز عبادة الإله ست ومعقل أتباعه السياسى . وهى بالقرب من نقادة وبلاص على الضفة الغربية من النهر فى مواجهة قفط . وكان ست يصدر على شكل تمساح . أما دندرة =

نفسها وقد حدث فى فترة العيد عند أحد هذين الفريقين أن بدا لأعيان خصومهم وقادتهم كلهم أنه لابد من انتهاز هذه الفرصة حتى لا يتمتع أعداؤهم بيوم فرح وحبور . ولا بلذة العشاء الفاخر إذ تمد الموائد أمام المعابد وفى مفترق الطرق ويسهرون على الأرائك تمد بالليل والنهار إلى أن تطلع عليها شمس اليوم السابع[١] . إن مصر ولاشك عاتية ولكن شعبها الهمجى لا يختلف فى الترف كما لاحظت بنفسى حتى عن كانوبوس الشهيرة[٢] . أضف إلى هذا

= فقد كانت مركزاً من مراكز عبادة الإلهة هاتور . وقد قام الإمبراطور دوميتيانوس ببناء بوابتين لمعبدها فى دندرة سنة ٨٨ . وكان أهل دندرة يشتهرون بكراهيتهم للتماسيح قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) «وفى مدينة تنتيرا على عكس الأمر عند سائر المصريين لا يعظم التمساح بل يعد أبغض الحيوانات كلها . ذلك أنه بالرغم من أن سائر المصريين يعرفون ضراوة الحيوان ومبلغ فتكه بالجنس الإنسانى فإنهم مع ذلك يقدسونه ولا يؤذونه ، فى حين أن أهل تنتيرا يتعقبونها ويقتلونها بكافة الطرق . ويقول البعض إنه كما يوجد نوع من النفور الطبيعى بين البسليين بالقرب من فورينة وبين الزواحف ، فكذلك الحال بين أهل تنتيرا والتماسيح حتى إنهم لا يصيبهم منها ضر . بل إنهم يغطسون فى نهر بلا خوف ويعبرونه فى حين لا يجرؤ أحد غيرهم على ذلك ... وهم يعبدون أفروديتى» . وقال بلينيوس (٨ ، ٣٦) «إن فئة من الناس تدعى أهل دندرة من اسم الجزيرة التى يسكنونها فى النيل ذاته تعادى التماسيح ... وهؤلاء وحدهم هم الذين يجرؤون على مهاجمته فهم يسبحون فى النهر ويعتلون ظهره كما لو كانوا يمتطون صهوة جواد ، وعند ما يفغر فاه ويميل برأسه للوراء للعض يدخلون فى فيه عصا ويمسكون بطرفيها باليمين والشمال ويسوقون أسيرهم إلى الشط كما لو كانوا ممسكين بأعنة . وهم يخيفون التماسيح بمجرد الصراخ حتى يضطروها لقىء ما التهمت من جثث حديثة لدفنها . ولذلك فإن التماسيح لا تقرب هذه الجزيرة وحدها كما أن رائحة هذا القبيل من الناس تذودها كما تذود رائحة البسليين الحيات» .

(١) لقد أورد F. Petrie فى كتابه Dendereh ، لندن ١٩٠٠ ص ٥٧٠ — ٥٩ . وصفاً دقيقاً لولائم كبرى كانت تقام فى دندرة . أما أن المصريين كانوا يولمون خارج البيوت فظاهر من قول هيرودوت (٢ ، ٣٥) «وهم يأكلون خارج بيوتهم فى الطرقات» . ومن قول ميلا (١ ، ٥٧) «إنهم يتناولون طعامهم علناً خارج بيوتهم» أما عن عدد أيام العيد فيقول أميانوس ماركيلينوس (٢٢ ، ١٥ ، ١٧) «وبالرغم من أن التماسيح ضارية على الدوام ، فإنها تنبذ ضراوتها وتهدأ كأنها عقدت هدنة عسكرية طوال أيام العيد السبعة التى يحتفل فيها كهنة منف بميلاد النيل» .

(٢) راجع الهامش (١) ص ١٦ .

أن الانتصار سهل على قوم مخمورين يترنحون فى شرابهم[١] . ففى ناحية قام نفر يرقصون على أنغام زمّار[٢] اسمر وقد تعطروا بما اتفق من عطور ، وكللوا جباههم بأكاليل من مختلف الورود . وفى الناحية الأخرى كان الحقد ضاريا . وقد بدأ السباب يدوى أولا ، وهو بمثابة نفير الاشتباك لنفوسهم الملتهبة . وعندئذ التحموا وقد تعادل الصراخ فى الجهتين وصالت الأيدى العزل بدلا من السلاح ، فقل من الأصداغ ما نجت من الجراح . ولم تخرج ألف واحدة سالمة من كل هذا الشجار . ويمكنك أن ترى الوجوه مشدوخة الآن فى الجهتين جميعاً ، وقد تغيرت الآن سماتها وبرزت العظام من الأصداغ المشجوجة ، كما ترى قبضات أيديهم وقد تلطخت بالدماء التى سالت من العيون . ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلعب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يطأونها . ولا غرو فما جدوى الدهماء فى كل هذه الآلاف من المتشاجرين ، إذا كانوا كلهم سيعيشون ؟ ومن ثم اشتد الهجوم أكثر من ذى قبل فقد فتشوا الأرض عن الحجارة[٣] وهى أسلحتهم الوطنية فى الفتن وأخذوا يطوحون بها بأذرعتهم . وهى ليست كالحجارة التى

---

(١) يقول هيرودوت (٢ ، ٧٧) « إن المصريين يتعاطون خمراً مستخرجة من الشعير إذ لا يوجد فى بلادهم كروم » . وقال بلينيوس (١٤ ، ٩) إن النبيذ السبينيّ (السمنودى) ينتج فى مصر وهو يصنع من ثلاثة أنواع شهيرة من العنب تنمو فيها » . وتحدث (١٤ ، ١٩) عن خمر البلح وفى (١٤ ، ٣٩) عن خمر الشعير .

(٢) قال هيرودوت (٢ ، ٢٨) فى وصف عيد ديونيسوس « ويتقدم الزمار الموكب » وقال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤٤) وفى أبيدوس يقدسون أوزيريس ، ولا يسمح فى معبد أوزيريس لمغن أو لنافخ ناى أو عازف قيثار أن يستهل الشعائر كما هى العادة فى سائر طقوس الآلهة » .

(٣) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لقد صمد بترونيوس وليس معه إلا حرسه من الجند عند ما هاجمه جمع لا يحصى من السكندريين بوابل من الحجارة » .

كان يقذف بها تورنوس[١] أو أياس[٢] أو كالتي ضرب بها ابن تيديوس[٣] أينياس على حقوه ولكنها تليق بأن تطلقها أيدي لا تشبه أيديهم فهي مولودة في عصرنا هذا . ذلك أن الجنس الإنساني بدأ حتى في عصر هوميروس يذوي فالأرض الآن تخرج رجالا أشقياء ضعاف[٤] ولذلك فإن كل إله يرمقهم يسخر منهم ويمقتهم » .

« ولنعد الآن من هذا الاستطراد إلى قصتنا : فبعد أن ازدادوا بالمدد تجاسرت فئة منهم فاستلت السيوف وبدأت المعركة من جديد بالسهام الخطرة . فما كان من سكان تنيترا المجاورة ذات أحراش النخيل الظليلة إلا أن لاذوا بالفرار مهرولين أمام هجوم أهل أومبي . وكان الرعب الشديد قد استبد بواحد منهم فأسرع في الجري فعثر وقبض عليه . وما كان من الفئة المنتصرة إلا أن مزقته إرباً وأجزاء كثيرة حتى يكفي قتيل واحد الكثيرين . والتهمته كله ونهشت عظامه . ولم ينضج بالسلق في أوان ولم يشو على السفافيد فقد رأوا أن انتظار إنضاج النار سيكون طويلا وثقيلا فرضوا بالجثة نيئة » .

وهو لا يلتمس للشعب عذراً فيما وصف فهو يقول (١١٩ — ١٢٨) ولكن ما الخطب الذي دفع هؤلاء إلى هذا ؟ أي مجاعة طاحنة هصرتهم أو أي أسلحة مبيدة حصرتهم فاضطرتهم إلى الاجتراء على مثل هذا الإثم المشنوء ؟

---

(١) تورنوس في « الانيادة » لفرجيليوس هو ملك الروتوليين وقد قاوم غزو الطرواديين أشد مقاومة والإشارة إلى ١٢ ، ٨٩٦ — ٩٠١ .

(٢) أياس ابن تيلامون قائد السالامينيين في حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ٧ ، ١٨ م ، ٢٦٩ ، ١٢ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣

(٣) ابن تيديوس هو ديوميديس وهو قائد أهل أرجوس في حصار طروادة . والإشارة إلى « الإلياذة » ٥ ، ٣٠٢ — ٣٠٥

(٤) كان اليونان ، والرومان من بعدهم ، يؤمنون بنكسة الجنس الإنساني وبأن العصر الذهبي كان أسبق العصور ثم تلاه العصر الفضي ثم البرونزي ثم عصر الأبطال وهو العصر الذي يمثله شعر هوميروس ثم أخيراً العصر الحديدي وهو أسوأ وأحط العصور كلها .

فلو أن أرض منفيس جفت فهل كان فى وسعهم أن يأتوا أكثر من هذا كيداً فى النيل الذى أبى أن يفيض ؟

لا السمبريون[١] والبريطانيون المرعبون[٢] ولا السرماتيون[٣] العتاة ولا الأجاثيرسيون[٤] المخبولون قد هاجوا مثل هياج هذا الشعب الخانع[٥] التافه الذى كان همه من قبل أن يضع أشرعة صغيرة على قوارب من الخزف وأن يزود الزوارق الفخارية الملونة بمجاديف صغيرة[٦] .

ونلاحظ أولا أن القصيدة تفيض بالكراهية للمصريين. حقاً إن يوناليس كان يكره الأجانب عموماً من يونانيين [٧] ويهود [٨] وكلدانيين [٩] إلا أن كرهه هؤلاء لا يبلغ مبلغ الحقد العارم الذى جعله يقف هذه القصيدة برمتها على هجاء مصر وأهلها . وإن هذا الحقد قد أعماه عن شيئين . أعماه عما كان يجرى فى سائر البلاد من مخاز لم يذكر منها واحدة . كما أعماه عما كان يدور فى روما نفسها فى « حلبات المصارعة » حيث كان الإنسان يتصدى للحيوان كما كان يتصدى لأخيه الإنسان ولا يخرج من حلبة المصارعة إلا قاتلا أو مقتولا .

---

(١) السمبريون Cimbri شعب سلتى اتحد بالتيوتون وانحدروا جنوباً فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وهزموا الرومان مرات عديدة كان آخرها سنة ١٠٥ ق . م ولكنهم لحسن حظ الرومان لم يعبروا جبال الألب فيغزوا روما وإنما ساروا إلى أسبانيا . ولما رجعوا كان الرومان قد استعدوا لهم فهزموهم سنة ١٠٢ ، ١٠١ ق . م ولخوف الرومان منهم ضربوا بهم المثل فى القسوة .

(٢) وصفهم هوراتيوس فى الأغانى (٣ ، ٤ ، ٣٣) « بأنهم قساة على الأجانب » .

(٣) هم سكان شرق روسيا وبولندا

(٤) وصفهم هيرودوت (٤ ، ١٠٠) بأنهم سكان ترانسلفانيا .

(٥) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٥٣) « لا المصريون أنفسهم محبون للحرب ، مع أنهم كثر ، ولا القبائل المجاورة » .

(٦) قال استرابون (١٧ ، ١ ، ٤١) « إن بعض الناس يتخذون مراكب من الفخار » .

(٧) انظر ٣ ، ٦١ ، ١١ ، ١٠٠ ، ١٣ ، ١٢١ .

(٨) انظر ١٤ ، ٩٧

(٩) انظر ٦ ، ٥٥٣ .

كل ذلك والناس من حولهم يتلذذون بما يشاهدون ويزجون فراغ يوم العطلة . وكانت فى يوناليس حسنة لا تنكر هى كرهه للاستعمار واستغلال المحكومين . قال يخاطب والياً . « وعند ما تدخل آخر الأمر الولاية التى كنت تحلم مدة طويلة أن تكون حاكماً لها . فضع لجاماً واحداً لنزقك . وضع حداً أيضاً لجشعك وارثِ لحال أهل الولاية المعدمين . فإنك لترى عظامهم قد جفت وخلت من نخاعها . واحترم ما تأمر به القوانين . وما يوصى به مجلس الشيوخ[١] . ولما طالبت ولاية أفريقية بمحاكمة ماريوس بريسكوس واتهمته بالرشوة وسوء الإدارة . وأدين ونفى : كتب يوناليس معلناً عطفه على الولاية وأهلها يقول « إن ماريوس فى منفاه يجرع الخمر من الساعة الثانية بعد الظهر ويرتع فى غضب السماء . أما أنت أيتها الولاية فقد كسبت القضية ولكنك تبكين[٢] » . وكانت مصر ولاية رومانية يغتصب قمحها وتستنزف مواردها ؛ وتئن تحت وطأة الاحتلال الرومانى الغاشم ولكنها لم تحظ من يوناً ليس مع معرفته بأحوالها بكلمة رثاء أو عطف واحدة . مما يرجح كرهه للبلاد وتحامله فى وصف أهلها .

ونلاحظ ثانياً أنه يهاجم الديانة المصرية هجوماً لا ينم عن كرهه لها ولمعتنقيها فحسب ؛ بل ينم عن خوفه وقلقه من تغلغلها فى المجتمع الرومانى[٣] وتقويضها دعائم الديانة الرومانية . فهو يتهكم بها أشد التهكم ويقذع فى هجاء كهنتها أفحش الإقذاع ويندد بمعتنقيها من الرومان تنديداً كله مرارة وتثريب . قال يتهكم بامرأة تقية ٦ ، ٥٢٦ – ٥٤١ « إما ما أمرتها أيو[٤] البيضاء فسوف تذهب إلى

(١) انظر ٨ ، ٨٧ – ٩١

(٢) راجع هامش (١) ص ٩

(٣) راجع « عبادة إيزيس فى إيطاليا » The Cult of Isis in Italy للدكتور محمد سليم سالم « رسالة » ليفربول سنة ١٩٣٧ .

(٤) هى ابنة إيناخوس ملك أرجوس أثار جمالها إعجاب زيوس وحفيظة هيرا ، فسختها بقرة . وللأسطورة أصول فى الأساطير المصرية القديمة . وهى هنا تعبير عن إيزيس .

حدود مصر وتحضر مياه مستقاة من مروى[١] الحارة لترشها على معبد إيزيس الذى يقوم بالقرب من الميدان الحربى لأنها تؤمن أن الأمر قد صدر إليها بصوت الآلهة نفسها . يا له من عقل وقلب تتحدث إليه الآلهة بالليل ! ولذلك فإن المرتبة الأولى والعليا لتولى لأنوبيس[٢] الذى تحيط به طائفة لابسى الكتان[٣] حليقى الرءوس[٤] . وهو[٥] يسخر من الباكين وهو يجرى . وأنوبيس هو الذى يحصل لها على الصفح إذا لم تمتنع زوجة عن الجماع فى الأيام التى ينبغى أن ترعى قداستها . وهو الذى يقتص قصاصاً كبيراً إذ ما تدنس فراش الزوجية أو إذا رئى الثعبان الفضى يحرك رأسه . وإن دموعه وهمساته المدروسة لتدل على أن أوزيريس سوف لا يأبى الصفح عن الجرم . وذلك طبعاً بعد أن يرشى بأوزة سمينة وشطيرة من كعكة التضحية . « والحق أن إيزيس قد غزت قلوب أهل روما فامتلأت معابدها هناك بالنذور وقد رأى يوناليس فى النذور الذى ملأت معابد روما شاهداً على أن « إيزيس هى التى تقيم أود مصورينا »[٦]

---

(١) لقد أثبتت الحفائر التى قام بها جارستانج وسايس وجريفيث وأخرجوا نتائجها فى كتابهم Meroe ، لندن سنة ١٩١١ ؛ أن معبد إيزيس فى مروى كان يحتوى على أدوات للطهور من العصر اليونانى الرومانى . مما يؤكد أن بعض عباد إيزيس كانوا فعلا يزورون معبدها هناك . راجع G. Highet المصدر نفسه صفحة ٢٤٢ — ٣٤٣

(٢) فى الديانة المصرية القديمة هو حادى الموتى وكان يصور برأس كلب وقد عاون إيزيس فى البحث عن جثة أوزيريس ومن هنا كان دائماً فى ركابها .

(٣) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) إن ملابس الكهنة المصريين من الكتان .

(٤) قال هيرودوت (٢ ، ٣٧) « ويحلق الكهنة كل أجسامهم كل يومين » .

(٥) أى الكاهن الذى يمثل أنوبيس فيلبس قناعاً يصور كلباً يجرى . والباكون هم الذين يحددون على موت أوزيريس . قال هيرودوت (٣ ، ٦١) يصف العيد فى مدينة بوسيريس « يضرب الرجال والنساء جميعاً صدورهم وهم آلاف كثيرة جداً من الناس ، وليس لى أن أذكر على من يحددون » .

(٦) انظر القصيدة ١٢ ، ٢٤ — ٢٨

وقد حاول أن يحطم نفوذ إيزيس فى روما فصور معابدها مباءة للخنا والفجور فإذا إزينت غادة فلأن عشيقها ينتظرها فى إحدى الحدائق أو بالقرب من محراب « إيزيس القوادة »[١]. وإذا تعرض أحد أتباعها للغواية فليس فى عبادتها عاصم « ومن الناس من يخشى أن يكون العقاب فى إثر الجريمة ، وهو يؤمن بالآلهة ولكنه مع ذلك يأثم ويجادل نفسه على هذا النحو . لتتصرف إيزيس ببدنى كما تشاء ولتطح ببصرى بناقوسها Sistrum المرعد ما دمت حتى بعد فقدان بصرى أحتفظ بالأموال التى خنت الأمانة فيها »[٢] .

والحق أن الديانة المصرية كانت تجد فى روما مرتعاً خصيباً وكان نفوذها يتزايد فيها إلى حد يزعج أهل الفكر من الرومان ، فكانوا يشنون على مصر ودياناتها حملة من الدعاية تخفف من نفوذها إلى حين . وقد حدث هذا بشكل واضح مرتين ، أولاهما بعد موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق .م والثانية بعد زيارة الإمبراطور هادريان لمصر سنة ١٣٠ ب . م .

فقد كان من تأثير كليوباترة على قيصر وزيارتها لروما ودعايتها لمصر أن انتشرت عبادة إيزيس فى روما إلى حد اضطر معه «الحكم الثلاثى» أن يقيم معبداً لإيزيس فى روما سنة ٤٢ ق . م استرضاء للجماهير واجتذاباً لعطفهم[٣] وتفشت عبادتها فى روما حتى أن كهنتها ومريداتها برزن فى أدب العصر الأغسطى[٤] فلما كانت موقعة اكتيوم نفيت إيزيس خارج أسوار روما[٥]، وشنت حملة للدعاية ضد مصر ودياناتها[٦] . وكانت السياسة العامة هى محاربة

---

(١) انظر القصيدة ٦ ، ٤٨٧ — ٤٩١

(٢) « « ١٣ ، ٩٠ — ٩٤ .

(٣) راجع ديوكاسيوس ٤٣ ، ٢٧ ، ٤٧ ، ١٥

(٤) راجع كاتولوس ١٠ ، ٢٦ وتيبولوس ١ ، ٣ ، ٢٣ وبروبرتيوس ١١ ، ٣٣

(٥) راجع ديوكاسيوس ٥٣ ، ٢

(٦) راجع فرجيليوس « الإنيادة » ٨ ، ٦٨٥ — ٧١٣ وهوراس الألمانى ١ ، ٣٧ ، ٩ ، ٤ وبرو برتيوس ٣ ، ١١ ، ٢٩ — ٥٨ وأوفيديوس « التناسخيات » ١٥ ، ٨٢٦ — ٨ ولوكانوس « فارساليا » ٨ ، ٥٤١ — ٥٥٠ .

نفوذ الديانة المصرية فى روما ، طوال حكم الأمبراطورين أغسطس وطيبريوس[١] حرباً فترت فى عهد الإمبراطورين كاليجولا وكلوديوس . فلما جاء نيرون عاد نفوذ الديانة المصرية من جديد[٢] . وكان الإمبراطور أوتو (سنة ٦٩ م) أول من اشترك فعلا فى إقامة الشعائر المصرية من الأباطرة[٣] . واتخذ الإمبراطور فسباسيانوس (٦٩ — ٧٩ م) متهجداً خاصاً فى معبد سيرابيس[٤] وكانت عبادة إيزيس أثناء الصراع العنيف الذى قام سنة ٦٩ م نشطة حتى أن دوميتيانوس استخفى فى زى أحد كهنتها[٥] وقد رد إليها هذا الصنيع بأن أعاد بناء معبدها فى الميدان الحربى سنة ٩٢ م على نطاق واسع[٦] . أمّا الإمبراطور هادريانوس فقد أولع بمصر وديانتها وآثارها فأطال فيها إقامته واختلط بعلماء المتحف فى الإسكندرية وأقام فى قصره فى تيبور (تيفولى) جناحاً مصرياً سماه كالايوس كانت الروائع الفنية التى اشتمل عليها مزيجاً من الفن المصرى الخالص والفن الرومانى[٧] . وتتبع الناس فى روما هوى الإمبراطور وأصبح الحديث عن مصر والأخذ بتراثها زى العصر الشائع فى روما حتى لقد بلغ عند بعض الناس مبلغ الهوس ؛ فصار لمنجميها وعرافيها

---

(١) راجع ديوكاسيوس ٥٤ ، ٦ ، ٦ ، وتاكيتوس « الحوليات » ٢ ، ٨٥ ، وسينيكا « الرسائل » ١٠٨ ، ٢٢ وسيوتونيوس « حياة طيبريوس ٣٦ .

(٢) راجع تاكيتوس « الحوليات » ١٥ ، ٣٦ وسيوتونيوس « حياة نيرون » ٤٠ ، ٤٧

(٣) راجع سيوتونيوس « حياة أوتو » ١٢ .

(٤) راجع سيوتونيوس « حياة فسپاسيانوس » ٤ ، ٥ ، ٧ وتاكيتوس « التاريخ » ٤ ، ٨١

(٥) راجع تاكيتوس « التاريخ » ٣ ، ٧٤ وسيوتونيوس « حياة دوميتيانوس » ١

(٦) لقد حضر تيتوس Titus حفل تنصيب العجل أبيس فى مصر . راجع سيوتونيوس « حياة تيتوس » .

(٧) راجع "Hadrian's Villa at Tivoli" لتوماس أشبى Thomas Ashby فى كتاب : Wondess of The Pest (نشرة J.A. Hammeston سنة ١٩٣٨) الجزء الثالث ص ٩٣٧ — ٩٤٧ .

مكانة ملحوظة فى المجتمع الرومانى[1] . وكانت النساء فى روما يستشرن المنجم المصرى پتوزيرس قبل الإقدام على عمل من الأعمال[2] . فلا غرو أن ينبرى شاعرنا ليناهض هذا النفوذ الأجنبي الذى يجتاح روما ويكاد يقضى على تقاليدها الدينية والاجتماعية . ولا جناح علينا إذا نظرنا إلى قصيدته الخامسة عشر كلها أعلى أنها ضرب من ضروب الدعاية ضد مصر وديانتها .

ونلاحظ ثالثاً أن يوناليس لم يكن فى مصر وقت حدوث المعركة التى وصفها . فهو يقول إنها حدثت فى عهد قنصلية يونكوس أى فى سنة ١٢٧ م . وفى هذه السنة عينها كان الشاعر فى روما وقد كتب يداعب صديقه الذى وقع فريسة لمحتال يقول « لقد جاوزت السنين إذ ولدت فى عهد قنصلية فونتيوس[3] . وقد كان فونتيوس كاپيتو قنصلا سنة ٦٧ م . فلابد إذن أن يوناليس كان فى روما سنة ١٢٧ م . وقوله فى القصيدة « كما رأيت بنفسى » لا ينصب إلا على الموائد الممدودة التى رأى مثلها فيما مضى على المعركة التى دارت . وإذن فكل ما يرويه الشاعر من أنباء المعركة ووصفها وتفاصيلها يجب أن يؤخذ بالحذر الواجب مع من ينقل عن سماع .

نحن لا نشك فى قيام معركة بين أهل دندرة وأهل نبط و لبلدتان متجاورتان وقد أقامت دندرة حولها سوراً إتقاء لشر جيرانها[4] والأوراق

(١) لقد كان المنجمون المصريون يمشون فى ركاب الإمبراطور أوتو والإمبراطور ماركوس أوريليوس ويصحبونهما أينما ارتحلا . انظر تاكيتوس « التاريخ » ١ ، ٢٣ وديوكاسيوس ٧١ ، ٨ .

(٢) انظر يوناليس (القصيدة ٦ ، ٥٨٠) فاذا رقدت وقد ألم بها المرض لا تتصور أن ساعة أصلح لتناول الطعام إلا الساعة التى يوحى بها بيتوزيرس » .

(٣) راجع هامش (٣) ص ١٠ .

(٤) انظر G. Highet المصدر نفسه ص . ٢٩ ، وراجع هامش (٢) ص ٢٢

البردية تحدثنا عن قيام أمثال هذه المعارك بين البلدان المتجاورة[1] ، والمؤرخون القدماء يشيرون إليها بين الحين والحين[2]

وإنما الذى نتساءل عنه هو طبيعة هذه المعركة . فقد روى بلوتارخوس أنه عند ما قامت المعركة بين أهل أوكسيرنخوس وأهل كينوپوليس تدخلت الجيوش الرومانية لفضها وإعادة الأمن . ولما قامت المعركة بين أهل منفيس وهليوپوليس فيما تقول « التواريخ الأوغسطية » يمم الإمبراطور هادريانوس وجهه شطر مصر لإعادة الأمور فى نصابها . وهذه معركة تقوم بين بلدتين قريبتين من قفط . وقفط معسكر من معسكرات الجيش الرومانى فى مصر[3] فلماذا لم يتدخل الجيش لفض المعركة ؟ هل كان قائد الكتيبة الرومانية المرابطة فى قفط أخبر بالعادات المصرية من السائح الرومانى الذى تصادف مروره فى هذه المنطقة ونقل ما رأى إلى يوناليس فى روما ؟ وقد بدأت المعركة بقذف الحجارة فأحرى بالرومانى الغريب أن يبتعد عن معتركها فهو فى الأكثر لم يشهدها عن كثب . بل رأى أطرافاً منها ونقلت إليه أطراف فجمع شملها ورواها للشاعر الذى صاغها بما يتفق مع مراميه فى الدعاية ضد مصر بما يتقنه من أفانين المبالغة والتهويل ، يعينه عليهما ما يلقيه فى حنايا وصفه من لمسات واقعية يستقيها من إقامته فى مصر . والذى يعنينا الآن هو ماذا رأى الراوى فعلا .

إن نبط أقدم مركز لعبادة الإله ست . وقد اكتشف فيها پترى سنة ١٨٩٥ جبانة قديمة ومعبداً فيه صلوات كثيرة موجهة إلى ست نبطى

---

(١) راجع بردى القاهرة ١٠٣٥١ ، ١٠٣٧١ وبردى أوكسيرنخوس ١٨٣١ ، ١٨٥٣ ، ١٨٦٦ ، ١٨٦٧ . وانظر كتاب "Life and Letters in the Papyri" G. Wiener سنة ١٩٣٣ صفحة ١٧ — ١٨ .

(٢) انظر بلوتارخوس « إيزيس وأوزيريس » ٧٢ والتواريخ الأغسطية Historia Augusta فى حياة هادريانوس . وراجع J. G. Milne المصدر نفسه ص . ٣٤ ، ٤٣ .

(٣) راجع J. G. Milne المصدر نفسه ص ١٧٧

أى ست الإله الخاص بنبط أوست إله النبطين وهو ابن نوت إلهة السماء وسيد مصر العليا . ولعل ست كان أقدم إله حظى بلقب سيد فلا بد إذن أن يكون أتباعه ومريدوه قد فرضوا إلههم فى مبدأ العصور التاريخية على الأقاليم الجنوبية وجعلوه أول ملك لمصر العليا . ولم يكن ست من آلهة النور ، بل كان إلها من آلهة الظلام والشر[١] . وهو أعدى أعداء الثالوث الأقدس إيزيس وأزيريس وحورس .

أما إيزيس — فى هيئة هاتور — وهى الأم الكبرى وزوج حورس الأكبر فكانت تعبد فى دندرة فى معقل عبادة خصمها ست وهو فى صورة التمساح سبك[٢] .

ولقد هيأت الطبيعة للإله ست أن يتعالى على آلهة النور . فلم يكن للنّور أن يتغلب على الظلمة . ولا للنهار أن يتغلب على الليل . وهذا الكسوف والخسوف والمحاق القمر كلها شواهد على غلبة ست . هذه كلها كانت هجمات من الإله ست ضد العين اليمنى (الشمس) والعين اليسرى (القمر) للإله حورس . وقد كان المصريون يسمونها معارك السماء (خنوم پت) وكان حورس وست يسميان «المتحاربان» وكان من طبيعة هذه المعارك وهذه الحرب ألا يتغلب فيها الواحد على الآخر بل هى سجال بينهما فيتعادلان فيها كما يتعادل الليل والنهار[٣] . ولقد كانت هذه الحروب والمعارك موضوعاً محبباً فى الأدب الأسطورى المصرى القديم . قال بلوتار خوس «يقول المصريون طبقاً لما يعتقدون ، إن طيفون (= ست) يضرب عين حورس مرة ومرة ينتزعها ويبتلعها . وعندئذ يعطيها ثانية للشمس . وهم يرمزون بالضربة إلى المحاق القمر كل شهر وبالانتزاع يرمزون إلى خسوفه الذى تداويه الشمس بالإشراق عليه فور خروجها من ظل الأرض[٤] .

---

(١) انظر Moret المصدر نفسه ص ٦٨ — ٦٩

(٢) المصدر السابق ص ١١٠

(٣) المصدر السابق ص ٧٠

(٤) إيزيس وأزيريس ، ٥٥

فإذا ما رجعنا إلى القصيدة الخامسة عشر ونظرنا إليها فى هذا الضوء وجدنا أن المعركة قد قامت أثناء العيد ، يوم مد أهل دندرة الموائد أمام المعابد ، وقاموا يرقصون على أنغام المزمار ، وشربوا الخمر حتى ثملوا وتعطروا وكللوا رؤوسهم بالأزهار . ثم حدث الهجوم من أهل أمبى أتباع ست ولكن الحرب بدت للشاهد الراوى كأنها من لعب الأطفال ، ثم استلت السيوف فهرول أهل دندرة متراجعين أمام أهل أمبى أى رجع أتباع إيزيس أمام جحافل أتباع ست فهى أقرب إلى التمثيليات الدينية فى ملابساتها وظروفها كما تبدو من وراء الحجاب الكثيف الذى أسدلته عليها أغراض الدعاية ضد مصر والنيل من سكانها . قد يكون أحد أهل دندرة قد سقط فعلا على الأرض فوقع تحت وطأه أقدام المهاجمين . ويحتمل أن يكون هذا حلقة من حلقات التمثيلية وقد جاء فى وصف المعركة « ومع كل ذلك فهم يعتقدون أنهم يلهون ويشنون حرباً كلعب الأطفال لأنه لم تسقط على الأرض جثث يطأونها » .

قال هيرودوت يصف تمثيلية دينية من هذا الطراز فى بابريميس : « حينما تجنح الشمس للمغيب تتفرغ طائفة قليلة من الكهنة لتمثال الإله ، أما أكثر الكهنة فيقفون فى مدخل المعبد ممسكين بعصى خشبية ، ويقف قبلهم رهط آخر من الرجال يوفون نذورهم وهم يزيدون على الألف عداً ، ويمسكون بعصى خشبية مثل الآخرين . أما تمثال الإله فيوضع فى مقصورة صغيرة من الخشب المذهب وينقل فى ليلة العيد إلى موضع مقدس آخر . أما الفئة القليلة التى كانت قد تركت للعناية بالتمثال فتجر مركبة ذات أربع عجلات فوقها المقصورة وقد وضع فيها تمثال الإله . ويحاول الكهنة الواقفون بمدخل المعبد أن يمنعوهم من الدخول فيخف الذين يوفون النذور لنجدة الإله ويضربونهم ، فيدافع هؤلاء عن أنفسهم وهنا تحمى معركة العصى ، وتشج رؤوس ويبدو لى أن الكثيرين يموتون بجراحهم ولو أن المصريين ينفون أن أحداً يموت من جرائها[1] » .

---

(١) كانت فى شرق الدلتا ولعلها كانت جزءاً من تل الفرما .

هذا وصف لمعركة ساقه هيرودوت[1] قبل وصف يوناليس للمعركة بين دندرة ونبط بخمسة قرون أو تزيد . كان المصريون « يقيمونها تكريماً للإله آريس[2] » فيما قالوا له . وقد استعملت فيها العصى وشجت رؤوس ، وسالت دماء وكان يبدو للغرباء أن ممن يشتركون فيها من يموت بجراحه ، ولكن المصريين وهم أخبر بدينهم وطقوسهم نفوا هذا الوهم أو حاولوا أن ينفوه من ذهن هيرودوت .

كل هذا يحملنا على القول بأن مارآه من روى الخبر ليوناليس لم يعد أن يكون تمثيلية دينية اشتركت فيها جماهير غفيرة كالتى اشتركت فى الحفلة الدينية التى وصفها هيرودوت « وهم يزيدون عن الألف عداً » واستعملوا فيها الحجارة والسيوف والسهام ، كما استعمل أهل پاپريميس العصى الخشبية ، ولعل من اشتركوا فى التمثيلية الدينية التى وصفها يوناليس كانوا يوفون بعض ما عليهم من نذور مثل إخوانهم الذين اشتركوا فى معركة پاپريميس . وشجت الرؤوس هنا كما شجت هناك ، وسالت الدماء هنا كما سالت هناك . وخيل لهيرودوت أنه لا بد قد مات بعض من كانوا يوفون النذور بالاشتراك فى المعركة ولكن أهل البلاد طمأنوه ونفوا أن أحداً يموت من جرائها . أما يوناً ليس أطلق العنان لخياله بعد ما سمع من وصف المعركة فأنهاها بما ظن هيرودوت من أن معركته لا بد منتهية إليه من موت بعض من اشتركوا فيها ، وقد حمله كرهه للمصريين ونفوره من ديانتهم وتوغل نفوذها فى روما على تصوير ما صور من أكلهم للحم المصرى الصريع .

وهيب كامل

(١) هيرودوت ٢ ، ٦٣

(٢) آريس يقابل الإله شو عند المصريين .

نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية

فى العصر الوسيط

لايثق المؤرخون كثيراً فى دقة الأرقام التى ترد أحياناً فى المصادر الأدبية للتاريخ الوسيط ويفضلون عليها بالطبع الأرقام التى ترد فى الوثائق الرسمية . إلا أن الأرقام التى ترد فى وثائق العصر الوسيط نادرة جداً فضلا عن أنها منعزلة متناثرة لا تكوّن سلسلة متصلة تصلح أساساً للدراسة الاحصائية ، ويرجع ذلك إلى إهمال الوثائق الحسابية وعدم تقدير قيمتها وإتلافها ؛ فلم يصل إلينا منها شيء يذكر حتى فى المدن التى عاشت على التجارة . ولا تأخذ مجموعات الوثائق التى تحوى أرقاماً فى الزيادة والتنوع ، إلا منذ القرن السادس عشر ؛ مما جعل مؤرخى هذا العصر الذين غالوا فى قيمة هذا النوع من الوثائق وعلى رأسهم Braudel يقولون إن « التاريخ لا يبدأ إلا فى القرن السادس عشر » ويقصدون بذلك كتابة التاريخ وخاصة التاريخ الاقتصادى على أساس علمى يعتمد على الوثائق دون غيرها .

هذا وقد ظل تاريخ القرن السادس عشر مهملا زمناً طويلا . يرى المختصون فى التاريخ الحديث أنه ألصق بالعصر الوسيط ويتركونه لمؤرخى هذا العصر ، كما أن مؤرخى العصر الوسيط تركوه لمؤرخى العصر الحديث . وليس أدل من ذلك على إضرار التخصص الضيق والحواجز المصطلح عليها بدراسة عصور الانتقال . ولاشك أن دراسة الوثائق الاقتصادية للعصر الوسيط تلقى ضوءاً هاماً على المشاكل التى يتعرض لها مؤرخو القرن السادس عشر كزوال نظام القوافل البحرية فى البحر الأبيض . والطرق التى اتخذها تدفق الذهب من الغرب إلى الشرق وغير ذلك مما تبيناه فى دراستنا للوثائق البندقية من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . وسنقصر كلامنا فى هذا البحث على نظام

المقايضة لأنه يوضح ما قصدنا إليه من بيان عنصر الاستمرار فى الحياة الاقتصادية الوسيطة والحديثة .

لم تكن المعاهدات التجارية الأولى التى عقدتها مصر مع البندقية مفصلة البنود والأحكام كالمعاهدات المعقودة فى القرن الرابع عشر وما بعده . وقد اتخذت المعاهدات القديمة شكل عدة خطابات أو أوامر سلطانية قصيرة على النمط العربى الإسلامى للمعاهدة الواحدة كل خطاب أو أمر منها يخص شأناً معيناً فهذا أمر بحسن معاملة التجار ؛ وذلك أمر آخر بتحديد قيمة الضرائب على السلع وهكذا . ثم أدمجت هذه الأوامر كلها فى المعاهدات المتأخرة المقسمة إلى بنود مفصلة على النمط الأوربى . ولم يرد فى المعاهدات الأولى ذكر للمقايضة وإنما نجد أنها على العكس حددت الرسوم الجمركية التى تفرض على أهم السلع المتبادلة وهى القطن والفلفل من مصر . والسلع الواردة من البندقية تدفع عنها ضريبة جمركية تعادل الضريبة المفروضة على الفلفل ، أما النحاس فيدفع عنه ضريبة معادلة لما يدفع عن القطن (معاهدة ١٢٢٩ حلب Pacta II fo 148) .

ومما يسترعى النظر أنها خصت الذهب الذى يأتى به التجار معهم بضريبة جمركية تقل كثيراً عن الضريبة المفروضة على السلع الأخرى كما أنها فرضت ضريبة خاصة على السبائك الذهبية إذا أعطاها أصحابها من التجار لدار السكة لتضرب فيها دنانير عربية[١] . وعلى ذلك فإن التبادل التجارى قام فى بداية الأمر على المعادن النفيسة سواء كانت سبائك لتضرب فى الشرق أو عملة ذهبية أجنبية أو بندقية[٢] . ولم يكن ممكناً أن ينشأ التبادل دون استخدام

---

(١) قدرت هذه الضريبة فى معاهدة ١٢٠٧ (حلب) بـ ٥ ٪ وفى معاهدة ١٣٤٥ (مصر) قدرت ضريبة السكة على الذهب والفضة بمقدار ٢ ٪ فقط فى حين أن الضريبة الجمركية على السلع البندقية المستوردة قدرت بـ ١٠ ٪ كما نصت على دفع ماجرت به العادة إذا ضرب فى السكة وعلى ضرورة دفع الثمن نقداً وفوراً فى حالة شراء الذهب .

(٢) استخدمت البندقية فى الشرق عملة فلورنسة الذهبية (الفلورين – الفرنتى – الافرنطى) =

المعادن النفيسة على هذا النحو ولم يكن ذلك شيئاً جديداً على تجارة العصر الوسيط إذ كانت البندقية مثلا تسلك مع التجار الأجانب نفس السبيل فسمحت للتجار الألمان بجلب الذهب معهم وبيعه لدار السكة البندقية .

وقد ظل الحال كذلك طيلة القرن الثالث عشر ومعظم القرن الرابع عشر حتى إذا جاء القرن الخامس عشر وجدنا فى معاهداته (البندقية ١٤١٥ وفلورنسة ١٤٨٩) بنداً أو بنوداً خاصة بنظام المقايضة لم تكن موجودة فى المعاهدات الأولى التى نصت كما عرفنا على تنظيم استيراد الذهب وضربه .

ونستطيع أن نفترض أن المقايضة قامت فى أواخر القرن الرابع عشر قبل أن يأتى ذكرها فى معاهدات القرن الخامس عشر لسببين : أولهما أنه كان لابد للمقايضة أن تستقر نوعاً قبل أن تدمج فى بنود المعاهدات . إذ لدينا ما يبرر الاعتقاد بأن القصاد البنادقة بعد حصولهم على أوامر سلطانية فردية خاصة بمعاملات أحد رعاياهم ، كان القصاد من بعدهم يتفقون على إدماجها فى المعاهدات مما أدى إلى الزيادة الملحوظة فى بنود هذه المعاهدات التى كانت تتجدد بتغير السلطان حتى اتخذت فى النهاية شكلا ثابتاً . والسبب الثانى أنه كان لا بد من توفر ظروف اقتصادية تسمح بقيامها . وفى دراستنا للوثائق البندقية وخاصة قرارات السناتو البندقى التى تكمل وتوضح بنود المعاهدات ، يمكن أن نحدد هذه الظروف التى هيأت الالتجاء إلى نظام بدائى كالمقايضة بعد الاقتصار على الذهب .

١ — كان عدد القطائع أى سفن القوافل التجارية البحرية الموسمية محدوداً فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كما أن السوق لم تكن قد انتظمت بحيث

= قبل أن تسك عملتها الذهبية المسماة بالدوقات ١٢٩٤ وبعد سكها بقرن ظهرت عملات أجنبية أخرى زائفة فى السوق المصرى تركية وبابوية مما أكد ضرورة الاستمرار فى ضرب السبائك البندقية فى السكة السلطانية ، وظل هذا قائماً حتى بداية العهد العثمانى .

يمكن عقد صفقات غير مباشرة أو طويلة الأجل . وكانت السفن لقلة عددها لا تستطيع أن تحمل فى مجيئها إلى الإسكندرية كافة السلع الثقيلة – ومعظمها من الفواكه الجافة وأمثالها التى تلزم للمقايضة – فاقتصرت على حمل ما خف وزنه وغلا ثمنه كالأقمشة الفاخرة .

أما فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر فقد زاد عدد السفن وانتظمت مواسم وصولها كما تؤخذ من إحصائنا للقوافل المرسلة فى هذين القرنين واستمرار النقل على مدار السنة إلى المخازن التابعة للبندقية على طول خط سير القوافل وبذلك انتظم السوق وزاد حجم السلع المتبادلة دون زيادة تقابلها فى المعادن النفيسة وخاصة الذهب .

٢ – يبدو لنا أن البندقية حاولت أولا أن تسد هذا النقص باستخدام الفضة بدلا من الذهب ولكنها لم تنجح فى ذلك طويلا فقد جاء فى قرار للسناتو البندقى الصادر فى عام ١٤٠٧ (١) وخاص بسك العملة البندقية أن الشرق وخاصة سوريا ترفض التعامل بالعملة البندقية الفضية ولا يقبل إلا الدوقات الذهبية مما نتج عنه نزول سعر الفضة فى البندقية وانتقالها منها إلى الأسواق الأخرى وعلى ذلك فإن قلة الذهب وعجزه عن تلبية كافة طلبات الدفع فوراً بعد ازدياد التجارة ورفض العملة الفضية أدت إلى قيام نظام المقايضة .

٣ – ويضاف إلى ذلك اعتبارات أخرى عملية أو إدارية ساعدت على قيام المقايضة إذ كان البنادقة يخضعون لقيود شديدة فرضتها عليهم حكومتهم فحرمت عليهم الاستدانة والإقراض والشراء والبيع بالأجل والمشاركة مما اضطرهم إلى الالتجاء للمقايضة بالرغم من عيوبها التى وضحتها الأوامر السلطانية والمعاهدات . ففى الأمر السلطانى الصادر فى ١٥ نوفمبر ١٤١٥ إلى حكام طرابلس وحماة والإسكندرية وصفد وغزة والكرك بعد اتفاق عقده

---

(١) Senato Misti XLVIII fo 111v .

السفيران سانتو ڤنيرو ولرنزو كابللو جاء ما يلى « إذا اتفق المتعاقدان على المقايضة فإنه لا يجوز بعد ذلك رد البضاعة والمطالبة بالدفع نقداً(١) . وجاء فى معاهدة فلورنسة ١٤٩٦ وهى منقولة عن معاهدات البندقية السابقة ما يلى : « إذا حدث الاتفاق على تبادل البضائع ورفض التاجر المسلم تسلمها فإنها توزن وتوضع لحسابه خارج ديوان الوزان (القبان) وخارج المخازن(٢) .

وهكذا نرى أن أول أضرار المقايضة أن التجار المصريين كانوا يرجعون فى صفقاتهم إذا ما ارتفع سعر التوابل أو قل سعر السلع المتبادلة بها مما حتم الإجراء السابق . ومما شجع على الرجوع فى صفقات المقايضة . أن ثمن التوابل فى حالة المقايضة كان يزيد عن ثمنها إذا دفع نقداً وهذا هو المقصود فى نص المادة الرابعة فى المعاهدة العربية المعقودة مع فلورنسة ١٤٨٨ والتى نشرها Amari وهو « والعادة تميز سعر الأصناف فى المقايضة عن النقد » .

فالتميز هنا بمعنى الزيادة وليست هناك مقايضة عن النقد . والمقصود زيادة أسعار السلع فى حالة المقايضة عن سعرها نقداً وهو نفس النص الوارد فى المعاهدات الأخرى الإيطالية والترجمة التى نشرها أمارى والتى فقد أصلها العربى . ولم ينتبه أمارى إلى هذا الشبه بين النص العربى ومثيله فى المعاهدات المترجمة فترجمه خطأ بما معناه « أنه كان فى المعتاد إغلاق ثمن السلع بالنقد(٣) » .

٤ — وفضلا عن قيام المقايضة فقد قام بجانبها نظام آخر نستطيع أن نسميه نظام نصف المقايضة لا نجد له ذكراً فى الوثائق الرسمية أو غيرها إذ جاء ذكره فى خطاب موجه من أحد أشراف البنادقة إلى ابنه(٤) يمده فيه

---

(١) Commimoriali X f 206 .

(٢) Amari p. 188 .

(٣) المصدر السابق "Si So'ea du dichiarare il Prezzo di quelle (specie de merci) in moneta"

(٤) أما النص المماثل فى الترجمات الإيطالية فقد ورد فى معاهدة البندقية ١٤٤٣ المادة الثالثة ص ٣٤٨ وفى معاهدة فلورنسة ١٤٨٨ المادة الرابعة ص ٣٦٤

بالنصائح اللازمة لرجل المال والتجارة ووصف فيه هذا النظام بقوله إن النقود تتزوج من السلع فهو إذن دفع ثمن السلع المشتراة بعضه نقداً وبعضه سلعاً .

٥ – أما السلع المستخدمة فى المقايضة والتى قامت مقام العملة فهى التوابل فى ناحية والفواكه الجافة أو المعادن غير النفيسة فى ناحية أخرى ولم تشمل المقايضة القطن على عكس ما يجرى الآن .

وفى معاهدة ١٤٩٦ جاء أن التوابل تقايض بزيت الزيتون والعسل والصابون والبندق واللوز .

وفى مؤلف Paxi المعروف باسم التعريفة والمقاييس » والذى طبع لأول مرة عام ١٥٠٣[١] وردت الفقرة الآتية فى الصفحة الثانية فى الملزمة السادسة وهى : « إن الحمل الإسكندرانى من الفلفل يزن خمسمائة رطل فرفورى ويشترى فى الإسكندرية نقداً أو مقايضة بسلع متعددة كالفضة وقوالب النحاس وسبائك التصدير والرصاص والصابون الأبيض والشمع والمصطكى الخيوسية كما أنه يقايض أيضاً بمأكولات كثيرة كالزيت بأنواعه وعسل النحل وعسل السكر ولوز أبوليا وبرونسه والقسطل وبندق مملكة نابلى وفواكه أخرى . ويعطى كذلك قنطار من هذا السلع مقابل الحمل الواحد (Sporfa) من الفلفل »

وبعد أن ألممنا بالسلع المقايضة ننتقل الآن إلى دراسة موجزة لآثار نظام

---

(١) Tariffa de Pexi e Mesure de Miser Bartholomeo di Paxi da Venezia .

وهذا المؤلف الذى طبع لأول مرة فى بداية القرن السادس عشر (١٥٠٣) ثم أعيد طبعه فى ١٥٤٣ وطبع مؤخراً فى أمريكا ، يعد من أهم وأندر ما كتب فى موضوعه وهو بالطبع يصدق على موازين القرن الخامس عشر وبه جزء مفصل خاص بموازين ومقاييس مصر وسوريا لا يوجد فى غيره من المراجع ويجدر تعريبه .

المقايضة كما استخلصناها من الوثائق البندقية فى الفترة التى تقع بين ١٤٥٠ ، ١٥٢٥ .

أولا — ارتفاع الأسعار ارتفاعاً مصطنعاً .

وقد سبق أن بينا أن معاهدات القرن الخامس عشر أوضحت أن سعر السلع فى حالة المقايضة يزيد عن سعرها فى حالة الدفع نقداً . ولم يزل سعر التوابل فى ارتفاع حتى تضاعف مرتين فى مدى نصف قرن كما جاء فى رد السفير البندقى على السلطان حين احتج على قلة عدد السفن بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح (١) .

ثانياً — قلة الذهب وتأثر العملة .

لا جدال فى أن التجارة الخارجية كانت أكبر موارد الذهب فى مصر فى العصر الوسيط بعد أن نضبت مناجم الذهب فى مصر . أو كادت ، منذ أواخر العصر القديم ولم يعوضها تبر السودان . وقد ظل الذهب أساساً للتبادل التجارى حتى أواخر القرن الرابع عشر على وجه التقريب إلا أن استخدام المقايضة قلل من تدفق الذهب على مصر . ولم تستنزف تجارة الشرق ذهب الغرب كما قال Brandel (٢) وظلت البندقية « ملكة الذهب فى العالم المسيحى » .

وقد صحب المقايضة وقلة تدفق الذهب اضطراب كبير فى العملة الذهبية

---

(١) شكا السلطان إلى السفير البندقى فى عام ١٥١٢ من أن عدد السفن الموسمية هبط إلى ثلاث بعد أن كان يصل إلى سبع أو ثمانى سفن . فأجاب السفير بقوله : « إن حمل الفلفل تضاعف ثمنه فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر فارتفع من أربعين دوقات إلى ثمانين وعلى ذلك فإن السفن الثلاث يقدر ثمن حمولتها بست سفن (سابقاً) لأن حمولة التوابل (بالنسبة للسلع الأخرى) تقدر بسفينتين ونصف سفينة من كل ثلاث سفن » .

انظر اتفاق Dominico Trevisan المعقود عام ١٥١٢ فى مجموعة الوثائق البندقية المسماة المتفرقات من الوثائق الرسمية والخاصة حافظة رقم ٥٠ وثيقة رقم ١٦٣٠ .

Miscellanea di Atti Diplomatici e Privati Busta 50, doc. 1630.

(٢) Brandel (F.) La Méditerraneé et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II, Paris 1949; P. 254.

المملوكية فهى لم تستقر على وزن معين أو عيار ثابت فضربت فى أول الأمر بأوزان متعددة مع جودة عيارها ثم تبع تعدد الوزن خفض مستمر فى العيار مما أدى فى كافة الأحوال إلى تغلب العملة البندقية التى احتفظت بثبات وزنها وعيارها . ومن الأرقام القليلة التى جاءت فى الوثائق البندقية خاصة بالنولون نجد أن الدوقات البندقى كان سعره يرتفع ارتفاعاً مستمراً بالنسبة للدرهم .

ثالثاً — لجأ السلاطين لعلاج النقص فى الذهب أو الفضة إلى طريقين :

(أ) فرض قدر معين من التوابل السلطانية (توابل الذخيرة الشريفة) على تجار البنادقة يشترونه بالذهب مع بقاء معاملاتهم مع الأفراد حرة فى الالتجاء إلى المقايضة(١) .

(ب) فرض قدر معين من الفضة على تجار البنادقة يوردونه لدار السكة كل سنة ويجب الربط بين هذا الإجراء وما جرت به العادة القديمة

---

(١) لهذا الإجراء أى فرض توابل الذخيرة الشريفة على التجار تاريخ طويل فكان أمراً مألوفاً بالنسبة للتجار من رعايا السلطان ولكنه كان أمراً تعسفياً بالنسبة لتجار البنادقة وطبق عليهم فى مصر وسوريا ولم يذعنوا له بسهولة وشكوا من أنه لا يطبق على غيرهم من التجار الأجانب وبعد مفاوضات طويلة حددت قيمة التوابل السلطانية المفروضة عليهم بنسبة معينة إلى السلع الأخرى (حمل من التوابل عن كل ألف دوقة من السلع الأخرى) ، ثم حددت نهائياً بعدد معين مسعر من أحمال التوابل سنوياً (١٠) حملا فى السنة بسعر لا يزيد عن ٨٠ دوقات للحمل الواحد وقد أدى هذا الإجراء إلى قيام نوع من الحساب الجارى بين الخزينة السلطانية وهيئة التجار البنادقة التى كانت مدينة باستمرار عن عدة سنوات خلت . وقد ظل هذا الاجراء متبعاً حتى ١٥١٦ وإن تكن البندقية بعد كشف طريق رأس الرجاء ساومت أكثر من مرة فى سعر هذه الصفقة الإجبارية التى سبق تسعير أثمانها .

انظر : Senato Mar III f.21, 135 ; VI f 184 ; XVIII f 47.

Commemoriali XIV f.18 ; XIX f93.

Senato Secreta XXII f. 94, 95 ; XXVII f. 23, 24, 56,56 XXXIV f 110, 111 ; XXXIX f 45,46.

من تقديم السبائك الذهبية إلى دار السكة السلطانية وفى ١٤٧٥ أجبر التجار البنادقة بدمشق على أن يقدموا . للسكة أربعمائة درهم من الفضة سنوياً كما فرضت عليهم غرامة قدرها ثلاث دوقات لكل درهم ينقص عن الكمية المقررة[١] .

ولا نشك فى أن هذين الإجراءين لم يحققا لمصر حاجتها من المعادن النفيسة إذ استمر الذهب فى التناقص حتى شح فى عهد الغورى واضطر إلى مفاوضة البندقية لاستبدال النحاس بالتوابل . وقد حاولت البندقية بعد كشف طريق رأس الرجاء أن تحتفظ بالعلاقات التجارية مع مصر على أن تقصرها على السلع الأخرى غير التوابل أو على الأقل التقليل ما أمكن من شراء التوابل من مصر ولجأت فى سبيل ذلك إلى عدم دفع ثمن التوابل ذهباً بل نحاساً وكان لهذا المعدن أهمية فى العصر الوسيط فى الشرق فهو آنية الفقير وذهبه . وقد اضطر السلطان الغورى إلى قبول النحاس بدلا من الذهب وحين اشتدت به الأزمة وخطر الغزو العثمانى أنفذ أحد رجال الدين المسيحيين من القدس إلى البندقية فى مهمة سرية لطلب المعونة ضد الأتراك ولكن باءت هذه المهمة بالفشل[٢].

وعلى ذلك فإن الأزمة النقدية فى مصر بدأت قبل كشف طريق رأس الرجاء الصالح بزمن غير قصير ثم صحبها منافسة شديدة فى النقل البحرى قضت فيما بعد على نظام القوافل الموسمية وحل محلها السفن ذوات الحمولة الثقيلة والنولون القليل والتى لا تتقيد بموسم معين[٣] وقد لجأ تجار البلاد

---

(١) انظر التعليمات إلى السفير ج . ديدو فى ١٣ فبراير ١٤٧٥ (حسب التقويم البندقى)

Senato Sécreta XXVII f. 26 ; XXXIX f. 75,46.

Senato Mar XIX f. 35.

(٢) **Commemoriali XIX f. 92.**

Lettere al Rettori ; Busta 255.

(٣) لا يزال زوال نظام القوافل البحرية الموسمية فى البحر المتوسط من المشاكل التى يتعرض لها المؤرخون الاقتصاديون للقرن السادس عشر دون رأى حاسم فى أسباب هذا الزوال . وقد زالت القوافل البندقية فى ١٥٦٩ وينسب الباحثون زوالها إلى المنافسة الشديدة بين السفن =

الأوروبية الشمالية والغربية إلى استخدام الذهب أولا ثم المقايضة ولكنها لم تدم طويلا فانعدمت منذ القرن السابع عشر ولعل ذلك يرجع إلى أن التوابل التى كانت تستخدم فى المقايضة فقدت كثيراً من أهميتها فى تجارة مصر الخارجية وحل محلها من حيث الأهمية فى التصدير سلعتان جديدتان هما البن والسكر(١).

وهكذا ارتبط نظام المقايضة ثم زواله بكثير من ظواهر الحياة الاقتصادية فى أواخر العصر الوسيط وبداية العصر الحديث فزال معه نظام القوافل البحرية الموسمية من البحر الأبيض وظهر واستخدام الطرق عبر المحيطات وقلة تصدير مصر للتوابل ونشاط تصدير البن والسكر قبل أن تزدهر التجارة بين أوربا والعالم الجديد وانتشار الاستعمار الأوروبى فى أفريقية .

توفيق اسكندر

= ذوات الحمولة الثقيلة والخفيفة ولكننا نلاحظ فى دراستنا للوثائق البندقية أن السفن من هذين النوعين كانت موجودة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر وكانت تعمل فى انسجام تام لتخصص كل نوع منها فى نقل سلع معينة فى فصل معين من السنة ولرحلة كاملة أو لتوصيلة . ويبدو لنا أن ارتفاع النولون فى سفن القوافل المخصصة أساساً للتوابل واضطراب موعد وصول التوابل إلى موانى الشرق فى بداية القرن السادس عشر أثر فى التعامل الموسمى ، ولم يشجع مؤجرى هذه السفن على الاستمرار فى استخدامها واضطرت الدولة إلى الكف عن بنائها فى دار الصناعة التابعة لها وخاصة بعد أن ثبت لها عدم جدوى اعانتها وشدة المنافسة وخاصة فى غربى البحر الأبيض واستمرار استدانة هيئة التجار البنادقة فى الإسكندرية .

(٢) تبدو أهمية البن والسكر وحلولهما محل التوابل واضحة فى وثائق « حمولة السفن » وهى قوائم مفصلة منتظمة بالسلع المحملة على السفن وترد فى تقارير ومراسلات القناصل البنادقة فى القرن الثامن عشر .

الإقطاع الإســـلامى

أصوله وتطوره — دراسة مقارنة

تمهيد فى مدلول الإقطاع والاقطاعية — أصول الاقطاع فى الإسلام : العامل الدينى والمؤلفة قلوبهم — العامل الاجتماعى — العامل الاقتصادى — صفايا الرسول أو قطائعه الخاصة — الخلفاء الراشدون والإقطاع — عمر وتنظيمه — المراعى والإقطاع — المعادن واقطاعها — أصـول الإقطاع بين الشرق والغرب — الأوضاع الجديدة التى أثرت فى انتشار الاقطاع الإسلامى منذ العهد الأموى : العامل السياسى أو تطور الخلافة إلى ملك — اتساع رقعة الدولة الإسلامية وبروز ظاهرة « الألجاء » (Feudalisation) وهى صورة من الإقطاع الإسلامى — ثراء الدولة الإسلامية وترف أولى الأمر — شخصية ولى الأمر — الولايات الإقطاعية — تطور الإقطاع الإسلامى إلى إقطاع حربى — بنو بويه يمهدون — السلاجقة والإقطاع الحربى وأهدافه .

أقدم ما عرف عن النظام الإقطاعى فى الإســلام ، ما ورد عن النبى على أثر قيام الدولة الإسلامية فى المدينة بعد هجرته إليها ، حيث أضحى رأس الحكومة الإسلامية الناشئة ؛ ولا يعنينا، فى هذا المقام ، أن نوغل فى الزمن السحيق لنرى صوراً من الإقطاعات القديمة ، تقرب من هذا النظام أو تبعد عنه : فى العصر الفرعونى أو فيما تلاه من عصور كعصر البطالمة ، أو بعض صور منه فى العصر الرومانى ، كذلك فى بلاد فارس أو الجزيرة العربية ؛ ولا يعنينا بعد هذا ، أو لايدخل فى نطاق هذا البحث ، أن نبحث الصور السيئة أو الجانب الكريه الذى تطور إليه الإقطاع فى العصر الحديث ، من تمليك أراضى الدولة ، لصفوة مختارة ، ليس من الضرورى أن تكون خير الناس ، بغير ثمن ، أو بثمن اسمى .

والإقطاع أو الإقطاعية أو النظام الإقطاعي ألفاظ جرى العرف والتاريخ على أنها مترادفات للسوء والعهود البائدة ، بل إن كل سوء ومكروه أو ظلم واستبداد ، إنما يوصم بالاقطاع أو الاقطاعية ، كما وصفت به حالة فرنسا قبيل الثورة الفرنسية أواخر القرن الثامن عشر الميلادى . على أنها ظلت بهذا المعنى حتى العصور الحديثة . ولقد أوضح المؤرخون خصائص المجتمع الذى يسوده هذا النظام . وفصلوا أركانه . بأنه مجتمع جامد طبقى البنيان ، وصل فى تطوره إلى حد التطرف من حيث اعتماد فريق منه . انحدر إلى الطبقات الدنيا ، على فريق آخر تسنم ذروة الرفعة ، واغتصب لنفسه كل الحقوق والامتيازات كما اختص بوظائف هى من أخص وظائف الدولة فى العرف الحديث . ولم يكن استعمال المؤرخين وغيرهم من بحاث العصور الوسطى الغربية . هذا اللفظ والتقنين لأحداثه مجتمعة ومتفرقة . إلا بعد نهاية العصر الإقطاعى ؛ وربما كان هذا الجانب من أبرز ما يميز الإقطاعية الغربية عن النظام الاقطاعى فى الإسلام . ذلك الذى بدأ بهذا اللفظ وبقوانينه . بشكل ساذج بسيط وهدف إصلاحى حيوى . لا يخفى وراءه السوء الذى تطور إليه فيما بعد .

ثم إن ما تفعله بعض الحكومات الحديثة من إقطاع القطائع فى الأرض البور الصالحة للزراعة ، لفريق من الناس ، هذا بيع ولا يدخل فى معنى الإقطاع التاريخى . كما أن الإقطاعات فى العصر النبوى ؛ أغلبها من أرض « الموات » المحتاجة إلى إصلاح واستغلال ؛ أما الأرض المزروعة فعلا . فقد قيدت تقييداً كبيراً رغم أن الفتوح وما ينضاف إلى الدولة الإسلامية . كانت من حق القائمين وهم رجال الجيش (فى الفىء والغنائم) .

وينصب البحث ، بعد هذا العرض العام للصور المختلفة لمدلول الإقطاع والإقطاعية على دراسة الإقطاع الإسلامى . وهو الذى يعنينا . منذ نشأته فى العصر النبوى وانتشاره وتطوره فى الدولة الإسلامية ، مبرزين خصائصه كما تنطقها الحوادث .

أضحى الرسول رأس الحكومة الإسلامية على أثر هجرته إلى المدينة . وبدا له فى ذلك الوقت المبكر عدة عوامل دفعته إلى هذا التشريع . وأهم عامل هو العامل الدينى ، إذ اقتضى ما استهدفه من نشر الإسلام ودعم قواعده ، أن يتألف على الإسلام من يرى تأليفه صلاحاً ، والمؤلفة قلوبهم بنص القرآن من بين المستحقين للصدقة . جاء فى حقهم : « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل ، فريضة من الله والله عليم حكيم »(١) . ولا ينفى لفظ الصدقة أن تكون ما لا منقولا أو عقاراً ثابتاً وقد شملت النوعين فعلا ، ومن العقار الثابت الأرض . كما لا ينفى معنى الصدقة أن تسمى الأرض الممنوحة إقطاعاً . ودلت الشواهد الكثيرة على أنها منحت تحت هذا الاسم كذلك .

وأهم وثائق الإقطاع التى كتبت لهذا الفريق ، فيما يبدو ، وثيقة إقطاع تميم الدارى وإخوته . كتبها لهم على بن أبى طالب بأمر الرسول عام ٩ من الهجرة (٦٣٠ م) وهى :

« نسخة كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كتبه »
« لتميم الدارى وإخوته فى سنة تسع من الهجرة بعد منصرفه »
« من غزوة تبوك فى قطعة أدم من خف أمير المؤمنين على وبخطه »
« نسخته كهيئته »
« بسم الله الرحمن الرحيم »
« هذ ما أنطى محمد رسول الله تميم »
« الدارى وإخوته حبْرون والمرْطوم »
« وبيت عينون وبيت إبراهيم وما فيهن »
« نطية بت بذمتهم ونفذت وسلمت ذلك لهم »
« ولأعقابهم فمن أذاهم أذاه الله ، فمن أذاهم »

---

(١) سورة التوبة آية ٦١

« لعنه الله . شهد أبو بكر بن أبي قحافة وعمر بن »
« الخطاب وعثمان بن عفان ؛ وكتب على بن »
« أبي طالب وشهد »[١]

جُدد الكتاب فى عهد أبي بكر ، ولما تم فتح فلسطين على عهد عمر بن الخطاب ، اشترط الخليفة فى كتاب أرسله إلى عمرو بن العاص بفلسطين ، ألا يسلم الداريين أقطاعهم إلا إذا جلا أهل القرى المقطعة عنها وإلا « فهى لهم وأحق بهم »[٢] . أكثر من ذلك ، حدد عمر نوع الملكية وحقوق المقطعين فجعل الأقطاع وقفاً ، بمعنى لا يملك المقطعون بيع رقبته . واشترط عليهم أن يكون ثلث خراجه صدقة لأبناء السبيل وثلث لعمارته والثلث الأخير للداريين[٣] . وأقر الأمويون هذا الإقطاع . بل إن الخليفة سليمان بن عبد الملك ، كان إذا مر بهذه القطيعة لم يعرج عليها ويقول : « أخاف أن تصيبنى دعوة النبي[٤] . ولم يتعرض لهذا الأقطاع أحد من الأمراء والولاة إلا الأمير سقمان بن أرتق[٥] ، والى فلسطين من قبل السلاجقة ،

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج ٣ ص ٣٥٤ ، العمرى : مسالك الأبصار ج ١ ص ١٧٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١١٩ – ١٢٢ ، المقريزى : ضوء السارى بمعرفة خبر تميم الدارى (مخطوط) ورقة ١٦٥ ، ١٦٦ ، مجير الدين الحنبلى : الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل ج ٢ ص ٤٢٩

(٢) صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٢٠ . ١٢١ ، التاريخ الكبير : ج ٣ ص ٣٥٣

(٣) ضوء السارى ورقة ١٦٨ ، صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٠٤ .

(٤) ضوء السارى ورقة ١٦٧ ، البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٥ .

(٥) الأمير قطب الدين سقمان بن أرتق بك بن اكسب التركمانى . ولى فلسطين نيابة عن تتش أخى السلطان ملكشاه السلجوقى ، وكان تتش قد أقطع الشام كله .... (مسالك الأبصار ج ١ ص ١٧٥ ، القلانسى : ذيل تاريخ دمشق . صفحات : ١٣١ – ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٣٨ وغيرها ... ، السلوك (نشر الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ج ١ ص ٨٦ ، ٢٤٩ ، ٤٤١ ، أبو المحاسن النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٦ ، ١٤٧ ، ١٥٩ وغيرها ... ، سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب (ترجمة رياض رأفت ، ص ٢٧٧) .

فى القرن الخامس الهجرى ؛ إذ استفتى الفقهاء فى شرعية بقائه لسلالة الداريين حتى ذلك الوقت . فمنهم من أفتى بعدم جوازه بحجة أن النبى أقطع ما لا يملك ؛ غير أن الشيخ الغزالى ، حين استفتى ، طعن فى الفتوى السابقة ، وقال بصحة الإقطاع ، مستدلا بالحديث « زويت لى الأرض ، فرأيت مشارقها ومغاربها.... » وعقب قائلا : « فوعده صدق وكتابه حق »(١) وعلى أساس هذا الرأى ظل الإقطاع بأيدى أصحابه .

وترجع أهمية هذا الإقطاع ووثيقته إلى بقائها حتى القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى ، وممن رأى الوثيقة من المورخين : ابن عساكر المتوفى سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥م) ، وابن فضل الله العمرى المتوفى سنة ٧٤٢ هـ (١٣٤١ م) وأبو اليمن مجير الدين الحنبلى المتوفى سنة ٩٢٧ هـ (١٥٢٠ م) وظلت حتى القرن العاشر الهجرى حجة للداريين ، يستنصرون بها ولى الأمر القائم إذا تعرض لهم أحد بمكروه فيما يتعلق بحيازتهم وتوارثهم ذلك الإقطاع . والوثيقة محفوظة فى صندوق من الأبنوس وملفوفة فى خرقة حرير ، ومعها كتاب من الخليفة المستنجد العباسى بتأكيد حقوقهم(٢).

* * *

وأبو رقية تميم ، يمنى الأصل . سكن الشام ووفد مع من وفد على الرسول المدينة ومعه رهط الداريين . عام ٩ هـ (٦٣٠ م) والراجح أنه أسلم بمكة قبل هجرة الرسول إلى يثرب ، وكتابه بالإقطاع كان تجديداً لما كتب فى مكة . قال للنبى ، لنا جيرة من الروم ، لهم قريتان ، يقال

---

(١) ضوء السارى ورقة ١٧٠ ، الشعرانى : الميزان (فى الفقه) ج ١ ص ٢٠٨ ، مختصر تذكرة الإمام عبد الله القرطبى (للمؤلف السابق ، ص ١٠٤) .

(٢) مسالك الأبصار ج ١ ص ١٧٣ ، ١٧٦ ، التاريخ الكبير ج ٣ ص ٣٥٣ ، الأنس الجليل ج ٢ ص ٤٢٨ – ٤٢٩ .

لأحدهما حبرى والأخرى بيت عينون ، فإن فتح الله عليك الشام فهبهما لى »
قال : « هما لك[١] »

هذه قصة تميم واقطاع تميم . ومن الوفود التى جاءت فأسلمت فتألفها الرسول : وفد طىء . رأسهم وسيدهم زيد الخيـل الذى سماه النبى زيد الخير . أقطعه الرسول قرية فَيْد ، فى منتصف الطريق بين مكة والكوفة ، وكتب له بذلك الإقطاع كتاباً[٢] ، ولما وفد حمزة بن مالك بن نمط سـيد همدان قال له الرسول : نعم الحى همدان ، ما أسرعها إلى النصرو أصبرها على الجهد . وفيهم أبدال وأوتاد الإسـلام . أسلموا جميعاً فكتب لهم النبى كتاباً أقطعهم به بعض مخاليف اليمن ؛ وأقطع وائل بن حجر الحضرمى عقيق اليمامة ، وغير هؤلاء كثيرون[٣] . وبايع وفد عقيل بن كعب الرسول على الإسـلام فأقطعهم العقيق[٤] ، وكتب لهم كتاباً بالاقطاع[٥] ، كما أقطع الرقاد بن عمرو بن ربيعة من جعدة . ضيعة بالفلج[٦] وكتب له كتاباً[٧] . وممن أقطعوا تأليفاً على الإسلام . رجل

---

(١) ضوء السارى ورقة ١٦٥ ، طبقات ابن سعد ج ٢ ص ١٠٧ ، الخطط ص ٥٠ (Memoires, Edité Par G. Wiet مجموعة)

(٢) طبقات ابن سعد ج ٢ : ص ٨٦ ، تاريخ الطبرى ج ١ ص ٧٤٦ أ ، المقريزى : إمتاع الأسماع (مخطوط) ح ١ ورقة ١٦٧ سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٤٧ ، السيرة الحلبية ج ٣ ص ٣٤٩ ، السهيلى : الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٣ ، مراصد الاطلاع ج ٢ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ ، معجم البلدان ج ٦ ص ٤٠٨ – ٤٠٩ .

(٣) ابن سيد الناس : عيون الأثر (مخطوط) ورقة ١٧٥ ، ٣٦٥ ، وفاء الوفا ج ١ ص ١٩٠ ، الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٩ .

(٤) هذا العقيق باليمامة ، والمعروف أن فى بلاد العرب أربعة أعقة وهى عبارة عن أودية قديمة شقها السيل ... (وفاء الوفا ج ١ ص ١٩٠ – معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٨) .

(٥) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٦

(٦) الفلج وادى بين البصرة ومكة (معجم البلدان ج ٥ ص ٣٩٣ ، ابن خرداذبة ص ١٥٢ – ١٥٣ .

(٧) طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٦٧ .

من بنى سليم يقال له عبد العزى ، وهو راشد بن عبد ربه السليمى ، كما لقبه الرسول : أقطعه موضعاً يقال له رُهاط[١] ، وعقد له على قومه وقال عنه « إنه خير بنى سليم[٢] » . .

هذه بعض أمثلة لإقطاعات الرسول . للتأليف على الإسلام » وقد صلح إسلام هؤلاء المؤلفة قلوبهم . ومنهم من أسهم فى الفتوح الإسلامية ومنهم من برز فى العلوم الدينية . فهذا تميم الدارى ، قيل إنه اشترك فى غزوة بدر . مما يرجح إسلامه بمكة كما ذكر سابقاً . وكان من أبرز الصحابة فى القراءة ورواية الحديث ، وروى له البخارى ١٨ حديثاً[٣] . واشترك وائل بن حجر الحضرمى فى الفتوح الإسلامية الكبرى ، شرقاً وغرباً ، على عهد الخليفة عثمان بن عفان . فأقطعه موضع زُرا ره ومايليه بالعراق[٤] وهكذا . على أنه يبدو أن مبدأ الإقطاع للتأليف على الإسلام . كان موقوتاً بمدى تغلغل العقيدة فى قلوب معتنقيها . حتى إذا ما امتزجت بها نفسه ، ووقر الإيمان فى سويدائه . جاز لولى الأمر استرجاع الإقطاع إذا رأى المصلحة فى ذلك . ودليل ذلك أن الأقرع بن حابس التميمى — وهو من المؤلفة قلوبهم — تقدم إلى أبى بكر ومعه عيينة بن حِصن الفزارى . واستقطعاه أرضاً ، فانبرى عمر بن الخطاب . وقال : « إنما كان النبى يتألفكما على الإسلام .

---

(١) رهاط قرب مكة على طريق المدينة (ياقوت ج ٤ ص ٣٤١)

(٢) ابن كثير ج ٥ ص ٩٣

(٣) الجردانى : الجواهر اللؤلؤية فى شرح الأربعين النووية ص ٦٩ — ٧٦ حاشية ٢ ، الزركلى : الأعلام ج ١ ص ١٦٦ ، النووى : فى الأربعين ص ١٠ ، ضوء السارى ورقة ١٦٢ ، البطراوى : تحفة الأنام من فضائل الشام (مخطوط غير مرقم الصفحات) ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٥ ص ٨٧

(٤) فتوح البلدان ص ٧٣ ، ٢٧٤ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٣٤٦ ، معجم البلدان ج ٤ ص ١٨١ .

فأما الآن ، فأجهدا جهدكما » وقطع الكتاب[١] .

* * *

أراد الرسول بمنحه الإقطاعات كذلك أن يكافئ قوماً هم عدة الإسلام وأعلامه : فى الجهاد أو الفقه أو الإدارة سواء ، ومثال ذلك إقطاعه فريقاً من الصحابة منهم : أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وعلى بن أبى طالب . وكان اقطاع أبى بكر والزبير من أموال بنى النضير فى العام الرابع من الهجرة ؛ ويقول ابن عوف : « أقطعنى الرسول وعمر بن الخطاب أرض كذا وكذا ...[٢] » ؛ والواضح أن الغرض الأول من إقطاع أمثال هؤلاء الصحابة ، هو تعويضهم عما فقدوه من أموال فى سبيل الدعوة ، بعد هجرتهم إلى المدينة . وشملت الإقطاعات فوق ذلك ، بعض فقراء الأنصار ، مثل أبى دجانة سماك بن خرشة الساعدى وسهل بن حنيف[٣] .

ومن العوامل التى دفعت الرسول إلى إقطاع الأراضى بجانب عاملى الدين والعون الاجتماعى . عامل الاستثمار الاقتصادى ، لاستصلاح الأراضى البور (الموات) لما فى استصلاحها من رعاية لمصلحة المسلمين عامة ، وفائدة حيوية للمقطع والناس بما تنتجه من خيرات وكذلك للدولة بما يقرر عليها من رسوم كثرت أو قلت . لذلك أقطع الرسول هذه الأراضى للقادر على إحيائها واستثمارها . بل جعل شرط الإحياء ضروريا . ويتضح هذا المعنى من قوله : « عادى الأرض — أى قديمها — لله ولرسوله ، ثم هى

(١) ابن حجر العسقلانى : الإصابة فى تمييز الصحابة ج ١ ص ٥٨ — ٥٩ ، فتوح البلدان ص ٣٩٨

(٢) امتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٦

(٣) فتوح البلدان ص ١٨ — ٢١ ، يحيى بن آدم : الخراج ج ٣ ص ٢٦ — ٢٧ ، ولفنسون (أبوذؤيب) : تاريخ اليهود ص ١٣٥ — ١٣٩ ، عيون الأثر ورقة ٢٩٨ — ٢٩٩

لكم من بعد . فمن أحياء شيئاً من موات الأرض فله رقبتها(١) » . وممن أقطعوا الموات من أرض الدولة : الزبير بن العوام ، فقد عين له الرسول إقطاعاً فى موات البقيع بقدر ركض فرسه ، فأجرى الزبير فرسه ورمى بسوطه رغبــة فى الزيادة . فلم يمانع الرسول وقال : « اعطوه من حيث بلغ السوط »(٢) . تقول أسماء بنت أبى بكر وزوج الزبير : «كنت أنقل النوى من أرض الزبير التى أقطعه اياها رسول الله ، على رأسى ، وهى منى على ثلثى فرسخ »(٣) ، وعلى هذ النحو كان إقطاعه لبلال بن الحارث المزنى ، من أرض العقيق قدر ما يطيق إحياءه(٤) .

من هذا وغيره ، كتب أبو يوسف فى القرن الثانى الهجرى : « ولا أرى أن يترك الإمام أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة ، حتى يقطعها ، فإن ذلك أعمر للبلاد وأكثر للخراج »(٥) ويؤكد هذه القاعدة التى استنتجها من إستقراء ما وقع فعلا بتساؤله فى موضع آخر : « ما الصلاح فى أرض كثيرة لا يرى عليها أثر زراعة ولا بناء لأحد . ولم تكن فيئاً لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة . ولا موضع محتطبهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنامهم وليست بملك أحد ولا فى يد أحد .... هى إذن موات ، وللإمام أن يقطع ذلك من أحب ورأى وأن يؤاجره ويعمل بما يرى فيه المصلحة(٦) » .

أما صفايا الرسول وهى قطائعه الخاصة فاقتصرت على أرض الحجاز

---

(١) ابن آدم : الخراج ج ٣ ص ٦١ — ٧٤ ، الطوارى : تكملة البحر الرائق على كنز الدقائق ج ٨ ص ٣٨ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٨١ .

(٣) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥

(٤) السمهودى : وفاء الوفا ج ١ ص ١٨٨ — ١٨٩ ، ١٩١ — ١٩٢ ، النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢٣٣ — ٣٤٤ ، معجم البلدان ج ٦ ص ١٩٩

(٥) الخراج ص ٣٤

(٦) المصدر السابق ص ٣٦

لاختصاصه بفتحه ، وجاءت من حقه فى خمس الخمس من الفىء والغنائم . وهذا المعنى وارد فى بعض الآيات القرآنية . قال تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »(١) . وقوله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى وابن السبيل، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم....(٢) » ؛ وفى سورة الأنفال « يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم(٣) » .

وحدث استصفاء الرسول لأموال بنى النضير فى السنة الرابعة من الهجرة حين صالحوه على أن يخرجوا من بلده ولهم ما حملت الإبل وللرسول أرضهم ونخلهم والحلقة وسائر السلاح ؛ فصارت خالصة للرسول . ومن هذه الأراضى حاز النبى جزءاً لنوائبه ، وقسم الباقى بين المهاجرين ولم يعط الأنصار إلا اثنين فقيرين هما أبو دجانة وسهل بن حنيف(٤) . أما خيبر فقد جزأها الرسول ثلاثة أجزاء ، قسم جزأين منها بين المسلمين وحبس جزءاً لنفسه ونفقة أهله . وما فضل عن نفقتهم رده إلى فقراء المهاجرين(٥) . وبعد انصراف الرسول من خيبر ، أرسل إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام ، لكنهم صالحوه على نصف الأرض ، فأضحى نصف فدك خالصاً للرسول ، وتطور أمر فدك بعد ذلك ، بين إقطاعها لآل محمد

---

(١) سورة الأنفال آية ٤١

(٢) سورة الحشر آية ٦

(٣) سورة الأنفال آية ١

(٤) عيون الأثر (مخطوط (ورقة ١٧٦ ، فتوح البلدان ص ١٩ – ٢١

(٥) فتوح البلدان ص ١٩ – ٢١ ، عيون الأثر ورقة ٢٩٥ – ٢٩٦ ، إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ٩٨٤ .

واستردادها[١] ثانية ويضاف إلى هذه الصفايا أرض ملكها وصية مخيريق اليهودى من الأحبار ، وصى بها للرسول[٢] ، وكذلك كان له الثلث من أرض وادى الغزى[٣] .

* * *

. وعلى ضوء هذه القواعد العامة ، التى وضعها الرسول فى إقطاعه القطائع ، سار الخلفاء الراشدون من بعده ، على أنهم يختلفون عن بعضهم البعض ، فى مدى التوسع أو الاختصار ، فى تطبيقها ، فكل سار وفق ما بدا له صواباً ، دون الخروج على الأهداف العامة التى هدف إليها الرسول ؛ مع النزول على الأوضاع الزمنية والجغرافية للدولة الإسلامية النامية .

ويعتبر أبو بكر الصديق من المقلين فى الإقطاع إلى درجة المنع ، فلم يعرف أنه أقطع أحداً ، سوى تجديد إقطاع للزبير بن العوام ، كان منحه من الرسول[٤] . وانصب اهتمام عمر بن الخطاب على إقطاع أرض الموات بصفة خاصة ، لما رآه فى ذلك من النفع العام ، حتى أنه خرج يقطع ما بقى من موات الأرض بالعقيق ، وقال : « آين المسْتَقْطِعون ؟ » فاستقطعه خوّات بن جبير الأنصارى[٥] . ولم يقف اهتمام عمر عند مجرد إقطاع الموات ، بل نظم هـذا الإقطاع ، فاذا كان الرسول قد اشترط

---

(١) فتوح البلدان ص ٢٩ — ٣٢ ، ٤٥ ، ٤٧ ، الأوائل (مخطوط) ورقة ١٤١ ، ابن كثير ج ٥ ص ١٨٩ ، وفاء الوفاج ١ ص ١٦٠ — ١٦١ ، ولفنسون ص ١٧٢ — ١٧٣ وغيرها ...

(٢) ولفنسون ص ١٣١ — ١٣٢ ، وفاء الوفاج ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ ، ١٥٦

(٣) ولفنسون ص ١٧٢ .

(٤) خطط ص ٤٩ (Memoires ; T. 33) ، وفاء الوفاج ١ ص ١٨٨

(٥) يحى بن آدم : الخراج ج ٣ ص ٥٧ ، فتوح البلدان ص ١٢ ، ١٥ ، ٢٦٧ ، وفاء الوفاج ١ ص ١٩١ ، أبو يوسف : الخراج ص ٣٤ ، الخطط ص ٥٣ (Memoires) .

الإحياء وجعله أساساً لبقاء الاقطاع فى يد صاحبه ، فان عمر زاد وحدد مدة الأحياء بثلاث سنوات بحيث لو عجز المقطع عن استغلال إقطاعه خلال هذه المدة استرجعه منه أو استرجع القدر الذى لم يطق عمارته ، وتشدد فى هذا حتى أنه كان يسترجع الاقطاعات التى منحها الرسول نفسه ، ما دام المقطع غير قادر على استغلاله ، فلا تتعطل أرض أو تحجّر — كما يقول المصطلح . . . . هكذا فعل مع بلال بن الحارث المزنى ، إذ استرجع منه ما عجز عن زراعته(١) . أما الأرض العامر المزروعة فعلا ، والتى انتقلت إلى حوزة المسلمين ، بالفتح ، فيئاً كانت أو غنيمة ، فلم ير عمر إقطاعها ، مثل أرض السواد بالعراق ؛ حقيقة أنه أقطع جرير بن عبد الله البجلى وقومه بأرض السواد ، لبلائهم فى وقعة القادسية عام ١٥ هـ (٦٣٦م) ؛ إلا أنه رأى استرجاع ما أخذوه بسبب تزايد عدد السكان ، قال عمر لجرير « لولا أنى قاسم مسئول ، لتركتكم على ما أنتم عليه ، وإنى أرى الناس قد كثروا ، فردُوا ذلك » وقبل جرير فأجازه عمر(٢) . كما أن عمراً لم يقطع أحداً بمصر سوى ابن سندر تنفيذاً لوصية الرسول فحسب(٣) .

ولأن عثمان بن عفان توسع فى منح الاقطاعات ، مما كان من أسباب النقمة عليه ، حتى لقد قال الناقمون : « إنما السواد بستان قريش » ؛ نجد أن علياً بن أبى طالب يحتاط فى إقطاع القطائع ، ويحذّر واليه فى مصر فى كتاب منه : « ولا تقطعن لأحد من حاميتك وحاشيتك قطيعة ...(٤) »

* * *

(١) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥ ، ابن آدم ج ٣ ص ٥٧ ، أبو يوسف ص ٣٥ وفاء الوفا ج ١ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) فتوح البلدان ص ٢٦٧ ، ابن رجب : الاستخراج ورقة ١٥ ، ٣٠ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٣٧ — ١٣٨ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٧١ — ١٧٨ ، ١٩٣ ، خطط ج ١ ص ١٥٦

(٤) النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٠٢ ، الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ١٤٢

أما إقطاع المراعى فكان نادراً جداً . وفى نطاق ضيق ، لأنها من المنافع العامة ؛ وفى إقطاعها لشخص أو جماعة حرمان لأهل القرى وغيرهم . ولذلك نجد النبي يشير إلى هذا ، فى وثائق إقطاعاته التى منحها ؛ جاء فى وثيقة إقطاع همدان أنه لم يعطهم أى حق فى التفرد باستغلال المراعى ؛ وعبارته « لا يأكلون علافها ويرعون فيها[1] » أى أجاز لهم أن يرعوا فيها كغيرهم من المسلمين . بل إنه منع إحياء بعض أراضى الموات بالزراعة . ضماناً للصالح العام وتوفيراً لأرض الكلأ . حتى يكون ذلك الجزء الذى استثناه « لنبت الكلأ ورعى الماشية » . وقد حمى الرسول بالمدينة جهة البقيع ومساحتها ستة أميال مربعة . وجعلها مرعى لخيل المسلمين من المهاجرين والأنصار . ومن أقواله : « المسلمون شركاء فى ثلاث : الماء والكلأ والنار » ومعنى هذا ، أنه لا يجوز لأحد من الولاة أن يأخذ من أرباب المواشى عوضاً عن مراعى موات أو حمى[2] .

ولما جاء عمر بن الخطاب ، نظم استغلال المراعى ولم يقطعها . ووضع لها القواعد الدقيقة . كما هو شأنه ، وفى مصر ، أرض الريف . فغدت كل قبيلة من القبائل التى استوطنت مصر بعد الفتح . تخرج للارتباع فى جهة معينة ؛ فكانت قبيلة هذيل تخرج للارتباع فى بيا وبوصير ، وبلى فى منف وفهم فى أتريب وعين شمس ومنوف وهكذا[3]

ولم يعرف عن عمر بن الخطاب أنه أقطع المراعى إلا فى البصرة حين مصرها ، إلا أنه لم يعمم هذا . بل أقطع رجلا واحداً هو أبو عبد الله نافع ، إذ سأله أن يقطعه أرضاً قرب دجلة ليسرح فيها خيله ؛ فكتب له عمر كتابا إلى عامله على البصرة وهو أبو موسى الأشعرى عام ١٧ هـ (٦٣٨ م) : « إن أبا

---

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ٣٤٩ ، الأحكام السلطانية ص ١٧٦ — ١٧٨ .

(٢) الأحكام السلطانية ص ١٧٦ — ١٧٨

(٣) فتوح مصر ص ١٤١ وما بعدها ج ٣ ص ٥٧

عبد الله نافع سألني أرضاً على شاطئ دجلة ، يغتلى فيها خيله ، فإن لم تكن من أرض الجزية ولا يجزأ إليها ماء الجزية فأعطها إياه[١] » . والواقع أن عمر أقطع هذا الرجل على أساس أن أرضه مجاورة لتلك البقعة ، وأن أبا نافع كان أول من رعى فيها ، وأنها لا تضر أحداً[٢] . كذلك أقطع على بن أبي طالب سويدا بن غفلة الجعفي مرعى لدوابه[٣].

والواضح أن القلة برزت في إقطاع المراعي . أما إقطاع المساكن ، فهذا أمر معروف منذ فجر الإسلام ، ويذكر عن النبي حين قدم المدينة أنه « أقطع الناس الدور[٤] » وذلك للضرورة القائمة للتعمير والاستقرار ، وإسكان المهاجرين والنازحين ، وإقامة المدن والأمصار . وعلى هذا الأساس أقطع عمر بن الخطاب المساكن حين مصر الأمصار . فمثلا يوم بدأ بناء البصرة عام ١٤ هـ (٦٣٥م) أمر ببناء المسجد ودار الإمارة ، وإقطاع الناس المنازل ، وأول دار بنيت في البصرة هي دار نافع بن الحارث[٥] . وفي بناء الفسطاط بمصر عام ٢١هـ (٦٤١ م) أقطع كل واحد منطقة أو خطة لبناء داره ؛ فكانت خطة لمسلمة بن مخلد وخطة لعقبة بن نافع ... وغيرهما[٦] .

وهناك مورد آخر ، جاء ذكره بصدد الإقطاع . وهو المعادن المستنبطة من الأرض ؛ هـــذه لم يقطعها الرسول وإنما جعل استغلالها حقاً لمن يردها أولا ؛ مثل ملح مأرب باليمن ؛ استقطع الأبيض بن جمال بن مرثد السبأى الرسول ، ملح مأرب ، فأقطعه إياه ، فقال الأقرع بن حابس

---

(١) فتوح البلدان ص ٣٤٥ – ٣٤٦ ، يحيى بن آدم : الخراج

(٢) فتوح البلدان ص ٣٤٦ ، الاستخراج ورقة ٦٣ .

(٣) خطط ج ١ ص ١٥٦

(٤) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥ .

(٥) فتوح البلدان ص ٣٤٣ .

(٦) فتوح مصر ص ١٣٢ – ١٣٩ ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ٦٤ ، الانتصار ج ٤ ص ٥ – ١٢ .

التميمى : « يا رسول الله ، إنى وردت هذا الملح وهو بأرض ليس (فيها غيره) من ورده أخذه ، وهو مثل الماءالعد(العذب) بالأرض » ؛ فاستقال الرسول الأبيض فى قطيعة الملح . فأجابه الأبيض : « قد أقلتك على أن تجعله منى صدقة » قال النبى : هو منك صـــدقة . وذلك على اعتبار أن القطيعة صارت له بمجرد قبول الرسول إقطاعها له أولا . وحينئذ أصـــدر الرسول قراره فى إقطاع المعادن : « هومثل الماء العد من ورده أخذه[1] » . وقد فعل رجل من أهل اليمن مثل ذلك فأقره الرسول (ص) اقطاعة[2] .

أى أن الرسول أجاز حيازة المعادن لمن يرده أولا . لكنه لا يقطع . أما ظهور بعض المعادن فى إقطاع بلال . فيما بعد ، فذلك لم يكن معروفاً أو ظاهراً يوم تســلم إقطاعه من النبى . وكان إقطاعه مجرد أرض موات ؛ من ذلك استنتج صاحب الأحكام السلطانية أن المعادن الظاهرة لا تقطع . وبالتالى إن عرف بالأرض معدن ولو لم يكن ظاهراً للعيان ، فهذه لا تقطع كذلك ؛ أما إذا لم يعرف كما فى إقطاع بلال . فيجوز إقطاعه بمعنى بقاء المعدن الذى يظهر فيما بعد فى الإقطاع فى يد المقطع [3] .

تلك هى أصول الإقطاع فى الإسلام . ويلاحظ أن الفكرة نبتت لأول مرة فى الدولة الإسلامية ، خلال العشرة سنين الأولى من القرن الأول الهجرى وأوائل القرن السابع الميلادى ، وأنها لم تعد مجرد إجراء فرعى تنظيمى ، لجأ إليه ولى الأمر ، من بين ما لجأ إليه من نظم وتشريعات . كى يمنح بعضاً من الرعايا مساحات معينة من الأرض ، إن ملكاً وإن استغلالا ، لأسباب ماثلة لديه ، وهو فى حل من أن يمنح أولا يمنح . بل اعتبرت من الصدقة لفريق من المقطعين ، وربما كان هذا المعنى هو الذى دفع المقريزى فيما بعد

---

(١) إمتاع الأسماع ج ٥ ورقة ١٠٤٥ ، الإصابة ج ١ ص ١٤

(٢) الإصابة ج ١ ص ١٤ ، يحيى بن آدم : الخراج ج ٣ ص ٧٦

(٣) الماوردى ص ١٨٢ ، ١٨٧ – ١٨٧ ، خطط ج ١ ص ١٥٥ .

لأن يقول: « وإنما القطائع على وجه النقل من خمس ما أفاء الله »[(١)] . وهذا ما جعل للإقطاع الإسلامى صفة المنحة الشخصية ، التى ظللت بارزة فى الدولة الإسلامية خلال العصور اللاحقة ، حتى فى أقصى مراحل تطور الاقطاع الإسلامى ونضجه .

ولما كنا بصدد دراسة الأصول الأولى للإقطاع الإسلامى ، فلا مندوحة لنا من التعرض لأصول الإقطاع الغربى ، وهذه يمكن أن يقال إنها تتفق مع أصول الإقطاع فى الإسلام . من حيث دلالة الإقطاع اللفظية على مساحة معينة من الأرض يمنحها ولى الأمر لبعض رعاياه . مع اختلاف الدوافع والنتائج التى ترتبت على المنح فى كل من الشرق الإسلامى والغرب المسيحى مع وجود التشابه الكثير فى التفصيلات الفرعية لكل من النظامين . وأقدم أصول عرفت للإقطاع الغربى . هى الأحداث التى وقعت خلال العصر الميروفنجى فى القرن السادس الميلادى بصفة خاصة ، حين نشب نزاع حاد وحشى بين أبناء وأحفاد كلوفس Clovis نظراً لما جروا عليه من تقسيم الملك كإرث خاص عقب وفاة كل ملك ، ثم بين هؤلاء الملوك من الفرنجة وكبار الأرستقراطيين فى القرن السابع الميلادى . نسلت هذه الأحداث الخطيرة ، اختلالا فى الأمن واضطراباً شاملا فى المناطق الواقعة بين نهرى الرين واللوار ، قلب إمبراطورية الفرنجة ومسقط رأس الإقطاع الغربى . وزاد الأمر سوءاً أن عجزت الحكومة إبانئذ عن حماية الأمن أو تأمين حياة رعاياها ، مما أتاح الفرصة إلى ظهور ونمو فريق من الرعايا الأثرياء الأقوياء لجأ إليهم جيرانهم من مفتقدى الأمن وطلاب الدعة ، فوجدوهم أجدى من الحكومة وأقرب منالا منها فى تحقيق رغبتهم الحيوية وفى نظير هذه الحماية ، كان لا بد من لقاء لها ، أخذ هذا اللقاء صورة خدمات يقدمها أولئك اللاجئون ، وكيفما كانت أهداف هذه القلة من الجيران الأقوياء ، سواء أكانت للإفادة من الفوضى

---

(١) خطط ج ١ ص ١٥٦

السياسية الكائنة فى تنمية قواتهم أو ثرواتهم ، أو للقيام بدور سياسى ، فقد احتاجوا فعلا إلى خدمات آخرين يرتبطون بهم شخصياً ، ولم تكن هذه الخدمات المطلوبة سوى الأعمال العسكرية .

تطور فريق من الناس إذن إلى نوعين من تلقاء أنفسهم تحت الأحوال السائدة : سادة وأتباع ، ويعتبر هذا التطور أقدم أصول للإقطاع الغربى ومن هنا جاءت كلمة « تابع » عن الأصل الكلتى Gwas بمعنى خادم أو ولد صغير ، وصارت فى اللاتينية Vassus . أما أصول الأرض الإقطاعية التى توزع على أولئك الأتباع أو على الفلاحين ، فترجع كذلك إلى هذا العصر الميروفنجى ، وجاءت عن طريق تأجير الأراضى إليهم ، وربما كان الأصل الأقدم راجعاً إلى عصر الرومان ، فى كيفية زراعة الأبعاديات الكبيرة فى فلسطين مثلا وتسمى Latifundia أو المستعمرات الزراعية Colonate [1] ؛ بل إن الميروفنجيين منحوا قطعاً من الأراضى على سبيل الهبة أو الرزقة Beneficium فأضحى الممنوح مديناً لكرم المانح وسخائه . وفى الحالات القصوى ربما اعتبر التابع أو الممنوح الحر عبداً لحاميه أو مانحه القوى . غير أن الأمثلة على هذه الحالات سواء فى الحماية أو المنح لم تكن من الكثرة فى العصر الميروفنجى بحيث نقول إنها كانت منتشرة وشائعة قبل منتصف القرن الثامن الميلادى ؛ كما أن ارتباط المنحة ، بالتبعية التى تؤدى معنى القيام بخدمات معينة واضحة المعالم كان نادراً فى تلك الفترة . ووضح هذا فى العصر الكارولنجى خلفاء الميروفنجين ، حين احتاج بيبين الثانى Pepin II وشارل مارتل Charles Martel إلى مزيد من القوة الحربية فأكثرا من الأتباع ومنح الضياع ، حتى يستطيع التابع تجهيز نفسه حربياً ولا سيما وأن الفارس فى ذلك الزمن كان العامل الحاسم فى الحروب ، ومنحت تلك الضياع فى

---

(1) Lot (F) : The End of the Ancient World & the Beginnings of the Middle Ages (Lond , 1931) ; pp. 107-114.

أغلب الأحيان تمليكاً لا استغلالا . والملاحظ أن بعض هذه المنح كان من الأملاك الشخصية أو الميراث الشخصي لبيبن أو شارل ، والبعض الآخر من الضياع الملكية Fisci أى الأملاك الخاصة بالملك بوصفه ملكاً . وسار شارلمان على هذا النحو فكثر أتباعه . كما منح أولئك الأتباع أراضيهم لغيرهم فتكونت طبقة أخرى من أتباع الأتباع Subvassals ، بل صارت التبعية شرفاً ؛ ولم يأت آخر القرن التاسع حتى غدت هذه الطريقة عامة . وخلال فترات الاضطراب التى اقترنت بالغزو الخارجى من جانب النورمان أو الصقالبة Slavs أو العرب أو المجريين بدت الحاجة ماسة دون صغار الملاك إلى التماس الأمن ، ولما تعارضت هذه الحاجة مع حرصهم على الإبقاء على منزلتهم الاجتماعية كرجال أحرار . لم يكن أمامهم سوى حل واحد بسيط هو دخولهم ضمن طبقة المحاربين الممتازين Qualified Warriors التابعين لكبار السادة . بمعنى آخر ألجأوا أملاكهم إلى أولئك السادة ثم استردوها منهم ثانياً كإقطاع . وعرفت هذه العملية بالإلجاء Feudalistion[(١)]

وفيما يتعلق بالمراعى فى الإقطاع الغربى . فإن استغلالها يتفق من بعض الوجوه مع استغلال المراعى فى فجر الإسلام . إذ اعتبرها الإقطاع الغربى ملكاً عاماً Common لأهل القرى ؛ فالمجتمع القروى فى تلك العصور هو أكبر أركان الحياة كلها[(٢)] . وهذا هو وجه الاتفاق . أما وجه الخلاف فإنها تابعة للسيد فى الإقطاع الغربي . ويتولى هو تنظيم استغلالها بين المزارعين التابعين له ؛ ورغم أن مؤرخى الإقطاع فى العصور الوسطى الغربية ، قد فرقوا بين نوعين من المراعى : مراعى فقيرة وأطلقوا عليها كلمة Pasture وأخرى

---

(1) Ganshoff : Feudalism ; pp. 5, 16-23
Orton (C. W.) : Outlines of Med. Hist. (Camb., 1924) ; p. 112 ;
C. M. H. Vol. III ; p. 458 ; H. C. T. II p. 1. ؛ انظر ما يلى ص ٢٣

(٢) كوبلاند : الإقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة) ص ٥ — ٧

غنية بالحشائش والكلأ وعرفوها باسم Meadows ؛ إلا أن استغلال النوعين يختلف من حيث إن كليهما يعتبر ملكاً عاماً للمنتفعين فبينما قام استغلال النوع الأول على أساس إرسال عدد معين من الماشية لكل زارع ، قام استغلال النوع الأخير على أساس تخصيص مساحات معينة أو حصص معينة لكل أسرة ، تختلف سعة أو ضيقاً بحسب عدد أفراد الأسرة ، أى أن المساحة تتناسب تناسباً طردياً مع عدد الأسرة ، لأن العبرة فى تلك العصور بالعدد ؛ وعموماً ، اعتبر الإقطاع الغربى المراعى ، اشتراكية قروية[1] ؛ وبمعنى آخر ، تتفق تفاصيل الاستغلال للمراعى فى المجتمع الإقطاعى الغربى مع نظائرها فى الإسلام ؛ أما إقطاع المراعى فى الإسلام واستغلالها لحساب السيد الإقطاعى ، فهذا ما حدث فى عصر المماليك فيما بعد .

بقيت أصول الإقطاع الإسلامى الأساس الأول الذى يركن إليه ولاة الأمور فى المنح الإقطاعية التى أخذت بعد ذلك تنتشر منذ العهد الأموى فصاعدا ، فظلت فكرة الاستثمار الاقتصادى مثلا ، فى إحياء الموات وتعمير الأراضى ، وفكرة مكافأة العاملين فى الإسلام ولا سيما رجال الجيش وهكذا.

إلا أن انتشار الإقطاع وتطوره فيما بعد ، لم يستند إلى تلك الأصول فحسب ، بل طرأت أوضاع جديدة على الدولة الإسلامية ، ساعدت على هذا الانتشار ، وأول هذه الأوضاع : تحول الخلافة إلى ملك منذ عهد معاوية ابن أبى سفيان (٤٠ — ٦٠ هـ — ٦٦٠ = ٦٨٠ م) ولقد استلزم هذا التحول الخطير استكثار الأنصار ، وتكوين عصبة قوية لحماية ووقاية هذا النظام الجديد ومن ناحية أخرى لإقناع الرعية بما آل إليه أمر الحكم فى البلاد ، ولبلوغ هذا الهدف استأدى معاوية ومن جاء بعده ، فيما استأدوا من وسائل وسبل ، ظاهرة الإقطاع ، للتمكين لأنفسهم وأسرهم ؛ ودليل هذا المعنى واضح فى الإقطاع الكبير الذى منحه معاوية للحسن بن على ، وذلك على أثر تنازله

---

(١) C. M. H. Vol. III ; pp. 473—475

عن الخلافة فى ربيع الأول سنة ٤١ هـ (٦٦١م)[١] ، وواضح أن معاوية إنما أراد بذلك ، ألا يكون الحسن بن علي مركزاً تحاك حوله الدسائس ، ودعامة للتهديد والمساومة ، وفى هذا المعنى قضى معاوية لأسامة بن زيد مولى رسول الله بأحقيته فى إقطاعه الذى منحه من النبي وذلك حين تعرض له عمرو بن عثمان بن عفان وظن أنه يستطيع الاستيلاء عليه بحكم قرابته من الخليفة ، ومن أقواله لأسامة : كأنك تنكرنى ! » فأجابه أسامة ؛ مدلا بولائه للرسول : « ما يسرنى نسبك بولائى » ؛ ولما اشتد الجدل ، انقسم الحاضرون من هاشميين وأمويين إلى فريقين ، فحسم معاوية الخلاف ، وقطع الطريق على فتنة تكاد تعصف بعرشه ، وقال : « لا تعجلوا ، أنا كنت شاهداً إذ أقطعها رسول الله أسامة » ؛ فأقبل الأمويون على معاوية بعد انصراف الهاشميين يلومونه ، فكان جوابه : « أكيس ما يقال فى هذا الصدد : « دعونى فوالله ما ذكرت عيونهم تحت المغافر بصفين ، إلا لبس على عقلى ، وأن الحرب أولها نجوى وأوسطها شكوى وآخرها بلوى »[٢] ؛ تلك نظرة فى استنداء الإقطاع خشية وقوع الفتنة وحدوث الفرقة ؛ ولما يزال بعض المسلمين إن لم يكن أكثرهم ، موتوراً من الوضع الجديد وطريقة حدوثه . بمعنى آخر جد عامل سياسى أثر فى انتشار الإقطاع .

ويتلخص الوضع الثانى فى اتساع رقعة الدولة الإسلامية ، اتساعاً يمكن أن يوصف بأنه وصل إلى درجة التشبع ، فأتاحت هذه السعة للخليفة أن يمنح ويكافىء فى غير ضيق ، بل حتمت عليه أن يتوسع فى استخدام حقه فى إقطاع القطائع ؛ من ذلك ما استلزمته المحافظة على هذا الملك العريض من إقامة المعاقل والحصون التى عرفت فى المصطلح « بالمسالح » ولا سيا على حدود الدولة وشحنها بالجند المرابطين والمثاغرين ، ليكونوا على أهبة الدفاع ، فمثلا عند بناء أبى جعفر المنصور لمدينة ملطية بأطراف آسيا الصغرى عام

---

(١) التنبيه والإشراف ص ٣٦٠

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٥٥

١٤٠ هـ (٧٥٧م) ، أقطع الجند المزارع حولها ، وكانوا نحواً من أربعة آلاف مقاتل ، وهذا فضلا عن الرواتب وتزويدهم بالسلاح (١) . كذلك أقطع الفاطميون ، العربان ، فيمن أقطعوا بأطراف الشرقية ، وأطلقوا على إقطاعاتهم « الاعتداد » بل إنهم أرصدوا للأسطول إقطاعات سموها « أبواب الغزاة » .

ثم إن عملية التوسع نفسها وما تخللها من عمليات حربية ، أدت بطبيعة الحال إلى اختلال الأمن وفقدان الطمأنينة ، سواء فى حدود الدولة من العدو الجاثم المترقب على الأبواب ، أو داخل حدود الدولة نفسها من الصعاليك وقطاع الطرق ، الذين يهتبلون تلك الفرص السوانح ، فيغيرون على الوادعين والهادئين من ذوى اليسار وهم « التُّنَّاء » فى المصطلح ؛ فى غمار هذه الأحداث برزت فكرة جديدة ، جاءت وليدة الوضع الراهن ، وظهرت تلقائياً ، تلك هى فكرة « الإلجاء » ومعناها أن يلجئ ضعيف ضيعته إلى جار قوى ثم يسترجعها منه ثانياً إقطاعاً ، أو يلجئ أهل القرية قريتهم بأراضيها إلى السيد القوى ، قائداً كان أو أميراً ، ثم يستردونها منه إقطاعاً ، فيصبحون مزارعين له ، وفى نظير ذلك يتولى هذا السيد الدفاع عنهم ضد عدوان قطاع الطرق أو غيرهم من الطامعين فى أملاكهم وأومن ظلم عمال الخليفة ، الخلاصة : جاء الإلجاء ، وهو إحدى صور الإقطاع ، وسيلة « للتعزز والحقارة » على قول البلاذرى(٢) . وأوضح الأمثلة على ذلك ، ما حدث فى عهد الخليفة الوليد ابن عبد الملك (٨٦ – ٩٦ = ٧٠٥ – ٧١٥ م) ، حين أقطع أخاه مسلمة بن عبد الملك أرض البطائح من أملاك كسرى ، بجوار دجلة ، فألجأ إليه جيرانه ضياعاً كثيرة للتعزز به ، كذلك ألجأ أهل زنجان ضياعهم للقاسم بن الرشيد عند ولايته لجرجان وطبرستان ، قصد التعزز به ودفعا لمكروه الصعاليك وظلم العمال وهكذا(٣) ...

---

(١) فتوح البلدان ص ١٩١

(٢) فتوح البلدان ص ٣٢٤ – ٣٢٥

(٣) المصدر السابق ٣٠٦ – ٣٠٩ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ – ٣٢٥

مسكويه(١) . ويعتبر عهد المقتدر بارزا لأنه عمم إقطاع الولايات لكبار قواده ، نظير قدر معين من المال يدفع لخزانة الخلافة عرف باسم مال المقاطعة أو الجزية على أن يقوموا بجميع نفقات الإدارة المحلية ؛ ومع التسليم بأن إقطاع الولايات حدث فى العصر العباسى الأول ، غير أن قوة الخلفاء أمثال المعتصم والواثق ، قد حدت من نفوذ الأتراك المقاطعين رغم تمكنهم من السلطة ، والمهم فيما عمله المقتدر أنه عمم إقطاع الولايات بعد أن كان قاصراً على نفر محدود من كبار القادة ، وزاد الأمر أن صارت هذه الولايات تؤخذ قسراً وتورث ، ووضح هذا على مقياس أكبر ، فى عهد بنى بويه ؛ حتى أضحت الخلافة العباسية قرب نهايتها — فى كثير من الوجوه — كما كانت أسرة هيو كاپى Hugh Capet فى بدايتها : أسرة إقطاعية وسط خضم من الولايات الإقطاعية . فلم يعد للخلافة سوى بغداد وبعض ضواحيها ، وبلغ استبداد بنى بويه أقصاه حين قصروا مهمة وزير الخليفة على النظر فى « إقطاعاته ومقتات داره(٢) »

ولم يكتف الولاة المقاطعون بحيازة ولا ياتهم وتوارثها ، بل أقطعوا فيها بدورهم لشيعتهم وأعوانهم ، ووضح هذا منذ القرن الرابع الهجرى ؛ فمثلا أقطع محمد الأخشيد قواد جيشه ورجال حاشيته ومتصرفى الأعمال ، ومن هؤلاء الأمير أبوشجاع فاتك الرومى المتوفى سنة ٣٥٠ هـ (٠٠٠ م) إذ كان له إقطاع كبير بالفيوم ، وقد أقام فيه حين « أنف من عظمة خشداشة كافور(٣) » كذلك اختلفت إقطاعات بنى بويه لأتباعهم . فكانت عبرة إقطاعات أتباع فخر الدولة تتراوح بين ٢٠ ، ٣٠ ألف درهم لوجوه الديلم فى منطقة الرى وأعمال الجبل ، على حين تراوحت هذه العبرة لجنود الديلم الخوذ ستانية

---

(١) تجارب الأمم ج ٥ ص ٨٧

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٥ ، Dutaillis : Feudal Monarchy in France & England. P. 4...; Orton (P.) : Outlines P. 174.

(٣) النجوم الزاهرة : ج ٣ ص ٢٥٥ ، ٣٢٩ — ٣٣٠ ، ج ٤ ص ٤ — ٥

بين ٢٠٠ و ٣٠٠ ألف درهم . وهكذا[١] .... بمعنى آخر : وجدت الإقطاعات الفرعية فى الإسلام ، ووجد السيد الأوسط Medius Lord والسيد الأعلى Over Lord والتابع أو المزارع Tenant Vassal وتابع التابع Subtenant أو Subvassal ولهذا نظائره فى الغرب الإقطاعى ؛ واستنصر الأتباع بأتباعهم ضد السيد الأعلى ، وساد الولاء من جانب أتباع الأتباع للسيد المباشر ، كما ساد نظيره فى الغرب باستثناء ما وقع فى إنجلترا الإقطاعية على عهد وليام الفاتح ، إذ اقتضى التنظيم القوى للإقطاع ، أن يكون التابع الفرعى أو المُقْطَع الأدنى فى منزلة سيده المباشر[٢] .

* * *

هكذا كان انتشار الإقطاع فى الإسلام على اختلاف أنواعه وطرق جيازته وتباين حائزيه : من رجال الجيش إلى كبار الأعوان والأقارب إلى المقربين من الموالى والجوارى وغيرهم ، حتى كان أواخر القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى ؛ حين حدث تطور خطير فى المنح الإقطاعية إذ صارت حربية عامة ، وغدت الطريق الوحيد للحصول على القوة الحربية الأساسية فى الدولة ؛ وربما التمس لهذا التطور الخطير أساس فى فجر الإسلام ، فى توزيع الغنائم بين الغانمين ولو أن عمر بن الخطاب لم يقطع أرض السواد لتزايد القوة الحربية وخشية النزاع ، ولكن بعد أن استطاب نفوس الغانمين[٣] ؛ ويرى الماوردى أن رجال الجيش « أخص الناس بجواز الإقطاع لأن لهم أرزاقاً مقدرة تصرف لهم مصرف الاستحقاق لأنها تعويض عما أرصدوا نفوسهم له من حماية البيضة والذب عن الحريم[٤] » .

على أن السبب المباشر فى تعميم الإقطاع الحربى ؛ هو ازدياد ضعف

---

(١) ذيل تجارب الأمم ص ١٦٤ – ١٧٠ ، تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٥٥

(٢) C. M.H. Vol. III, P. 463 ; Stephenson (C.) : Med. Hist.;pp. 288-239

(٣) انظر ماسبق ص ١٢

(٤) الأحكام السلطانية ص ١٨٦

الخلافة العباسية ، وسوء تصرف بنى بويه فى الإقطاعات ، وما نجم عن هذا من بوارها ، وضعف القوة الحربية فى نفس الوقت ، إذ لم يكن لها من هم سرى الحصول على الإقطاعات . من ذلك مثلا طالب الجند زيادة أرزاقهم من معز الدولة البويهى عام ٣٢٠هـ (٩٣٢ م) فأمر بضرب المكوس وإقطاع جميع القرى والضياع لهم(١) . لكنهم أهملوا استغلالها فخربت ، وانحط خراجها ، وأسوأ من هذا أنهم كانوا يتركونها بعد ذلك ، فيعوضهم السلطان البويهى بأحسن منها من حيث يختارون(٢) ، والنتيجة الطبيعية هى زيادة مساحات الأراضى المهملة وتناقص إنتاجها ؛ وذلك بجانب السوء الذى كان يلحق أهالى الإقطاعات من ظلم وحيف ومصادرات ؛ اشتد الاضطراب وزاد الخلل على عهد بختيار بن معز الدولة ، حين اتفقت كلمة الأتباع من الترك وغلمان القصر على ألا يعارض كل منهم صاحبه فى « طلب الحظ لنفسه » مما أجبر السلطان على أن يضمن لهم جميع ما التمسوه(٣) ؛ كما أن العلاء بن الحسن أحد وزراء صمصام الدولة يوم عاد إلى الوزارة عام ٣٨٢هـ (٩٩٢م) كان قلبه مفعماً بالغيظ والحقد بسبب ما لحقه وأهله على يد السلطان ، « فأهلك دولته بأقطاع الإقطاعات وإيجاب الزيادات(٤)... » وهكذا ، كان تصرف بنى بويه فى الإقطاعات » .

نخرج من هذا الاستقراء الموجز لأحداث الإقطاع الحربى فى ذلك العهد؛ بثلاث حقائق كبرى : أولاها : أن سلاطين بنى بويه توسعوا فعلا فى الإقطاعات الحربية أكثر من ذى قبل لكنهم لم يعمموه ، إلا أن الحصول عليها من جانب الأتباع العسكريين غدا المطمع الأساسى دون نظر إلى استيفاء ما يقابلها من التزامات ، وثانيها الحقائق أن أولئك السلاطين توسلوا بالمنح

---

(١) تجارب الأمم ج ٦ ص ٩٧

(٢) تاريخ ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٥ .

(٣) تجارب الأمم ج ٦ ص ٢٣٥ – ٢٣٧

(٤) ذيل تجارب الأمم ص ٣٤٧

الاقطاعية لاسترضاء الأنصار خشية خروجهم وفتنهم كهدف أساسى ؛ وخلاصة الحقيقة الأخيرة ، وهى نتيجة منطقية للحقيقتين السابقتين ، انتشار الفوضى وانحطاط عمارة الأقطاعات واختلال الميزان المالى بجانب انحطاط وفساد القوى الحربية نفسها .

لذلك بات إصلاح الحال مالياً وحربياً الهدف الأول لسلاطين السلاجقة الذين تولوا الحكم بعد البويهيين ، والواقع أن السلاجقة خبروا الإقطاع الحربى وهم فى خدمة بنى بويه[1] كما خبروا نتائج سياستهم ونواحى النقص فى هذا الصدد ، فرأوا أن يعمموا هذا النظام بحيث يحل محل الغطاء للجندعامة ؛ وكان عهد السلطان ملكشاه السلجوقى (٤٦٥ — ٤٨٥ هـ = ١٠٧٢— ١٠٩٢م) ووزيره نظام الملك ، مفترق الطرق فى تعميم هذا النظام فى دولة إسلامية عريضة تمتد من جنوب فارس إلى قلب آسيا الصغرى . يقول أحمد بن على المقريزى : « واعلم أنه كانت عادة الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين من لدن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أن يجبى أموال الخراج ثم تفرق فى الأمراء أو العمال أو الأجناد ، وعلى قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم ، وكان يقال لذلك فى صدر الإسلام : العطاء ؛ وما زال الأمر على ذلك إلى أن كانت دولة العجم ، فغير هذا الرسم ، وفرقت الأراضى إقطاعات على الجند ، وأول من عرف أنه فرق الاقطاعات : الملك أبو على الحسن ابن على بن العباس « وهو نظام الملك » . وزير البرشلان (ألب أرسلان) ابن داود بن ميكال بن سلجوق ؛ ثم وزر أبو على لابنه ملكشاه ... وذلك أن مملكته اتسعت فرأى أن يسلم إلى كل مقطع قرية أو أكثر أو أقل ، على قدر طاقته لأنه رأى أن فى تسليم الأراضى إلى المقطعين ، فيه عمارتها ، لاعتناء مقطعها بأمرها ، بخلاف ما إذا شمل جميع أعمال المملكة ديوان واحد ، فإن الخرق يتسع ويدخل الخلل فى البلاد . فعل نظام الملك ذلك وعمرت البلاد وكثرت

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٩

الغلات ، واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من أعوام بضع وثمانين (وأربعمائة) إلى يومنا هذا[١] (عصر المماليك) .

هذا هو الحد الفاصل فى الاقطاع الحربى فى الإسلام ، بعد أن أضحى النظام المعمول به . وأهم ما استرعى نظر نظام الملك ، اختلال الحالة المالية والحربية ، ولكى يجعل من الإقطاع الحربى نظاماً يكفل ولاء الجنود وخضوعهم وإخلادهم للعمل دون إتاحة الفرصة لمقطع «أن يكون قوة مناوئة فى إقطاعه» ، كان لابد له من تشريع آخر يقى هذا النظام ليؤدى الغرض منه . وجاء هذا التشريع الوقائى فى تدبير حازم قوى ، خلاصته بعثرة الإقطاع الواحد فى أماكن متباعدة حتى لا يقوى المقطع بتركيز إقطاعه فى مكان واحد من تكوين عصبية قوية تهدد كيان الدولة . يقول مؤرخ السلاجقة : «وربما قرر لواحد من الجند ألف دينار فى السنة ، فوجه نصفه على بلد من الروم ، ونصفه على وجه فى أقصى خراسان ، وصاحب القرار راض»[٢] .

ويتضح من هذا أن الأهداف التى قصد إليها نظام الملك من تعميم الإقطاع الحربى فى الدولة السلجوقية ، تلخص فى ثلاثة : ١ — توفير المال اللازم بتعمير البلاد بعد خرابها على يد البويهيين . ٢ — توفير القوى الحربية المنظمة . ٣ — إيجاد شىء من اللامركزية لضبط أمور الدولة المترامية الأطراف مع التمكين للأسرة الحاكمة .

وتشبه هذه الظاهرة ما حدث فى أوروبا المعاصرة يومئذ ، إذ أن الفترة التى عمم فيها هذا النظام فى الإسلام ، تقابل عصر الفتح النورمانى لانجلترا عام ١٠٦٦ م ، حيث نظم وليام الفاتح الإقطاع الحربى بها ، ولم يدخله ، نظراً لوجود شبه كبير بين نظم المجتمع الانجلوسكسونى ، والنظم الإقطاعية الفرنسية فى القرن الحادى عشر الميلادى .

---

(١) خطط ج ١ ص ١٥٣ — ١٥٤

(٢) الأصفهانى (الفتح بن على) : دولة آل سلجوق ص ٥٥ — ٥٦

وقد وفى وليام الفاتح نظامه على النحو الذى وفى به نظام الملك تشريعه لنفس الأهداف ، فبعثر إقطاعات أتباعه ، وأخذ عليهم من العهود والمواثيق ما جعل الإقطاع الإنجليزى يختلف عن نظائره فى بقية اوروبا ويقترب فى كثير من التفاصيل من الاقطاع الحربى الاسلامى مع أن الاقطاع الانجليزى منقول من نورمانديا الفرنسية[١] .

على أن الإقطاع الحربى الإسلامى ، لم يصبح عاماً بجميع الدول الإسلامية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، فلم تعممه الدولة الفاطمية فى بلادها مع ما هو معروف عنها من كثرة الإقطاعات لجنودها وأمرائها[٢] ، كما اختلفت طرق الإنفاق على الجنود بالأندلس ، فجرت أولا على إقطاع الأرض ، ثم تغيرت إلى العطاء والرواتب ثم عادت إلى الإقطاع وهكذا بحسب ما كان يرى ولى الأمر وجاء هذا التطور الأخير على أثر فتح الملثمين لبلاد الأندلس تحت قيادة زعيمهم يوسف بن تاشفين المتوفى سنة ٤٤٨ هـ (١٠٥٦م)[٣] وفى مراكش على عهد بنى مريرة المعاصرين للأيوبيين والمماليك ، عرف الإقطاع الحربى كذلك[٤] .

أما الدول التى قامت فى أحضان السلاجقة وعلى أنقاضهم وهى الدولة الزنكية ثم الأيوبية فالمملوكية ، فانتقل النظام الإقطاعى الحربى إليها كاملا ، وكان أبو المحاسن دقيقاً فى تعبيره عن هذا المعنى بقوله : « وأنشأ بنو سلجوق بنى أرتق وآق سنقر جد بنى زنكى ، ثم أنشأ بنو زنكى ، أعنى الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، بنى أيوب سلاطين مصر وغيرها ، ثم أنشأ

---

(1) Dutaillis ; pp. 37-51, 61; Steuton; pp. 7 - 10; Stubbs ; pp. pp. 109 - 110

(٢) خطط ج ١ ص ١٣٨ ، ج ٢ ص ٣٤٠ ، كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

(٣) المعجب ص ٣٣ — ٤٠ وما بعدها Dozy : Hist. des Mus. p. 322 et sues·

(٤) كرد على : الإسلام والحضارة العربية ج ٢ ص ٢٧٣

بنو أيوب المماليك ودولة الترك ... فانظر إلى أمر الدنيا وكيف كل طائفة نعمة طائفة ونشوءها إلى يومنا هذا ....[١]» .

ومما دعم هذا النظام وقواه ، بقاء السلاجقة فى حالة حرب طيلة أيامهم ضد البيزنطيين ومنافسيهم ثم بروز الخطر الصليبى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى ، وظهور الخطر المغولى وامتداده منذ بداية القرن الثالث عشر الميلادى .

ولأول مرة فى تاريخ مصر توزع أراضيها اقطاعات بين السلطان وجنوده ، منذ العهد الأيوبى . يقول المقريزى . : «وأما منذ كانت أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا . فإن أراضى مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده ...[٢]»

والأمثلة على التوزيع الإقطاعى الحربى كثيرة . منها إقطاع السلطان ملكشاه السلجوقى منطقة الرها للأمير بوزان التركمانى . وبلغت عبرة إقطاع الأمير أحمد يلل الكردى فى المراغة بأذربيجان ٤٠٠,٠٠٠ دينار فى السنة[٣] . ومن كبار أمراء الاقطاع وأعيان دولة ملكشاه : آق سنقر الملقب بقسيم الدولة ، وهو أبو عماد الدين زنكى . فقد شمل اقطاعه قلعة حلب وأعمالها وحماة ومنبج واللاذقية ولواحقها[٤] كما أن ابنه زنكى كان أقوى الإقطاعيين فى عصره ، إذ شملت دولته الإقطاعية ما بين حلب والموصل[٥] وصار هو يقطع أتباعه ولا سيما وأن الجهاد ضد الصليبين كان على أشده فى تلك الفترة ، فاحتاج

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٩

(٢) خطط ج ١ ص ١٣٩ — ١٤٠

(٣) الرضتين ص ٢٥ — ٢٦ ، النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٨٤ وهامشة ٣ ج ٥ ص ١٢٤ — ١٢٥ ، ١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٥٥ ، ١٦٣ ، ٢٠٨

(٤) الروضتين ص ٢٧ النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٢٥ ، ١٤١ ، وغيرها .

(٥) الروضتين ص ٢٦ — ٢٩

إلى تدبير القوة الحربية اللازمة ، واستعان بكل قوة تخدم أهدافه ، فلما وفد عليه نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه ١١٣٨ م أقطعهما ، فأخذ نجم الدين شهرزور وهي السليمانية الحالية (شمال العراق) وأخذ أسد الدين بالموزر[١] . وهكذا سار خلفاء زنكي . فأقطع نور الدين رجال جيشه ومن بعده الأيوبيون الذين وزعوا مصر كلها بين السلطان وجنوده .

إبراهيم علي طرخان

---

(١) شفاء القلوب ورقة ٤ ، ابن شداد ص ٢٦٠ ، النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٧٧ وغيرها ، الروضتين ص ٩٥ – ٩٦ وغيرها .

مصر والبحر الأحمر

فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر

لعب البحر الأحمر دوراً خطيراً كطريق ملاحى بين الشرق والغرب فى القرن التاسع عشر ، وفى النصف الثانى من هذا القرن بنوع خاص .

ولقد تأثر تاريخ مصر الحديث بموقعها على هذا البحر ؛ إذ أن هذا البحر الذى شاءت الدولة العثمانية أن تجعله بحيرة راكدة ، أصبح من مستهل القرن التاسع عشر شرياناً من أهم شرايين المواصلات بين الشرق والغرب ؛ خاصة بعد اكتشاف البخار واستخدامه فى المواصلات البحرية . وبالطبع ستتضاعف هذه الأهمية بعد أن يتصل البحر الأحمر بالبحر المتوسط وتفتح قناة السويس للملاحة فى سنة ١٨٦٩ .

وارتبط النشاط فى البحر الأحمر بالتطاحن الاستعمارى فى إفريقيا عامة وفى ساحلها الشرقى بنوع خاص . فقد كان طبيعياً وقد بدت للعيان أهمية المناطق المطلة على البحر الأحمر وعلى المحيط الهندى ، أن تسرع الدول الاستعمارية المتحفزة لتأخذ كل منها نصيبها فى هذا الصيد الثمين .

ولم تقف مصر — وهى التى كان يمسها الأمر قبل غيرها — مكتوفة الأيدى وسط هذا الصراع الدولى الطاحن ، بل اتجهت إلى أن تلعب دوراً عملياً حاسما ، فعمدت إلى أن تثبت أقدامها فى المناطق الهامة المطلة على البحر الأحمر وفى سواحل إفريقيا الشرقى قبل أن تسبقها الدول الاستعمارية التى كانت قد بدأت فعلا تنشب أظفارها فى هذه المناطق الساحلية وتتخذ منها منافذ للتوغل للداخل ، بل كما سنوضح كانت السياسة المصرية أبعد من ذلك فقد كانت هذه السياسة ترمى إلى الاستيلاء على ساحل البحر الأحمر الغربى كلية . وعلى الساحل الإفريقى الشرقى للمواجه للمديرية الاستوائية التى كانت الجهود تبذل فى ذلك

الوقت لتثبيت وتوسيع دعائم الحكم المصرى فيها . وكانت الدلائل كلها قد أثبتت أن اتصال مصر بالنصف الجنوبى من وادى النيل أى بالسودان وخاصة بمنطقة البحيرات الاستوائية عن طريق البحر أيسر وأجدى وأوفر فى الوقت وفى النفقات من الاتصال عن طريق النيل الطويل وما يعتريه من العقبات المتباينة .

وخطت مصر أول خطوة إيجابية فى سبيل مد نفوذها فى البحر الأحمر وموانيه حين طلبت ضم ميناءى (سواكن ، ومصوع) للإدارة المصرية ، وقد كان للميناءين وضع خاص ، إذ كانا تابعين لإيالة (جدة) وكان يطلق على هذه الجهات اسم (ولاية الحبش) ولعل هذه التسمية ترجع إلى أن هذه الأقاليم هى التى تشرف على الحبشة . وقد كان بين العثمانيين، باعتبارهم القوة الإسلامية التى تتزعم العالم الإسلامى ، وبين الحبشة المسيحية ، مثلما كان بين الحبشة وبين الولايات العربية الاسلامية المحيطة بها فى أفريقيا (كإمارة هرر) نضال يعتبر تتمة للحروب الصليبية المعروفة .

وكللت جهود مصر فى ضم الميناءين بالنجاح فصدر فرمان بوضع الميناءين تحت إدارة الحكومة المصرية فى مايو ١٨٦٥ .

على أن استلام الإدارة المصرية لسواكن تم مباشرة بعد صدور الفرمان السلطانى بذلك . أما فيما يختص بميناء (مصوع) فقد تأخر استلامها بسبب ثورة الجند فى «التاكة» وهى من ملحقات السودان القريبة من سواكن .

وبعد استلام سواكن ومصوع عين (حسن باك رفعت) محافظاً لمصوع و(ممتاز بك) محافظاً لسواكن .

لكن الحكومة المصرية ، شعوراً منها بأهمية هذه الأقاليم المطلة على البحر الأحمر والتى دخلت حديثاً فى حوزتها ؛ فصلتها فى عام ١٨٧١ عن حكمدارية السودان وكونت من مصوع وسواكن وغيرها من الأقاليم السودانية المطلة

على البحر الأحمر والتى خضعت للنفوذ المصرى محافظة مستقلة عرفت باسم (محافظة سواحل البحر الأحمر) وعين لإدارتها الضابط المصرى أحمد ممتاز باشا بلقب (مدير عام شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر (وخلفه فى هذه الوظيفة (مستر نجر بك) وهو سويسرى الأصل وكان قنصلا لفرنسا بمصوع من قبل .

وقد كانت حالة سواكن ومصوع غاية فى السوء وقت أن تسلمتها الإدارة المصرية ، وتقرير (حسن بك رفعت) فى مايو ١٨٦٦ عن مصوع يوضح كيف كانت حالة السكان الصحية رديئة إذ كانت تنتشر بها عدة علل منها الحميات ، ومرض الدوسنتاريا ، والعلة المخية ، والكوليرا ، وكان بأسواق مصوع وأزقتها بعض المصابين بالجدرى والقروح مشرفين على الموت دون أن يوجد من يعتنى بهم لعدم وجود مستشفيات أو وسائل علاج بها .

أما عن حالة المبانى الحكومية وقت استلامها فقد كانت قديمة وآيلة للسقوط وبعضها كان قد تهدم فعلا وأصبح عبارة عن أكوام من التراب . ولم يكن بالبلدة طاحونة واحدة لطحن الحنطة أو فرن للخبز ، وكانت حالة الأمن مضطربة إذ لم تكن حتى بالنقط الهامة بالساحل قوة عسكرية لحفظ الأمن ، وفيما يختص بالأموال التى تجبى من الأهالى لم تكن هناك سجلات ثابتة توضحها وتضبطها حتى لا يضار أحد .

وقد عثرت فى المحفوظات التاريخية على عدة تقارير عن حالة هذه الجهات فى فترات مختلفة نذكر منها تقرير أحمد ممتاز باشا الذى أصبح محافظاً لسواحل البحر الأحمر فى مارس ١٨٧١ وتقرير على رضا باشا محافظ سواحل البحر الأحمر أيضاً فى الفترة من (أغسطس ١٨٧٩ إلى يناير ١٨٨١) .

وقد قامت الإدارة المصرية فى تلك الجهات بعدة إصلاحات شملت جميع نواحى الحياة فيها .

* * *

اهتمت الإدارة المصرية بتيسير سبل المواصلات فنظم بريد برى بين

سواكن والقصير إلى أن يتم تنظيم الخط الملاحى البحري بين سواكن ومصوع وبينها وبين السويس .

وأنشئ بكل من مصوع وسواكن مكتب بريد وخصصت باخرة بعد ذلك لنقل البريد من سواكن لمصر فى كل أسبوع فكانت البوستة السودانية تنقل من الخرطوم إلى سواكن براً وكان يقوم جنود الهجانة بهذه المهمة . ومن سواكن للسويس بحراً ، وربط خط بحرى بين مصوع وسواكن وخصص وابور للإقامة بكل منها ، وقد نظمت مواعيد هذه الوابورات بدقة ، ولما انتظمت حركتها أصبحت تنقل الركاب والبضائع .

كما مدت خطوط التلغراف بين سواكن ومصوع وموانى البحر الأحمر الأخرى وبينها وبين الخرطوم . وقد وجدنا فى دفاتر صادر محافظة سواكن وصفاً طريفاً لحفل نصب أول عامود من أعمدة التلغراف بسواكن ومما ذكر بهذه المناسبة أن تجار البندر قدموا أحد الأعمدة على سبيل الهدية الرمزية اعترافاً منهم بتقديرهم لأعمال الحكومة ومشروعاتها العائدة بالنفع على الأهالى بصفة عامة وعلى التجار بصفة خاصة .

ومن الخطوط التلغرافية التى مدت الخط من بربر إلى كسلة . ومن كسلة إلى مصوع . . ومنها إلى سواكن . ومن سواكن إلى برانيس وهى ميناء مصرى على البحر الأحمر .

وقد ظهر أن الأخشاب التى ترسل من مصر لاستعمالها فى الخطوط التلغرافية تتعرض لحشرة القرضة ، وأن الأفضل والأوفر استخدام أخشاب شجر الدوم التى بالسودان لهذا الغرض .

وكان باشمهندس عموم التلغرافات (سلامة بك) يداوم المرور على هذه الخطوط التلغرافية الجديدة لتفقد حالتها ولتلافى ما فيها من نقص .

هذا بالإضافة لتمهيد الطرق البرية التى تربط موانى البحر الأحمر المختلفة بالمدن الداخلية .

وقد بحث فعلا مشروع وصل السودان بمصر بالسكة الحديد وقدمت اللجنة المكلفة لهذا العمل تقريراً وافياً . كما بحث (إسماعيل بك الفلكي) مشروع مد خط حديدى من سواكن إلى بربر أو شندى وقدم تقريراً فى هذا الشأن مع خريطة توضيحية ؛ لكن العقبات المالية حالت دون تنفيذ هذا المشروع وإن كان قد بدئ فيه فعلا فمد الخط من وادى حلفا إلى (حنك) .

هذا من جهة المواصلات ، وقد اهتمت الإدارة المصرية بتعمير بندر سواكن ومصوع فبنيت مساكن للأهالى من الحجارة كما شيد بكل منهما مسجد ومستشفى ومكاتب صغيرة لتربية وتعليم الأطفال ، ولما كان من العساكر الموجودين بالبندر من يتقن أشغال الحدادة والنجارة والنحت والبناء فقد استخدمتهم فى هذه الأعمال .

كما أرسلت مطاحن للغلال كاملة العدد من مصر لتركيبها هناك ، وأرسل أيضاً مهندس خاص لإقامة (طابونة) لصنع الخبز بها ، ومخزن بجوارها لخزن الدقيق .

وعهد إلى (عرفة بك) باشمهندس استحكامات السودان ببحث مسألة الاستحكامات اللازمة بهذه الجهات لضمان سلامتها .

* * *

واهتمت الإدارة المصرية بتدبير المياه العذبة لكل من سواكن ومصوع فمدت المواسير من العيون والآبار لبندر مصوع وقام بهذه العملية المهندس المسيو (روسو) ، ولما وجد أن مياه الآبار بسواكن مرة وأن الأهالى يرتحلون منها للجبال فى (سنكات) و(اركويت) حيث يمكنهم الحصول على المياه ، الأمر الذى جعل التجارة تكسد بالإضافة لانتشار مرض (الأسكربوط) نتيجة المياه غير العذبة ، قامت الحكومة ببناء خزان يسع ٢٥٠,٠٠٠ متر من المياه لجمع مياه السيول التى تسقط على المرتفعات المحيطة بسواكن ومدت قناة من الخزان للمدينة بلغ طولها ٦,٠٠٠ متر وصرف على هذه العملية ٨٠٠ كيس .

وجهت الحكومة جهودها إلى العناية بموارد هذه الجهات الطبيعية وتنميتها ، فاهتمت بنشر زراعة القطن فى كل من مصوع وسواكن وملحقاتها كطوكر وعقين وسنكات ، فأرسلت البذور لهذه الجهات ، وشجعت الأهالى على الزراعة وازدهرت الزراعة بها لدرجة أن المحالج التى أقامتها الحكومة لم تف بالحاجة فأنشأ الأهالى والمهاجرون الأجانب محالج للقطن . ومما يدل على مبلغ اهتمام الحكومة بتنمية الزراعة هنا أنها فصلت مدير التاكة فى عام ١٨٧٠ لما نسب له محافظ سواحل البحر الأحمر عدم الاهتمام بتشوين الأهالى للزراعة .

ولما كانت هذه الجهات مشهورة بملاحاتها فقد اهتمت الإدارة المصرية أيضا بتنظيم عملية استغلال هذه الملاحات وتصريف انتاجها من الملح ، ومما عمل فى هذا السبيل مد خطوط حديدية من الملاحات للساحل لتيسير نقل الملح فى عربات تسير على هذه القضبان بالدفع ، وعملت (أسكلة) بجوار الساحل لتيسير شحن السفن وعين مأمورون على الملاحات ، بل إن الإدارة المصرية عملت على تنظيم استغلال الملح وتسويقه ، فأرسلت عينات من مختلف أنواع الملح إلى البلاد الأجنبية للترويج له .

وفى مستهل الأعمال التى عنيت بها الإدارة المصرية بعد استلام سواكن ومصوع ترتيب وحـــدة صحية وتعيين طبيب وصيدلى لكل منها ، كما عينت حكيمتين من التلميذات اللاتى أتممن الدراسة بالمدرسة الطبية إحداهما لاسبتالية سواكن والأخرى لاسبتالية مصوع .

وللفصل فى المنازعات والخلافات شكل مجلس فى كل من مصوع وسواكن من وجوه وعمد التجار ، وللتسهيل على أرباب القضايا رأى المجلس المخصوص أن القضية التى تنظر فى أحد المجلسين ويستلزم استيفاؤها تنظر بالمجلس الثانى .

ولقد استتب الأمن تماماً فى مصوع وسواكن فى ظل الإدارة المصرية

فقد عين فى كل نقطة من النقط الهامة عدد من الجنود وعلى رأسهم ضابط للضرب على أيدى العابثين بالنظام والأمن .

كما نظمت مسألة جمع العشور والعوائد ورصدت فى دفاتر حتى لا يظلم أحد ، وساعد ذلك كله بالإضافة إلى الاهتمام بإعداد الموانى لاستقبال السفن وإنشاء الأساكل ، على رواج التجارة . فكانت السفن تأتى بانتظام لسواكن محملة بالبضائع الهندية والأسيوية المختلفة وتعود محملة بالملح والصمغ والعاج وغيرها من المنتجات السودانية .

ولما كان الأجانب قد أخذوا يتسللون للجهات الساحلية الهامة بساحل أفريقيا الشرقى وسواحل البحر الأحمر ويعقدون اتفقات مع شيوخ القبائل فقـد أصدرت الحكومة المصرية أوامر مشددة (لمحافظة سواحل البحر الأحمر) بمداومة المرور على السواحل واستكشاف وبيان حـدودها ، وتسجيل أسماء القبائل والمشايخ بدفاتر الحكمدارية وسجلات محكمة العموم بالخرطوم . وذلك لإثبات حقوق الحكومة المصرية وبطلان الوسائل التى كانت الدول الاستعمارية تتبعها فى عقد المعاهدات مع المشايخ لشراء جهات من الساحل كما فعل الطليان فى (رأس عريب) والفرنسيون فى جهة (أويوك) قرب تاجورة .

وقد حدث فعلا لما بدأت مصر تبسط نفوذها على هذه الجهات أن احتج حاكم عدن (ادوارد راسل) واضطرت الحكومة المصرية لأن ترسل (مكيلوب باشا) وهو إنجليزى الأصل ليشرح لوالى عدن حقيقة الوضع ويطمئن الإنجليز على مستقبل العلاقات بين بربرة وعدن لأن المسألة كما قالت الحكومة المصرية فى خطابها لرضوان بك تتعلق بالسياسة وتحتاج إلى تفهيم الوالى المذكور ما يختص بها عن طريق من يكون له إلمام تام بلسانه .

وقد تابعت الحكومة المصرية جهودها فى سبيل توطيد النفوذ المصرى فى المناطق الأخرى الهامة بساحل البحر الأحمر الغربى ووضع حد للوسائل

التى كانت تتبعها الدول الأجنبية للتدخل فى شئون هذه الجهات ، فلما علمت بالنزاع المستمر بين القبائل فى بربرة وعـــدم وجود سلطة تحفظ الأمن وتحسم الأمر ، واتخاذ الإنجليز فى عدن ذلك ذريعة للتدخل فى شئون هذه الجهات . ووصلت لمصر عدة استغاثات من عقلاء القبائل يستصرخون الحكومة المصرية أن تعاونهم لوضع حد للفوضى المنتشرة فى بلادهم . فأرسلت أحمد ممتاز باشا محافظ سواحل البحر الأحمر سنة ١٨٧١ وبرفقته محافظ مصوع لإجراء الصلح بين القبائل ، ثم أعقب ذلك إرسال رضوان بك وأحد رجال البحرية المصرية وقائد وابور (الصاعقة) إلى بربرة تمهيداً لإرسال الجنود والموظفين لإدارة شئونها ، ثم صدرت الأوامر (لمتذنجر بك) مدير عموم شرق السودان ومحافظ سواحل البحر الأحمر بالتوجه بنفسه لبربرة . فذهب إليها وكتب تقريراً وافياً عن حالتها فى عام ١٨٧٣ ، أشار فيه لاضطراب الأمن وكثرة المشاحنات بين القبائل First Footsteps in East Africa .

وأوضح أن حالة ذلك الميناء الذى أمدته الطبيعة بميزات طبيعية نادرة . سيئة « فهو مهمل شأنه فى ذلك شأن كافة المدن الساحلية التابعة اسما للدولة العثمانية . وذكر أن البلدة تفتقر للمياه العذبة والمبانى المستقرة والمنشئات الصحية الدائمة بالإضافة لافتقارها لمن يدير شئونها ويحفظ الأمن ويضع حداً للنزاع بين القبائل ، وأشار إلى أن الإنجليز بعــدن يعتبرون العقبة الكؤود التى تعترض بسط الحكومة المصرية لنفوذها فى هذه الجهات .

وقد زار بربرة قبل امتداد الإدارة المصرية إليها الرحالة الانجليزى برتون وكتب عنها فى كتابه : "First Footsteps in East Africa"

ولهذا الكتاب أهمية خاصة إذ أنه لم يكن قد سبق لرجل أبيض أن زار هذه الجهات ، لأن أهلها كانوا لايسمحون لأوروبى بأن تطأ قدمه أرض بلادهم ، وقد ذكر برتون أن بربرة يسكنها جنس من أخطر الأجناس وأنه رغم أنه كان متخفياً فى ثياب تاجر عربى إلا أنه لاقى الأمرين ومع ذلك فقد

استطاع أن يزور زيلع ، بربره ، هرر ، وأن يصف حياة البيكان ومعيشتهم وعاداتهم فى هذه الجهات وصفاً دقيقاً مستفيضاً ، وذيل كتابه بالمذكرات والمعلومات التى كتبها الرحالة السابقون الذين حاولوا النزول لساحل أفريقيا الشرقى من أمثال (سبيك) ، « وباركر » . هذا بالإضافة للملاحظات وتسجيلات مناخية وشروح لقواعد اللغة الهررية وهى لغة ساحلية خليط من العربية وغيرها من لغات القبائل التى وفدت على هذه الجهات واندمجت فى القبائل العربية التى استقرت هناك ، مع مجموعة من الألفاظ الانجليزية وما يقابلها من هذه اللغة الهررية .

وقد نصح برتون انجلترا فى مقدمة كتابه باحتلال هذه البلاد وعدد الأسباب التى من أجلها يرى لزوم ذلك ، ولم ينس وهو يختم كتابه أن يعيد ترديد هذه النغمة الاستعمارية .

والمهم أن كل ما كتب عن حالة بربرة قبل الإدارة المصرية يوضح حالة الفوضى التى كانت تعانيها وحاجتها الماسة لتنظيم كافة النواحى بها ، كما يوضح اتجاه الأطماع الاستعمارية إليها .

ولما امتد التنظيم المصرى إليها بدأ العمران يدب فيها . فقد عين رضوان باشا من رجال البحرية المصرية محافظاً لإدارة شئونها فاهتم بتعمير هذا الميناء الفريد وشرع فوراً فى إقامة المبانى اللازمة : كديوان للمحافظة ، وبناء للكمرك ، ومستشفى وجامع ، وقره قول ، ومخزن لتخزين الفحم .

وكان المتبع أول الأمر أن يشرف على الناحية الصحية طبيب الوابور الراسى فى الميناء ولكنه رؤى ضرورة وجود طبيب مقيم ليرعى الناحية الصحية بالبلد فقد يقوم الوابور لجهة أخرى فتحرم البلد من وجود طبيب بها . ولهذا عين طبيبان ليقيم أحدهما فى بندر (بربرة) والآخر فى (دوبار) وهى ميناء صغير لا يبعد كثيراً عن بربرة .

ومن أمجد المشاريع التى تذكر للمصريين بالفخر فى تلك البلاد مشروع

توصيل المياه العذبة من (دوبار) إلى (بربرة) ، وقد أُرسل مهندس مختص لدراسة هذا المشروع ، والاشراف على تنفيذه ، وتم المشروع وافتتحه المحافظ المصرى (رضوان باشا) بحفل عظيم حضره عدد كبير من التجار ومن عقال القبائل ، وبعض السومال وضباط الجهادية والبحرية وبلغ طول خط المواسير التى مدت من الدوبار لبربرة ١٢,١٢٣ مترا .

ولما وصلت المياه لبربرة مدت منها فروع للجامع ، والمستشفى ، وديوان المحافظة ، والجمرك . ومع أن سكان بربرة من السومال كانوا يدينون بالإسلام فقد كانوا يجهلون التعاليم الأساسية للدين الإسلامى ، ولذا أُرسل أحد مدرسى الجامع الأزهر وهو الشيخ محمد بيومى الحنفى ليجتمع بالقاضى والمفتى فى هذه الجهات ليوضح لهما المبادئ الأساسية للشريعة الإسلامية ثم يعود بعد ذلك لمصر ، إذ أن الحكومة المصرية كانت ترى من الأوفق بقاء قاض ومفت من أهل البلاد لمعرفتهما بأخلاق الأهالى وعاداتهم .

وقد كان المحافظ المصرى — كما ذكر فى تقاريره — يداوم المرور داخل وخارج بربرة ليطمئن على أن الأمن مستتب ، والطرق آمنة ، وأدى ذلك إلى أن يترك السومال ما كانوا قد اعتادوا عليه من السلب والنهب والقتل وقطع الطرق وكانت الأوامر الصادرة للمحافظ أن يستعمل الحزم مع اللين فلا شدة قاسية ولا تساهل مطلق .

ولما كانت بربرة بطبيعتها ميناء تجارياً فريداً صالحاً لرسو السفن ويحميه من العواصف لسان من الأرض بحيث تصبح السفن الداخلة فيه فى مأمن من غوائل البحر وتقلب الجو ، فقد شجع ذلك الحكومة المصرية لأن تعنى عناية خاصة بإعداد الميناء وتزويده بحاجته من جميع النواحى ليكون أكثر أمناً وأفضل صلاحية لاستقبال السفن .

وقد زار (مكليوب باشا) رئيس عموم الفنارات والموانى ، ميناء بربرة وعين الأماكن الملائمة لإقامة فنار لهداية السفن وأسكلة لتسهيل الشحن والتفريغ

وقد استوردت الأدوات اللازمة لهما وأرسلت لبربرة فور وصولها لتركيبها .

وحرصت الإدارة المصرية على تنظيم عملية البيع والشراء وضبطها حتى تستقر أمور التجارة وتزدهر ولذا أرسلت الموازين والمكاييل من مصر لتوحيد الوزن والكيل ؛ كما وحدت العملة المستعملة ، وكانت الأمور تسير من قبل بطريقة مضطربة غير نظامية . وأدت هذه الاصلاحات إلى اتساع نطاق التجارة واستقرار القبائل بالمدينة بعد أن كانت لا تبقى بها إلا مدة الموسم فقط (وهى تمتد من اكتوبر إلى مارس) .

ورغم ما بذلته الحكومة المصرية من جهد وما صرفته على بربرة لاصلاحها وما كانت تتكبده سنوياً للمحافظة على الأمن بها وإدارتها ، فقد اضطرت تحت ضغط الحكومة الإنجليزية لعدم تحصيل جمارك بجهة بربرة ، وذلك لأن أغلب علاقاتها التجارية كانت مع عدن ، كما اضطرت أيضاً لأن تفتح ميناء (جوطار) للتجارة وهو ميناء صغير لا يبعد عن بربرة إلاّ مسافة ٤٠ ميلا وفتحه واعداده كميناء للتجارة كان يكبد الحكومة المصرية مصاريف باهظة ، وقد رأى غوردون نفسه عندما تولى حكمدارية السودان عدم عدالة هذه الأوضاع .

ورغم أن وجود إدارة مصرية منتظمة فى بربرة وقيام مواصلات مستمرة بينها وبين عدن وباقى موانى البحر الأحمر قد أدى خدمات جليلة للإنجليز فى عدن فانخفضت أسعار اللحوم والمسلى بها وأصبحت متوفرة طول العام بعد أن كانت تنقطع فترة طويلة منه ، إلاّ أن انجلترا كانت تتحين الفرص لتضع يدها على أملاك مصر فى هذه الجهات ولعلها كانت تنتظر حتى يدوس المصريون بها الأشواك بأقدامهم ويمهدوا لها الطريق ويذللوا العقبات ثم تتسلم هى هذه الموانى والبلاد ، والدليل على ذلك الزيارات المتكورة لبربرة من قبل (القبودان هنتز) القائد البحرى الإنجليزى بعدن ، وما بدا من أحاديثه وأحاديث حاكم عدن للمسئولين المصريين بها ؛

وفى يوليه ١٨٧٥ صدر فرمان بإحالة ميناء زيلع الذى كان خاضعاً للسلطنة العثمانية ومحوّلة إدارته إلى سنجق الحديدة ، للإدارة المصرية مقابل دفع ١٥,٠٠٠ خمسة عشر ألف ليرة عثمانية سنوياً .

وقد قام رضوان باشا باستلام الميناء المذكور وصدر الأمر (لمتزنجر) بك محافظ شرق السودان وسواحل البحر الأحمر بالتوجه لهذه الجهات أيضاً والوقوف على حالتها من جميع نواحيها وتقديم تقرير عنها ، كما صدر الأمر لرؤوف باشا الذى كان فى معية غوردون باشا فى استكشاف جهات خط الاستواء ، بإحالة هذه الجهات لعهدته وكلّف بالتوجه إليها وكتابة تقرير عما يراه لازماً لها من وجوه الإصلاح .

ولدينا بالاضافة لهذه التقارير المتعددة وصف كامل لحالة زيلع كتبه الرحالة الإنجليزى برتون الذى أشرنا إليه سابقاً ، فى عام ١٨٥٤ . فذكر أن مساحة زيلع تقرب من مساحة السويس وعدد سكانها يتراوح بين ٣,٠٠٠ ، ٤,٠٠٠ نسمة ومع ذلك فالمبنى من منازلها بالحجارة لا يتعدى ١٢ منزلا والباقى عبارة عن عشش صغيرة من القش والجبس ، ومنازل الأثرياء مفروشة بالحصير ، ويدخلها النور والهواء من منافذ صغيرة وهى مليئة بالخفافيش التى يتركونها تأوى إلى منازلهم لأنها تخلصهم من الذباب والبعوض . وأما طرقاتها فمتربة وغير منتظمة فليست هى بشوارع بالمعنى المعروف ، وذكر أن المياه العذبة غير متوفرة بالبلدة مما يتسبب عنه بعض الأمراض للسكان كالحمى وغيرها التى تنشأ بسبب رداءة مياه الشرب ، إذ أن الآبار العذبة تبعد عن زيلع بأربعة أميال تقريباً ، وأما زيلع نفسها فآبارها كلها غير عذبة ولا تصلح للشرب ، وهذا هو سبب عدم وجود خضروات بالبلد .

وفضلا عن تأثير ذلك على الحالة الصحية فإن الأمراض تنتشر بسبب البعوض والذباب .

وقد عنيت الإدارة المصرية بأمر زيلع شأنها فى ذلك شأن كافة بلاد السواحل التى خصصت لها . وقد جعل أبو بكر شحيم حاكم زيلع السابق محافظاً لها لمعرفتـه بحالة البلد والسكان وعوائدهم لكن عين وكيل للمحافظة من الملمين بالقوانين والأحكام وأرسل عبد القادر باشا مأمور ضبط مصر للإشراف على الأعمال العاجلة اللازمة للمحافظة . فأشرف على تشييد المبانى اللازمة لديوان المحافظة الكمرك والمستشفى وأماكن لإقامة العساكر ، ومخازن . وأسكلة لتيسير عملية الشحن والتفريغ .

وقد كانت الأحجار وبعض الأخشاب متوفرة فى زيلع نفسها فاستخدمت فى هذه المبانى ، كما اشتغل فيها الصناع من الجنود .

وقد بحثت مسألة امداد زيلع بالمياه النقية ولما لم يتيسر القيام بمد مواسير المياه للبلدة من الآبار البعيدة عنها ، كما عمل المصريون فى بربرة وغيرها من موانى البحر الأحمر التى دخلت تحت الإدارة المصرية ، أرسلت عدة عربات من بهر لاستخدامها مؤقتاً فى نقل المياه النقية للبلدة ، وأرسلت دواب النقل اللازمة لجرها .

وعنيت الحكومة أيضاً بتأمين الطرق من زيلع لهرر ليأمن التجار والمترددون على هذه الجهات على أموالهم وأرواحهم ، وقد بذلت جهود جبارة لتوسيع الطريق الرئيسى الذى تسلكه التجارة من هرر لزيلع وأدخلت الحكومة النقد وعممت استخدام الموازين والمكاييل ، وأدى هذا كله لرواج التجارة .

وقد أنشئت مصلحة تابعة لنظارة الزراعة والتجارة بمصر عرفت باسم مصلحة الملح والنطرون ، على أن تتبعها الملاحات الموجودة بسواحل البحر الأحمر ، وعين موظفون من قبل هذه المصلحة لتنظيم استغلال ملاحات زيلع البالغ عددها خمسة . وبحثت الوسائل التى بها يمكن مضاعفة المستخرج من الملح والمباع منه . وأرسلت عينات منه للخارج .

ومن الوسائل التى اتبعت لترويج ملح زيلع بالذات تخفيض سعره إذ روعى أن هذا أدعى لمضاعفة تصريفه .

ولما أشيع عن وجود الفحم بزيلع أرسل لمحافظها ليحث الأهالى سواء بالترغيب أو التخويف للإرشاد عن مكان وجود هذا المورد .

أما من الناحية الصحية فقد كانت عناية الإدارة المصرية بها بالغة فشيد بها مستشفى ورتب له الأطباء والممرضون وغيرهم من الموظفين ، ولما أظهر الأهالى عدم ثقتهم فى (الحكيمباشى) الأوروبى المعين لهذه الجهة استبدل بغيره من المصريين .

ولانتظام اتصال هـــذه الجهة البعيدة بمصر وبغيرها من موانى البحر الأحمر رتبت خطوط ملاحية منتظمة بين بربرة وعدن وزيلع وبينها وبين السويس ووضعت لها جداول دقيقة ، وقد وجدنا فى محافظ اليد بالمحفوظات التاريخية بعض هذه الجداول مرتبطة بطريقة تدعو للدهشة والإعجاب .

ورغم أن الإدارة المصرية فى زيلع وضعت نصب أعينها أن تسهل أمور محافظة عدن فى تلك الجهة وتقدم لها كل التسهيلات والمساعدات الممكنة فان الانجليز لم ينظروا بعين الارتياح لوجود المصريين فى هذه الجهات .

ولما أحيلت زيلع للإدارة المصرية ، اتجهت الأنظار إلى جهة (تاجورة) القريبة منها فقد ألحقت أدارتها بجهة زيلع ، وأهمية تاجورة ترجع إلى أنها المنفذ للأقاليم الداخلية .

ومن زيلع خرجت حملة مصرية بقيادة محمد رءوف باشا لفتح سلطنة هرر ، وهرر سلطنة إســـلامية مستقلة أسسها جماعة من العرب هاجروا من الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى .

وقد زارها الرحالة برتون قبـــل الحكم المصرى ، وكانت فى ذلك الوقت تحت حكم الأمير عبد الشكور وقضى بها عشرة أيام وتحدث باسهاب عن الطريق من زيلع لهرر ، والقبائل التى تسكن هذه الجهات ، وهى ترجع فى أصلها إلى قبيلتين كبيرتين هما : السومال ، والجالا .

ومن اللذين زاروا هرر أيضاً الرحالة النمساوى (فيليب بولتشكة) وقد

زارها فى حماية ورعاية الإدارة المصرية ، ووصف حالتها قبل الحكم المصرى وما أدخله المصريون من ضروب الإصلاح ، كما أن من أحسن ما كتب عنها التقرير المقدم من هيئة أركان حرب الجيش المصرى التى قامت بفتحها فقد شمل كل ما يتعلق بالمدينة وسكانها .

وقد كان الحكم المصرى لهذه الجهات حكماً مستنيراً قائماً على أساس تعرُّف حالة السكان وحاجاتهم المختلفة وتدارك هذه الحاجات . فقد أرسلت الحكومة المصرية لرؤوف باشا بمجرد فتح هرر خطاباً تستفسر فيه عن حالة هذه الجهات وسكانها من جميع النواحى لمعالجة أوجـــه النقص ، ورد رؤوف باشا على هذا بتقرير وا ف عن هذه الجهات .

وأرسلت الحكومة المصرية مهندسين من رجال الجهادية لرسم خرائط لدرس وتعيين أماكن المبانى الهامة اللازمة لها — وأصدرت الحكومة فرماناً للأهالى تعهدت فيه بنشر التعليم ، والعمل على استتباب الأمن ، والاهتمام بالمرافق العامة ، والنهضة بالزراعة والتجارة والصناعة .

وقد أوفت الحكومة بوعدها ففتحت عدة مدارس صغيرة لتعليم مبادئ القراءة والكتابة والفقه على المذهب الشافعى ، وقد تفقه بعض السكان فى علوم الشريعة ، وأدى ذلك للقضاء على الشوائب المخالفة للدين الصحيح فأصبحت أحكام الشريعة الإسلامية الغراء هى النافذة .

كما اهتم رؤوف باشا ، حكمدار عام هرر وملحقاتها بترغيب السكان فى الزراعة . خاصة زراعة البن التى كانت تجود فى هذه الجهات ، لكن أمراء هرر كانوا يحرمون زراعتها على السكان . وقد أرسلت من مصر بذور الحنطة والخضراوات والفاكهة والقطن والذرة لتجربتها وحث الأهالى على زراعتها .

واهتم رؤوف باشا بتأمين الدروب ، والضرب على أيدى قطاع الطرق فاستتب الأمن بعد أن كانت القوافل تعانى الكثير فى الطريق ، وكان التجار

يضطرون لأن يبذلوا بسخاء لاسترضاء رجال القبائل التي يمرون بها في كل مرحلة من مراحل الطريق ليأمنوا على أنفسهم وتجارتهم ، وكان ذلك في الماضي سبباً في تدهور التجارة فأقفرت أسواق هرر من البضائع واضمحلت تجارتها .

وعمد رؤوف باشا لإقامة المحطات في الأقاليم والجهات الهامة التي تطرقها القوافل فعملت محطة في (جلديسه) وأخرى في (دارفى) على أن يقيم في كل خمسمائة عسكري .

وقد نظم النقد المتداول في هرر ، وحددت قيمته ونبه على رؤوف باشا بعدم تحصيل أي جمارك أو عوائد خلاف ما اعتاد الأهالي دفعه . وقد رفضت الحكومة المصرية الأخذ برأي رءوف باشا فيما يختص باحتكار التجارة في بعض البضائع المعتاد تصديرها ببلاد العرب أو فيما يختص باستخدام الحكومة لطريقة المبادلة في التجارة مع الأهالي بدلا من طريقة النقد .

ولم تقتصر عناية الحكومة المصرية على تأمين الطريق بين زيلع وهرر وبينها وبين بربره بل عنيت أيضاً بتوفير وسائل المواصلات السهلة التي تربط هرر بالجهات الأخرى فأصبحت — أي هرر — متصلة بالجهات المجاورة بطرق برية آمنة ، وبالعالم الخارجي بخطوط ملاحية منتظمة ، وأصبح البريد يرد إليها ومنها بانتظام تام .

وقد شجع رؤوف باشا بعض شبان الصومال على مرافقة رجال الجيش من الصناع ليتعلموا منهم صناعة البرادة والحدادة وغيرها من الصناعات . وازدهر في هرر نوع من الأقمشة . وليكون قدوة لغيره من الموظفين والأهالي فصل رؤوف باشا لنفسه حلتين من هذه الأقمشة ، كما حرم على الجنود شراء أي شيء من غير أسواق هرر نفسها حتى تزدهر الحالة الاقتصادية بها .

وقد أشار دور بك عضو الجمعية الجغرافية المصرية في تقرير قدمه عن هرر بعد زيارته لها ، ونص هذا التقرير موجود في المحفوظات التاريخية ، إلى نشاط الحالة الاقتصادية بها .

وقد كان أهالي هرر يحصلون على المياه الضرورية لهم من الغدران البعيدة.

عن المدينة ، فحفر رؤوف باشا قناة لجلب المياه للداخل المدينة ليوفر على الأهالى الجهد ويدرأ عنهم ما كانوا يتعرضون له من مخاطر .

وفى سبتمبر ١٨٧٥ أى فى الوقت الذى كان فيه رؤوف باشا فى طريقه لفتح هرر كانت حملة أخرى بقيادة (ماكيلوب باشا) مدير الموانى والمنارات المصرية قد أقلعت من ميناء السويس قاصدة فتح باقى بلاد السودان الجنوبى ، والوصول إلى مصب نهر الجب ، وكان بمعية ماكيلوب باشا فى هذه الحملة عبد الرزاق بك ورضوان باشا و (شابيه لونج) .

وهذا الأخير من الضباط الأمريكين ، وقد دخل خدمة مصر سنة ١٨٧٠ ومما يذكر له أنه ظل مخلصاً لمصر حتى بعد انتهاء خدمته بها ، فكتب عدة كتب دافع فيها عن حقوق مصر فى السودان من أهمها كتابه (مصر ومديرياتها المفقودة) ، وكتابه (أفريقيا الوسطى) وأيضاً (الأنبياء الثلاثة ، غوردون ، المهدى ، عرابى) :

وقد وصلت الحملة المصرية إلى (رأس حانون) ، (وبراره) ، (قسمايو) عند مصب نهر الجب واحتلت هذه الجهات ، وبدأت العمل لتعميرها .

وقد كانت التعليمات تقضى بأن تتجه الحملة غرباً بقصد ارتياد الطريق من الساحل لمنطقة البحيرات الأستوائية لكى تتصل مصر بأملاكها فى هذه المنطقة عن هذا الطريق ، طريق البحر الأحمر والمحيط الهندى ، وكانت السياسة مرسومة على أن تتخذ نقط على الساحل وتمهد منها الطرق للداخل سواء الطرق البحرية أو الحديدية أو البرية .

ولهذا الغرض بحثت مسألة مد السكة الحديد من سواكن إلى بربرة ، أو من سواكن إلى شندى ، ومن مصوع إلى كسله ، وكان الاتجاه إلى تنفيذ نفس الأمر فيما يختص بالاتصال بالمديرية الاستوائية عن طريق خط حديدى يمر من الساحل .

وكانت الأوامر الصادرة لغوردون باشا أن يبادر للاتجاه شرقاً لمقابلة الحملة وتيسير مهمها ، لكن كما صرح غوردون نفسه أنه لم يكن فى نيته تنفيذ هذا الأمر ، وقد علق « شابيه لونج » على ذلك بأنه لعله راجع لتعليمات صدرت لغوردون من الحكومة الإنجليزية .

وقد أخذ المصريون بمجرد أن خضعت لهم هذه الجهات الساحلية يعملون على تعمير هذه الجهات والعمل على استتباب الأمن بها ويجرون الصلح بين القبائل المتنافرة التى كان النزاع المستمر فيما بينها سبباً فى تعطيل الأعمال العمرانية الإنتاجية ، فلما بدأت الأمور تستقر وتصافت القلوب ، وشعر الأهالى بأن هناك قوة تصون الأهالى وتحفظ الأرواح والممتلكات أخذوا ، كما يقول رضوان باشا فى تقريره ، يتعاونون فى زراعة الحدائق وعمل الآلات الزراعية وغيرها ، لأن الأرض هناك على ساحل (نهر الجب) صالحة للزراعة ، فلم يكن من عائق يحول دون ذلك إلا تنافر القبائل وتطاحنها واستمرار الحروب بينها .

وأرسل (ماكلوب باشا) رئيس الحملة فى ٢ ديسمبر ١٨٧٥ إلى مصر كشفاً ببيان الأشخاص والمهمات اللازمة لتعمير المناطق التى أخذت بساحل أفريقيا الشرقى ، ويتضح من الكشف أن الحاجة كانت ماسة لعدد كبير من المهندسين والبنائين ، والنجارين والموظفين والفلاحين المهرة المتزوجين بنسائهم ، وبلغ عدد من طلبهم من الرجال الفنيين اللازمين لتعمير هذه الجهات ٣١٤ رجلا بمهماتهم وأدواتهم .

وهكذا أخذ العمران يدب فى هذه الجهات واتجه الكل للإنتاج والعمل .

ولما كانت التجارة فى هذه المناطق أغلبها عن طريق المقايضة لعدم تداول العملة فيها ، وطريقة المقايضة البدائية هذه لها من مساوئها وعدم ضبطها كما نعلم ما يقيد التعامل التجارى ويضيق نطاقه ، ويجعل سيره فى أفق محدود ، لذلك

فقد عمد المصريون إلى نشر استعمال العملة فى هذه الجهات لتنشيط التجارة ، وزيادة حركة التعامل بين الناس .

ولا شك فى أن روح التعمير والبناء وحث الأهالى على العمل والإنتاج والاهتمام بجلب الفنيين لمختلف الحرف والصناعات التى بدت من المصريين منذ اللحظة الأولى تعطينا فكرة عما كان ينتظر هذه الجهات من تقدم ورقى ونهضة لو قدر للحكم المصرى أن يظل بها مدة طويلة . لكن وقفت انجلترا فى وجه الانتداب المصرى فى هذه الجهات وأجبرت الحكومة المصرية على سحب حامياتها منها ، وقد عقد فى سبتمبر سنة ١٨٧٧ بين مصر وانجلترا معاهدة اعترفت فيها بسلطان مصر على بلاد السومال حتى رأس حانون .

هذا وقد كان طبيعياً أن تهتم مصر بتدعيم أسطولها فى البحر الأحمر لتمكنها من ربط هذه المناطق الشاسعة التى دخلت تحت حوزتها بعضها بالبعض الآخر ، ولذا فقد اتجهت الأنظار لعصب الحياة فى ترسانة الاسكندرية وتزويدها بحاجتها من الآلات والمواد الخام والفنيين ، وأنشئت بجوارها مدرسة بحرية عين لنظارتها (مكيلوب باشا) الذى أصبح فيما بعد رئيساً لمصلحة الموانى والفنارات ، وقد اهتمت الحكومة بأخبار طلبة المدرسة البحرية ، وبتعليمهم وبعثت بعدد كبير من الخريجين للبلاد الأوروبية لإتمام علومهم البحرية ، وأوصت مصر على عدد من السفن الحربية المدرعة لحماية أسطولها فى البحر الأحمر

لكن انجلترا لجأت لطريقتها التقليدية فأثارت مخاوف الدولة العثمانية من نتائج تقوية أسطول مصر البحرى فوقفت الدولة العثمانية حائلا دون تقوية مصر لأسطولها الحربى فاتجهت الجهود إلى ناحية أخرى هى تقوية شركات الملاحة التجارية التى تعمل فى البحرين الأبيض المتوسط والأحمر ، وقد أدت هذه الشركات الملاحية كالشركة العزيزية ومصلحة وابورات البوستة الخديوية أجل الخدمات للحكومة المصرية فى تنفيذ سياستها فى البحر الأحمر وموانيه .

وقد اهتمت مصر بإعداد موانى البحر الأحمر المختلفة للملاحة وأنشأت

الفنارات لهداية السفن ، فأصبحت الملاحة فى هذا البحر آمنة منتظمة وأصبحت للشركات الملاحية المصرية والأجنبية خطوط ملاحية متعددة فى هذا البحر وبواخر خاصة تقوم برحلاتها البحرية حسب جداول دقيقة معروفة .

هذه صورة بسيطة جداً لبعض الجهود التى بذلتها مصر فى البحر الأحمر وموانيه التى امتدت إليها الإدارة المصرية ، ومنها يتضح بجلاء أن مصر تعتبر أن رسالتها فى هذه الجهات هى التعمير والبناء والأخذ بأيدى السكان والنهوض بهم فى مختلف ميادين الحياة المدنية والثقافية والاقتصادية والدينية . ومن هنا يتضح البون الشاسع بين الامتداد المصرى فى هذه الجهات الأفريقية فى خصائصه ونتائجه ، وبين الاستعمار الأوروبى البغيض الذى كان دائماً لا ينظر لمصالح السكان الأصليين ، بل ينظر لمصالح البلد المستعمرة على أنها فى المرتبة الثانية فيضحى بتلك المصالح طالما كانت تتعارض مع مصالح المستعمر وأغراضه الابتزازية الاقتصادية أو مراميه السياسية .

ولذلك لم يكن عجيباً أن تنظر الدول الاستعمارية وبخاصة انجلترا بعين القلق لسيطرة مصر على هذه المناطق الهامة المطلة على البحر الأحمر . ورغم كل المحاولات التى بذلتها مصر لكسب رضا الدول الأوروبية ، وانجلترا بنوع خاص لنيل موافقتها بقدر الإمكان على المشروعات التى تقوم بها الحكومة المصرية فى هذه الجهات ، ورغم إلتجاء الحكومة المصرية لاستخدام عدد ضخم من الأجانب لتحقيق مشروعاتها على أمل أن يؤدى ذلك لكسب دولهم إلى جانب مصر أو على الأقل لضمان عدم اعتراضها على المشروعات المصرية فى منطقة البحر الأحمر ذات الأهمية الحيوية .

ورغم التسهيلات والخدمات التى ذكرنا أن الإدارة المصرية أدتها فى بربره وزيلع وغيرها ، لانجلترا والدول الاستعمارية الأخرى ، فقد ظلت تتحين الفرص لطرد مصر من هذه الجهات التى كانت قد بدأت تنعم بالحكم المصرى المنظم .

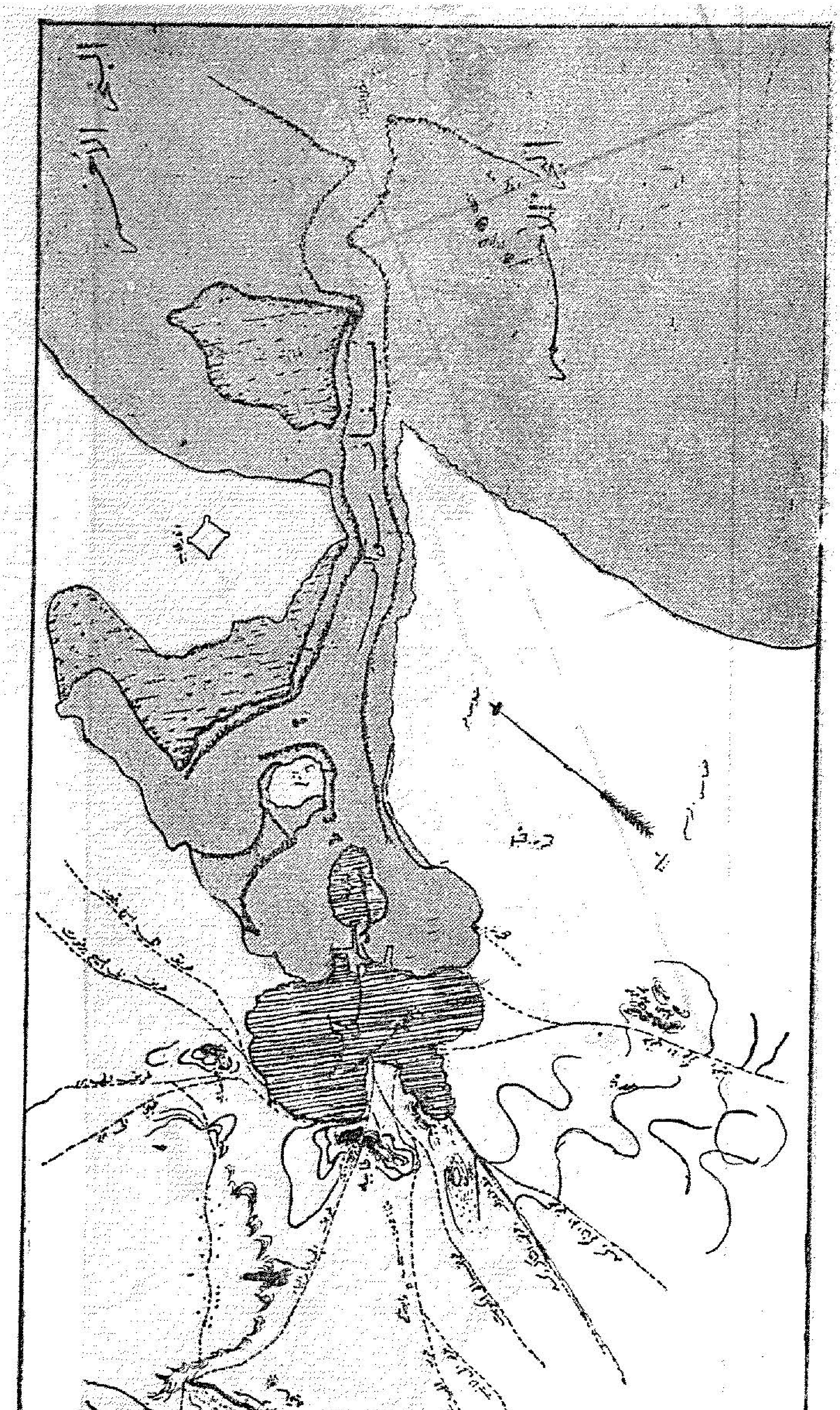

رسم تفصيلي لبندر سواكن

والطرق التي تربطه بمختلف جهات السودان ، وواضح فيه أماكن آبار مياه الشرب والطوابي . من رسم هيئة أركان حرب الجيش المصري سنة ١٢٨٩ ﻫ (١٨٧٣م) (الأصل بالمحفوظات التاريخية)

(٧)

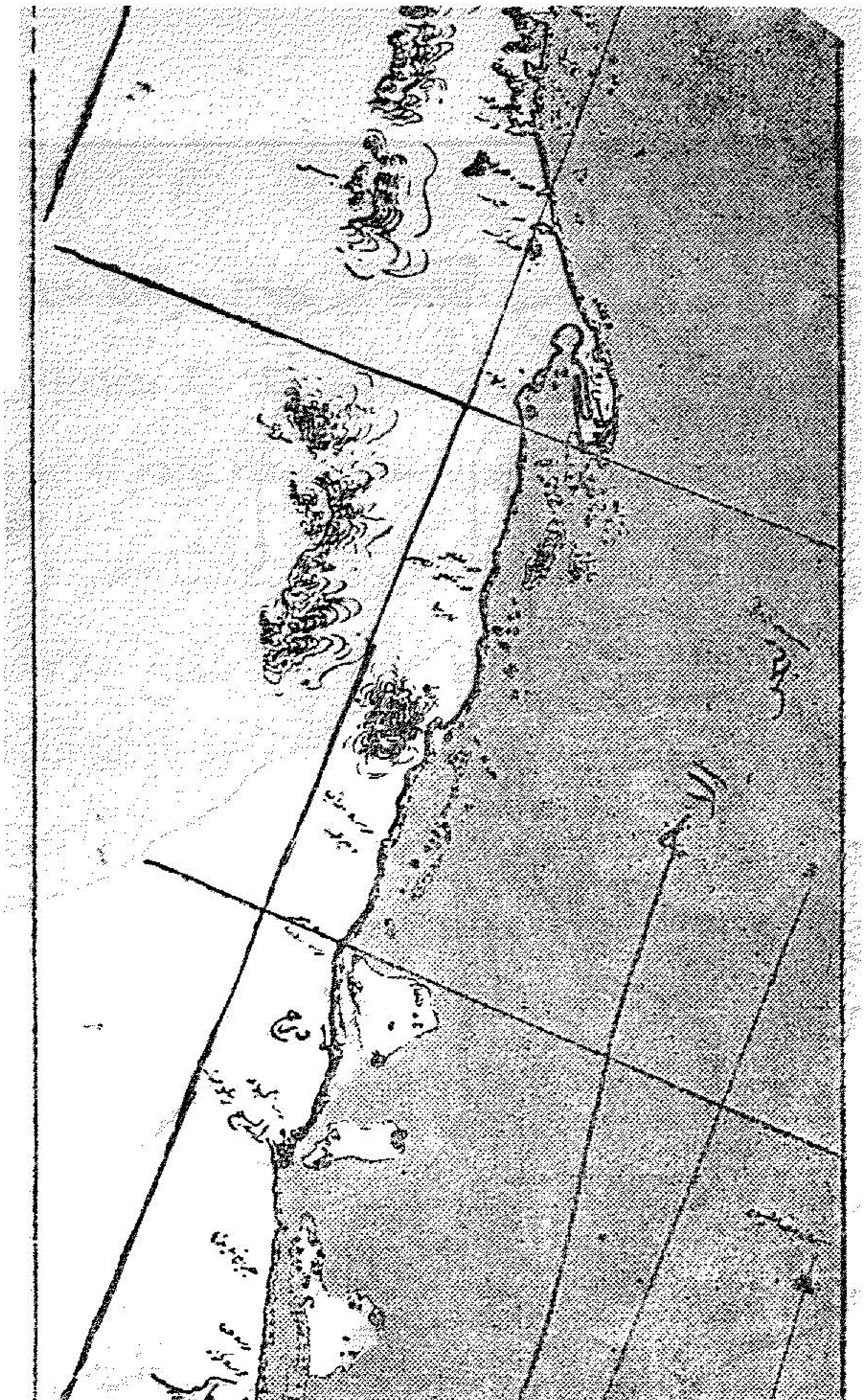

خريطة للمدن والموانئ الهامة على البحر الأحمر فى المنطقة المحيطة
بسواكن – شمالا وجنوبا – رسم هيئة أركان حرب الجيش
المصرى سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٣ م)

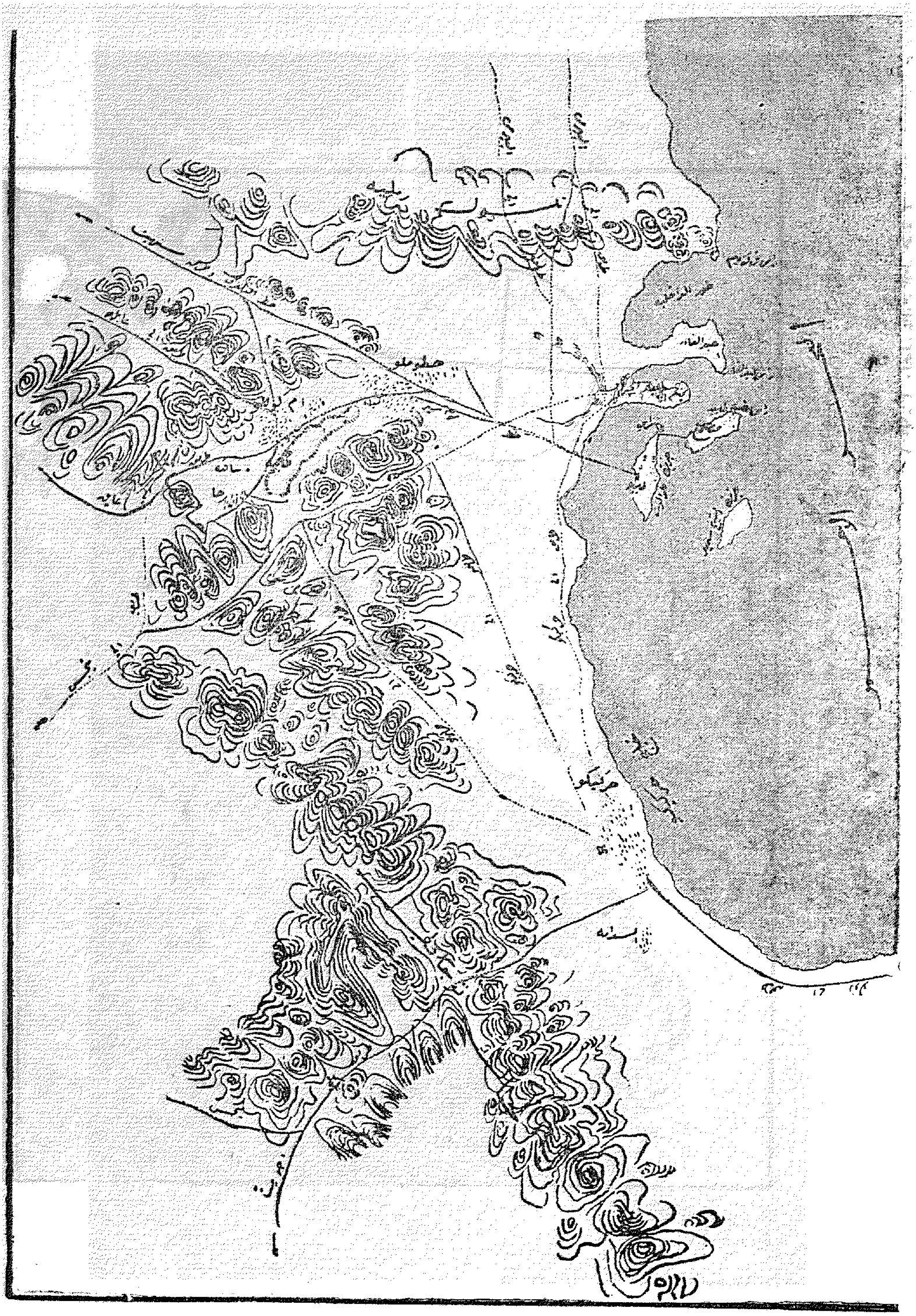

خريطة مصوع وما جاورها والطرق المؤدية إليها ، وخطوط التلغرافات التى تربطها بباقى جهات السودان .
رسم هيئة أركان حرب الجيش المصرى سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٣ م) (الأصل بالمحفوظات التاريخية

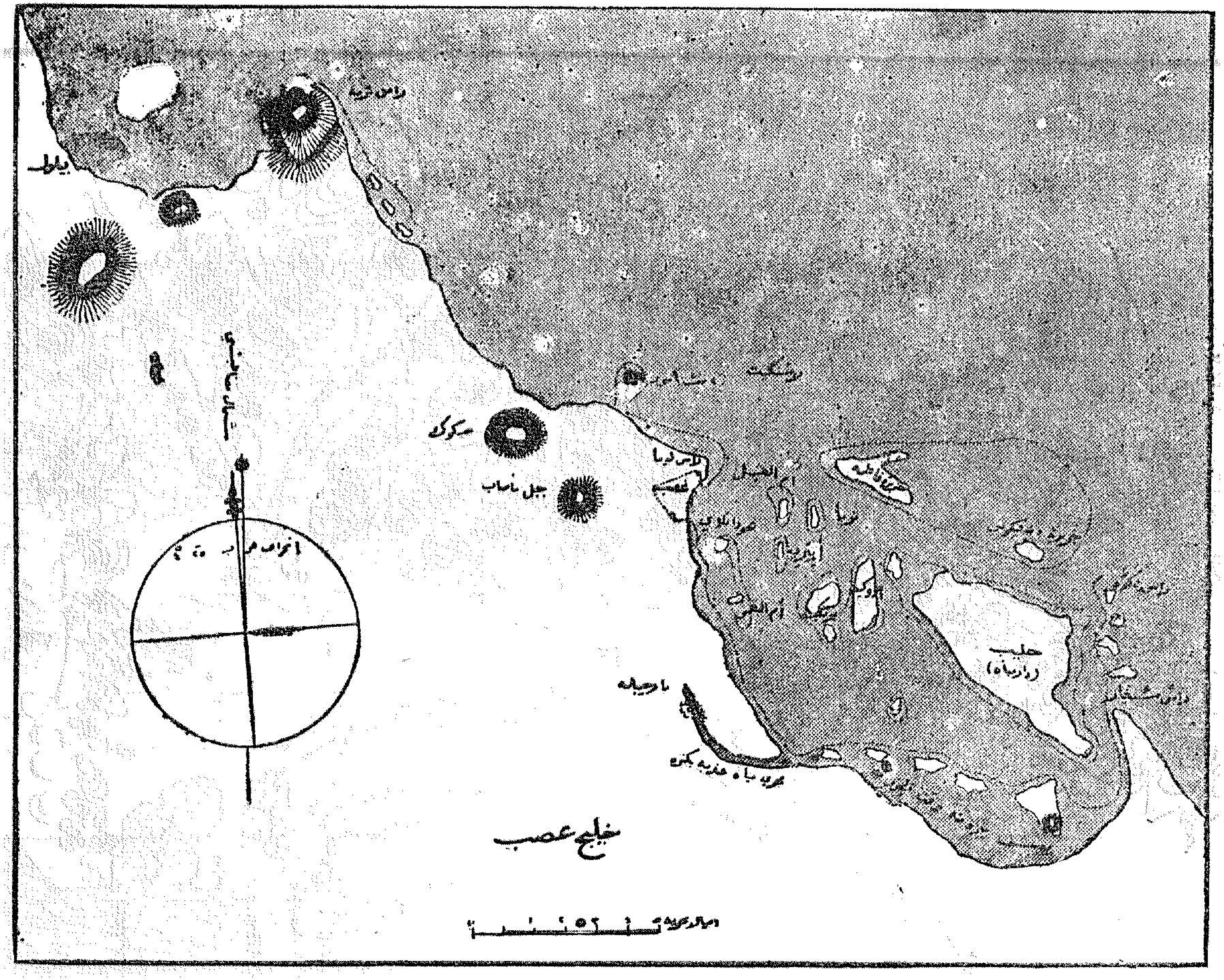

عصب وبيلول والمناطق المجاورة التى تعرضت لأطماع الأجانب ودسائسهم .
رسم هيئة أركان حرب الجيش المصرى سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٣م)

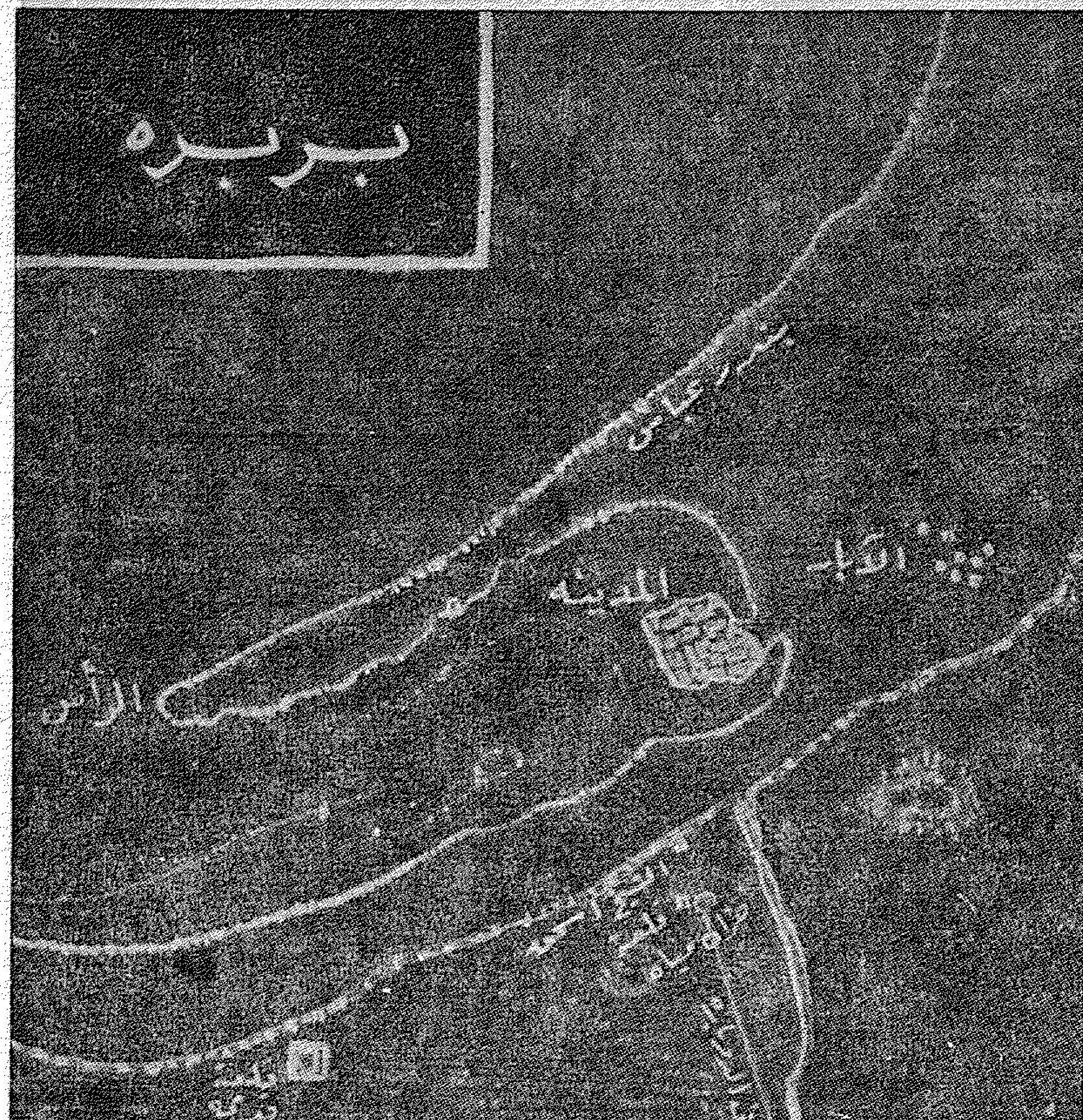

هذا الرسم عمل بالاستعانة بالخريطة التى وضعها الرحالة « برتون »
وبخريطة أركان حرب الجيش المصرى التى عملت بعد وضع هذه الجهات تحت الإدارة المصرية

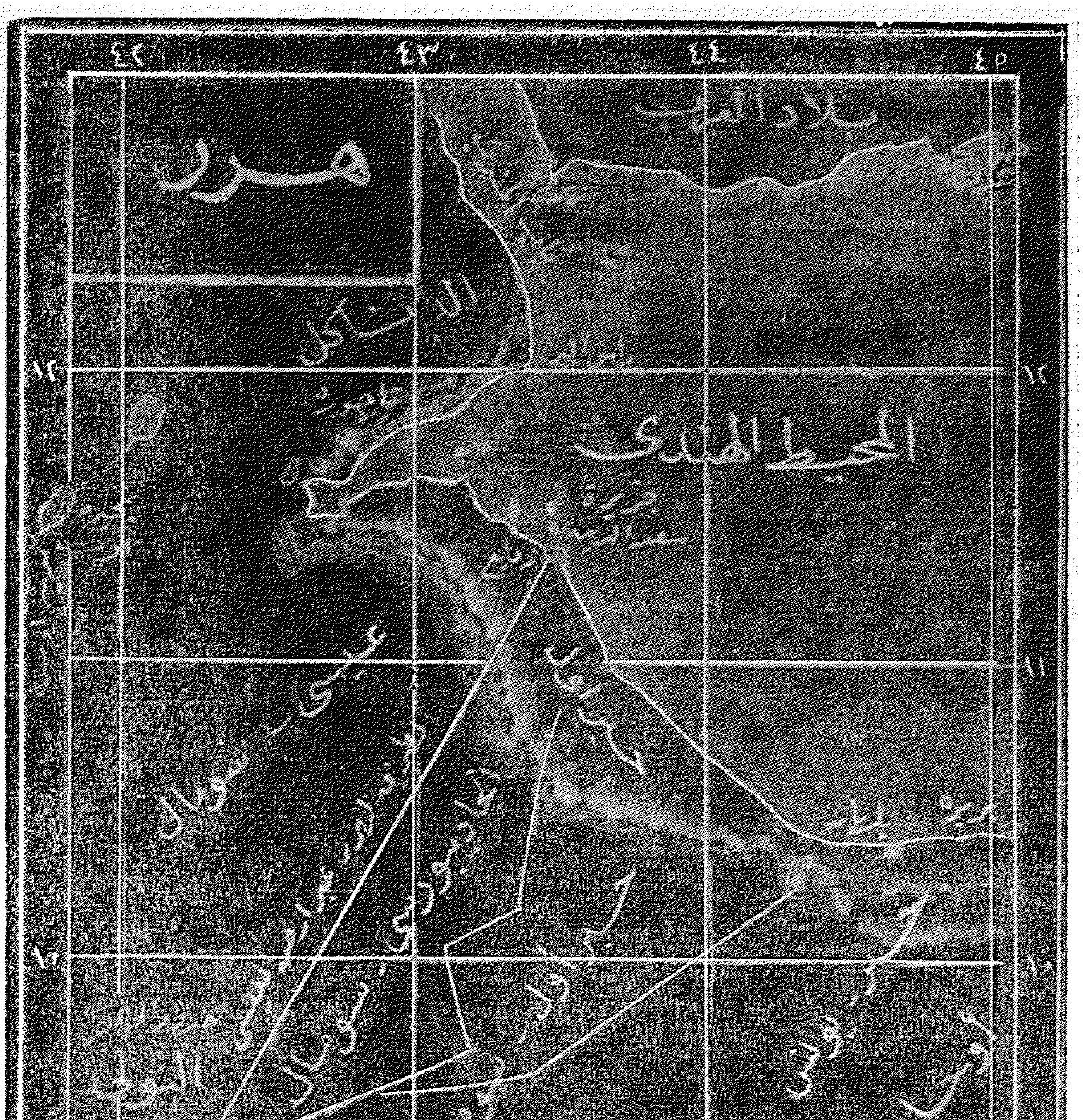

هذا الرسم عمل بالاستعانة بالخريطة التى وضعها الرحالة « برتون » وبخريطة أركان حرب الجيش المصرى التى وضعت بعد فتح هرر

(موضح بها موقع كل من تاجوره ، زيلع ، بلهار ، بربره — والطرق المؤدية من هذه الموانى لهرر والقبائل الموجودة فى هذه القبائل)

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة جناب المحب الاكرم الاجل الافخم المحترم خديوي مصر القاهرة

وبعد فانها عن الله ذاته واسعد ايامه واوقاته ان شاء الله السلام
عليكم ورحمة الله وبركاته وان تفضلت وعن المحب سألت فهو بحمد
ذي الجلال في حال الصحة والاستقلال لا زلت كذلك بالقادر
المالك والباعث لتحرير احرف المودة هو السؤال عن صحة حالك
واعتدال مزاجك اللذين هما غاية القصد والمراد من رب العباد
وعن اطرافنا هدو ساكنة الحركات ولا حدث ما يلزم رفعه لجنابك
الا الخير ونسأل الله دوام ذلك وعسى ان شاء الله كما جمعتنا القطعة
الافريقية والاخوة الاسلامية نجتمع ونفوز بالمواجهة
عن قريب ان شاء الله هذا واسأل الله لكم تمام النعم ودوام الصحة
والعافية وكل غرض يبدو لكم من طرفنا فالاشارة منكم [illegible] والسلام [illegible] برغش بن سعيد
٢ صفر سنة ١٢٩٢ [illegible]

صورة لخطاب من السلطان برغش سلطان زنجبار لخديو مصر فى (٢ صفر ١٢٩٢) ينبئه بأن كل شيء هادئ وأنه يرجو أن يجتمع به فى مصر — وذلك قبل زيارة السلطان لمصر وقد أعقبها حملة (ماكيلوب باشا) لإخضاع بعض جهات الصومال التابعة لسلطان زنجبار

(الأصل بالمحفوظات التاريخية)

المؤيد من الله يوحنا ملك ملوك الحبشة وما يليها

الي الامرا المكرمين الرؤسا المحبين ركلن بيك ورؤسا العساكر المصريه ضباط وشراميه بعد اهدا السلام عليكم والامنات الملوكيه البكم نعلمكم انه من الاصول الجاريه ما بين جميع ملوك العالم ما سرى هو انه لم احد يتعدي علي حارة في ادني شي من حدود الثانيه والان قد صار التعدي الكامل علي حدودنا ودوايرنا وكما انيلت مملكتنا ولاجل الصبر المرضي بوجه الله صبرنا الى هذا الان وما كنا هذا حتى كان ما نحن منتظرين حلت بنا الحروب وهذا كله من مشورة اناس اشرار الذين لم يتقوا الله ولا لهم راي بتدبير الممالك المعززه بامر الرب الحكيم فالان تعداكم حدودنا وحصولكم في بطن مملكتنا الضعيفه ليس بجهل انفسكم بل كما ذكرنا عن الامانات وعهد الله بنفسي وجميع علب انفسكم ومالكم وشرع واحد لا تنهلك من روحكم فلاجل خاطركم وخدلكم مملكتنا وصارت لنا بينكم قانون بدون تسليم الاسلحه وان احببتم الجلوس بحضرتنا فيكون لكم الراحه الكاملة واذا احببتم التوجه الي محل وطنكم فلكم ذلك تشيع العساكر اياكم بلا ضرر ولا مشقه ومكلاي هذا الشاهد على الله المالك الكل مع عزيمة الصادق في الافاده خبر والسلام ختام 9 هنور ١٨٦٨

يحظى بمطالعة جنابنا الاكرم الافخم المحترم اسمعيل باشا خديو مصر القاهره وضافاتها حرس الله ذاته آمين

His Highness the Viceroy of Egypt

Egypt

SUEZ MR 28 75

صورة لمظروف خطاب مرسل من الملك يوحنا ملك الحبشة للخديو إسماعيل بمناسبة الحشود التى تجمعت فى مصوع استعداداً لحملة أرندروب بك – وقد وصل الخطاب عن طريق السويس فى ٢٨ مارس ١٨٧٥ (الأصل بالمحفوظات التاريخية – ونفس الخطاب أشرنا إليه فى البحث)

وقد أتاح التدهور الاقتصادى والسياسى الذى انتاب مصر منذ أواخر عهد اسماعيل ، فرصة ذهبية لتحقيق هذه الأطماع . ولعبت السياسة الإنجليزية دوراً عجيباً ملتوياً لتحقيق أطماعها هذه فهى تارة تجبر مصر على إخلاء أقاليم مطمئنة هادئة من ممتلكاتها بحجة الارهاق المادى الذى تسببه إدارة مصر لهذه الأقاليم للخزانة المصرية المرهقة ، وذلك بالطبع ليتيسر لها وضع يدها على هذه الأقاليم .

وتارة أخرى تتذرع باسم حق مصر الشرعى فى ممتلكاتها لتقصى دولة استعمارية منافسة أخرى .

ومرة ثالثة تسلم أملاك مصر لدولة حليفة أو قليلة الخطر حتى تتحين الفرص المواتية لتضع يدها على الفريسة .

وهكذا لم يأت عام ١٨٨٤ حتى كانت الدولة الاستعمارية قد اقتسمت أملاك مصر فى السودان الشرقى ، وشرق أفريقيا ، وكان نصيب انجلترا وحليفتها إيطاليا فى ذلك الوقت ، نصيب الأسد من أملاك هذه الفريسة المغلوبة على أمرها .

فأخذ الأيطاليون بمعاونة الإنجليز يمتدون من منطقة « عصب » التى اتخذوها كمسمار جحا فوضعوا أيديهم سنة ١٨٨٢ على مصوع كما احتلوا (بيلول) وبسطوا سلطاتهم على المنطقة كلها الممتدة من رأس نصار (جنوب سواكن) إلى (أويوك) وفى مارس ١٨٩٠ صدر مرسوم إيطالى ينظم أمر هذه الممتلكات الإيطالية على البحر الأحمر التى سميت فى المرسوم باسم (ارتريا) .

على أن هذا النصر العجيب أسال بالطبع لعاب الإيطاليين فتطلعوا لغنيمة أخرى وكانت أطماعهم متجهة للحبشة . ولتحقيق هذا الهدف فكر الإيطاليون فى احتلال ساحل السومال إذ أن هذه الجهات كانت المنفذ الجنوبى لبلاد الحبشة فباستيلائهم عليها يستطيعون تطويق الحبشة من الجنوب وبذا يقفلون الطريق أمامها للمحيط الهندى كما أغلقوا طريق البحر الأحمر باستيلائهم على الموانى التى كونوا منها مستعمراتهم فى أرتريا ، واستطاعت إيطاليا أن

تتفق مع صديقتها انجلترا فى سنة ١٨٩١ على رسم حدود منطقة النفوذ الجنوبية هذه . والطريف أن انجلترا سمحت لإيطاليا بوضع يدها على موانى (برارة) ، (نفدشيو) وهى الموانى التى أرغمت المصريين على إخلائها ، وحاولت إيطاليا بعد ذلك أن تضرب ضربتها المنتظرة على الحبشة، لكن هزيمتها المشهورة فى عدوة ١٨٩٦ وضعت حداً لكل هذه الأحلام الاستعمارية الجميلة .

أما انجلترا فقد وقع اختيارها من أملاك مصر على الجهات المقابلة لعدن على البر الثانى فقد أجبرت مصر سنة ١٨٨٤ على إخلاء بربرة وبلهاز وزيلع واحتلتها هى وكونت منها ما سمى بالسومال الإنجليزى .

أما هرر فقد أجبرت انجلترا مصر على إخلائها فى مايو سنة ١٨٨٥ وتسليمها للأمير عبد الشكور بن أمير هرر السابق . ويبدو أن انجلترا كانت تعتبر هذا الإجراء إجراء مؤقتاً حتى تتاح لها الفرص بوضع يدها عليها وإدارتها لكن فى عام ١٨٨٧ زحف مفليك ملك شوا (ملك الحبشة فيما بعد) واستولى عليها ولا تزال فى يد الأحباش لليوم .

ولم تخرج فرنسا صفر اليدين من هذه القسمة فقد تذكر الفرنسيون أن هناك مسماراً آخر لجحا وكان جحا فى هذه المرة يستظل تحت الراية الفرنسية فقد تذكروا أن فرنسياً اشترى أو على الأقل ادعى أنه اشترى من أحد مشايخ القبائل ميناء (أوبوك) فى عام ١٨٦٢ ولم تهتم فرنسا بهذا الأمر لكن فى عام ١٨٨٢ حين فتحت مدافع الإنجليز التى كانت تضرب الإسكندرية آذان الفرنسيين وأبصارهم إلى التغيير المترقب حدوثه فى هذه المناطق الحيوية الهامة بادرت فرنسا إلى احتلال أوبوك وإلى التوسع منها للداخل ، فاستولت على (تاجوره) وعلى جبوتى وعلى غيرها من الجهات الساحلية القريبة . ولم يكن هذا غريباً فقد كانت هذه الجهات الخاضعة للنفوذ المصرى نهباً مستساغاً فى ذلك الوقت . وفى سنة ١٨٩٦ صدر مرسوم فرنسى بضم هذه الجهات تحت اسم (الصومال الفرنسى) .

هذه قصة إخلاء الإدارة المصرية لهذه الجهات ومأساة إخلاء هذه الجهات، ومبرراتها أو عدم مبرراتها، مسألة يطول الحديث فيها ويضيق هذا المجال عن التعرض لها، لكن يكفى أن أشير إلى أن السكان أنفسهم بهذه الجهات من وطنيين وأجانب أصيبوا بالذهول لما علموا بأمر إخلاء الإدارة المصرية لها، ووصل الأمر بالتجار الأجانب الذين استقروا بهرر وزيلع وبربرة وغيرها واستثمروا أموالهم هناك فى ظل الإدارة المصرية؛ أن قدموا لرضوان باشا الذى كان مكلفاً بإخلاء هذه الجهات عرائض ممضاة، ذكروا فيها أنهم لم يصدقوا النبأ حين وصلهم. أما وقد ظهر أنه حقيقى فإنهم يحتجون على هذا التصرف البعيد عن الحكمة وقدموا (بروتستو) على الحكومة المصرية يحملونها نتيجة إخلاء هذه المناطق الآمنة. ويذكرون أنهم لولا شعورهم بالأمن والطمأنينة لما نقلوا ثرواتهم وممتلكاتهم وعائلاتهم واستقروا فى هذه الجهات، وأن سحب الإدارة المصرية منها سيعرضها لعوامل الفوضى ويعرض حياتهم وأموالهم للأخطار، وهم يحملون الحكومة المصرية نتائج ذلك كله.

والغريب أن انجلترا أو غيرها من الدول الاستعمارية التى استولت على أملاك مصر لم تدفع أى تعويض عن المشروعات العمرانية والمبانى التى أقامها المصريون وصرفوا عليها آلاف الجنيهات خلاف الجهود المضنية، بل الأغرب من ذلك أن المصريين ظلوا يدفعون مرتب نائب القنصل الإنجليزى المكلف بإدارة هذه الجهات بل والإضافة السنوية التى كانت تدفعها مصر للدول العثمانية فى مقابل ضم زيلع ومصوع وسواكن حتى بعد إخلاء هذه الجهات واحتلال هذه الدول الاستعمارية لها.

هكذا طويت صفحة الحكم المصرى بهذه الجهات، ولا شك فى أن أى حكم محايد عادل لا يستطيع أن ينكر ما أدته الإدارة المصرية المنتظمة من خدمات لهذه البلاد وسكانها، ويستطيع أن يلمس البون الشاسع بين أهداف مصر واتجاهاتها وبين أهداف الاستعمار الأوروبى ومراميه ووسائله.

فلا شك فى أن هذه البلاد نعمت فى ظل الحكم المصرى بإدارة مستنيرة قفزت بها إلى مدارج الحضارة بخطوات واسعة ، ولو دام الحكم المصرى مدة أطول لتأصلت تعاليم الإسلام فى قلوب الأهالى ولقضت على كثير من الرذائل التى لا تزال منتشرة إلى اليوم .

وقد اعترف الرحالة النمساوى (فيليب يولتشكه) الذى زار هرر والجهات المجاورة لها فى نهاية الحكم المصرى ، بما نال هذه البلاد من الخير تحت أيدى المصريين .

وحتى الكتاب المغرضين من الإنجليز أمثال (جيمس) الذى زار هذه البلاد فى أواخر عهدها بالحكم المصرى ، وعاد إليها بعد أن أنزلت عنها الراية المصرية وكتب عنها كتابه "The Unknown horn of Africa" ، نستطيع أن نلمس فى أقواله الحقائق الصارخة التى حاول أن يخفيها أو يطمسها ، فقد ذكر مثلا أن السوماليين فى الحقيقة لا يحبون المصريين كما أنهم يبغضون التجار الأجانب الذين يأتون لمشاركتهم أرزاقهم ولذلك فقد رحبوا به وبأعوانه لما علموا أنهم ليسوا مصريين ولا تجاراً . وهذا كلام مضحك ووجه المغالطة فيه واضح ، فقبل الحكم المصرى لم يجرؤ أجنبى أن يطأ هذه البلاد بأقدامه وقد صرح (برتون) وغيره بذلك . وقد قابل الأهالى إجلاء المصريين عن هذه البلاد بالوجوم ، ولدينا العرائض المتعددة بإمضاءاتهم وبخط الأهالى يعبرون فيها عن جزعهم لما سمعوا عن إخلاء مصر لهذه الجهات ، فكيف يدعى هذا الكاتب أن السكان يرحبون بالإنجليز وأمثالهم ويفضلونهم عن المصريين المسلمين ، وقد ظل سكان هذه البلاد بالذات سنين طويلة يحملون راية الجهاد ضد الحبشة وضد البرتغاليين فى حروب لا شك فى أنها امتداد للحروب الصليبية المعروفة .

أما قوله بأن أعمال المصريين العمرانية فى هذه الجهات لا تكاد تذكر فإن فى فلتات كلامه أثناء وصفه لمدينة بربرة الحديدة التى أنشأها المصريون

وحديثه عن نظامها وبساتينها الجميلة والصور الفوتوغرافية الرائعة التى أخذها لمنزل الحاكم والحديقة والنافورة ، ووصفه للمستشفى والسجن ، ولمكتب البريد والمخازن والمنازل وعملية المياه التى ذكر أنها تصل المدينة فى أنابيب حديدية من على بعد عدة أميال وغيرها وغيرها من الأشياء التى ذكرها عفواً وهو يصف المدينة التى استحوز عليها السادة الإنجليز دون أن يذكر من هم أصحاب الفضل الأول والأخير فى النهوض بها بهذه الدرجة من التقدم والرقى ، كل هذا يدل على مبلغ ما بذله المصريون وعلى أن من ينكر عليهم جهودهم إنما يكتب بروح التحيز البغيض الذى يجب أن يتحرر منه الكاتب النزيه .

ومن أمثال جيمس ، الكاتب الإنجليزى (بركان) الذى كتب فى كتابه British Somaliland يقول إن ما طرأ على بربرة أثناء الحكم المصرى من التغيير شىء لايذكر ، وهذا تطاول أيضاً على الحقيقة ، فالكاتب نفسه يناقض نفسه بنفسه ، إذ بينما نراه يصف بربرة أيام زيارة (جونستون) لها قبل التنظيم المصرى بأنها مجموعة عشش مبعثرة بلا نظام تدل على الحياة البدوية غير المستقرة ويرجع ذلك لسببين :

١ — معارضة السوماليين لزيارة أى غريب لبلدهم .

٢ — عدم وجود المياه فى بربرة فهم يحصلون عليها من بلدة دوبار على مسافة كبيرة تبلغ ثمانية أميال .

نراه يتحدث بعد ذلك عن زوال هذه العقبات بوصول المياه إلى بربرة ويصف المنازل الجديدة بأنها شرقية فى طابعها وتحتوى على فناء واسع ووسطه نافورة ، هذا بخلاف مبانى الحكومة ، ثم قال إن المياه من منبعها من دوبار تمر فى خزان لتبريدها ، وبجوار هذا الخزان بنى حصن لحماية هذه المياه ؛ ويتحدث عن فنار بلهار ومبانى الجمرك وغيرها .

ذكر كل هذا وهو يعرض لوصف المدينة الجديدة ونسى بل تناسى أصحاب الفضل فى هذا كله وتجاهل أن الفضل يرجع إلى أولئك الذين أشار فى أول كتابه على أنهم لم يغيرو الكثير من شأن بربرة .

لقد اجتث المصريون الأشواك التى كانت تعترض طريق الإصلاح وأوجدوا وسائل الحياة المستقرة الآمنة فى هذه الجهات البعيدة ، وجاء الإنجليز لينعموا بثمار هذا كله دون جهد بذلوه أو مال أنفقوه وبلا حق مشروع يخول لهم طرد المصريين واحتلال أماكنهم فى هذه البلاد الإسلامية الأفريقية اللهم إلا حق القوى فى أن يجبر الضعيف على ترك ثمار جهوده وجهاده ليغتصبها وينعم بها هو دون صاحبها .

وإذاً فمن حق هذا الوطن علينا وعلى المشتغلين بالتاريخ بنوع خاص أن نبرز هذه الجهود المضنية التى بذلت وأن نظهر هذه الصحائف الناصعة التى يحاول المستعمر أن يطمرها ، فمن عيوبنا العامة أن جهودنا وخـدماتنا تنسى دون أن نهتم حتى بتسجيلها بينما يضخم الغربيون القليل الذى يؤدونه بل يبرزون جهودهم الشخصية التى يبذلونها لخدمة مصالحهم هم فى ثوب المنفعة العامة فيظهرون فى ثوب المضحين البازلين وهم المغتصبون النفعيون .

شوقى الجمل

أزمة فاشـــودة

١٨٩٨

يعتبر المؤرخون الاحتلال البريطانى لمصر ، والثورة المهدية ، وفشل جوردون ونهايته ، وإخلاء السودان فى سنة ١٨٨٥ حوادث مهمة جداً بالنسبة لشيئين : أولهما بالنسبة للعلاقات السياسية الكبرى فى أوربا نفسها ، وثانيهما بالنسبة لحركة الاستعمار عامة وفى إفريقية بصفة خاصة .

ولأضرب مثلا على تأثيرها فى السياسة الأوروبية : إن أهم حقيقة فى تاريخ العلاقات السياسية الكبرى قبل الحرب العالمية الأولى كانت الحقيقة التى تولدت عنها المحالفات الكبرى ، وهى حرب فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ واستيلاء ألمانيا على الألزاس واللورين ، وتصميم فرنسا على استرداد ذلك الجزء فى يوم من الأيام . ترتب على ذلك تحرك الدول نحو تنظيم المحالفات ، فابتدأ بين فرنسا وروسيا التقارب الذى انتهى بالمحالفة الروسية الفرنسية ، على اعتبار أن ألمانيا عدو مشترك للدولتين فى وسط أوربا ، أما ألمانيا فجمعت إليها الإمبراطورية النمساوية وإيطاليا . وكانت الإمبراطورية النمساوية تعتمد على ألمانيا ، لأنها كانت لها آمال ومطامع فى البلقان ، وتخشى امتداد النفوذ الروسى فى هذه المنطقة . أما إيطاليا فكانت حليفاً ثالثاً غير موثوق به كل الوثوق لأنها كانت لها مصالح فى أوربا الوسطى من جهة ، ومن جهة أخرى كانت تحب مصالحة الدول البحرية كانجلترا وفرنسا . الذى يهمنا من هذا هو أثر احتلال مصر ومشروعات تقسيم إفريقية فى علاقات الدول الأوروبية بعضها ببعض ، من حيث أن هذه المسائل من ناحية تُبعد بين الدول ، ومن ناحية أخرى تستخدم فى سبيل الغايات الأوروبية نفسها . فكانت أول نتيجة لاحتلال انجلترا لمصر أن فرنسا ساءتها تلك النهاية ، وأن هذا أوجد جفوة بين الدولتين

الغربيتين ، وأن بسمرك استخدم هذا ليحول دون أى تقارب بين الكتلة الروسية الفرنسية وإنجلترا ، وعمل طوال مدته على تأييد الاحتلال الإنجليزى لمصر . وأفاد بذلك إنجلترا كثيراً ، لأن فرنسا كلما أثارت صعوبات أمام الاحتلال الإنجليزى ، يأتى التأييد الألمانى ويفسد كل تلك الصعوبات . ثم تستخدم السياسة الألمانية تأييدها لإنجلترا كوسيلة لتحقيق أهداف معينة ، كجعل إنجلترا تبتعد عن فرنسا ، وكحمل الإنجليز على التسليم بمشروعات ستعمارية ألمانية فى إفريقية .

أما عن تأثير تلك الحوادث التى ذكرتها ، وهى الاحتلال البريطانى لمصر والثورة المهدية وفشل جوردون ونهايته وإخلاء السودان ، فى تقسيم إفريقية ، فالكلام فيه له وجهان : الوجه العام ، وهو المتعلق بمسائل الدول المختلفة لاقتطاع أجزاء من إفريقية ، ويمكننى أن أقرر أنه تم فى العشرين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر وضع الخطوط الرئيسية للخريطة الإفريقية ، وأن هذه المدة تعتبر عصر تقسيم إفريقية ، الذى التهمت فيه أراضى القارة الالتهام المعروف . وكان هذا بموجب عمليات دبلوماسية دقيقة ، متصلة أكبر الاتصال بالدبلوماسية الأوروبية العالمية فى ذلك الوقت . والدول التى اشتركت فى التقسيم كانت إيطاليا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا . أما عن الوجه الخاص وهو المتعلق بمنطقة أعالى النيل نفسها ، فقد همت تلك الدول ، بالإضافة إلى الحبشة ، بأن تصل إليها ، أى أن كل مسعى لهذه الدول فى التقدم من سواحل إفريقية كان للوصول إلى أعالى النيل . وعلى هذا الأساس عند ما أعلن إخلاء السودان ، وترك لعوامله الداخلية بعد سقوط الخرطوم ، اعتبرته هذه الدول كلها — ما عدا انجلترا طبعاً — أرضاً بلا صاحب ، وحاولت الزحف نحو تلك الأرض . وإنجلترا كان أملها أن تمنع ذلك الزحف ، لأنها كانت تريد أن تكون هى الوريثة عندما تحين لها الفرصة لتحقيق ذلك ، فكانت سياستها مقاومة كل من يعترض سبيلها فى إتمام مشروع تأسيس

إمبراطورية من البحر المتوسط إلى رأس الرجاء الصالح ، وأن تحول دون أية دولة والاستيلاء على منطقة أعالى النيل ، فهى حجر الزاوية للقبو العظيم الذى تستند عليه الإمبراطورية الإفريقية . كما أنها كانت تريد منع وقوع أعالى النيل فى أيدى دولة أوروبية فتهدد مصر وهى صاحبة الشأن فيها . لذلك أصبحت حماية أعالى النيل أحد مفاتيح السياسة البريطانية فى إفريقية .

من الممكن الهجوم على أعالى النيل من اتجاهات مختلفة : من البحر الأحمر ، ومن ساحل إفريقية الشرقى ، ومن الكنغو . وقد سهلت إنجلترا للدولة لا تخشى بأسها ، وهى إيطاليا ، الاستقرار فى بعض أقاليم غربى البحر الأحمر فأعطتها مصوع ، وشجعتها على تأسيس مستعمرة إريتريا وإرسال حملات علمية وتجارية إلى إقليم هرر ، كما سمحت لها باحتلال كسلا مؤقتاً . ثم عقدت معها فى سنتى ١٨٩١ ، ١٨٩٤ اتفاقات نصت على اعتراف بريطانيا بدائرة نفوذ إيطالية تمتد من ساحل إريتريا ، وتشمل جميع الحبشة ، وتنتهى على ساحل المحيط الهندى بما فيها الصومال الإيطالى . والمهم أنه روعى فى رسم حدود هذه المنطقة أن تكون بعيدة عن وادى النيل ، وفى الوقت نفسه تقف سداً ضد أية محاولة للفرنسيين للتوغل غرباً من الصومال الفرنسى ؛ وهكذا اتبعت بريطانيا فى منطقة غربى البحر الأحمر سياسة تحول دون هجوم فرنسا وإيطاليا والحبشة على أعالى النيل من هذه الناحية .

وفى ساحل إفريقية الشرقى اتبعت إنجلترا سياسة انتهت بتقسيم هذه المنطقة مع ألمانيا بمقتضى معاهدة بين الطرفين فى سنة ١٨٩٠ ، وباحتلال إنجلترا لأوغندة وإعلان حمايتها عليها فى سنة ١٨٩٤ .

وفى الغرب ، كما فى الشرق ، أرادت الحكومة البريطانية اتخاذ احتياطات لحماية أعالى النيل من الاعتداء ، فعقدت مع ألمانيا معاهدة فى نوفمبر سنة ١٨٩٣ تسمح للممتلكات الألمانية فى الكمرون بأن تمتد شمالا حتى بحيرة تشاد ، وشرقاً فى حدود دولة الكونغو ، بحيث تكون بعيدة عن أعالى النيل . وكانت

إنجلترا ترى من وراء ذلك إلى قطع الطريق على امتداد المناطق الفرنسية إلى النيل . ولكن فرنسا استطاعت أن تتفق مع ألمانيا فى مارس سنة ١٨٩٤ على تحديد الحد الشرقى للكمرون ، بحيث تركت لفرنسا الحرية فى التوسع شمالا حتى بحيرة تشاد وشرقاً كما تريد . وبذلك أعطت ألمانيا لفرنسا ما أخذته من انجلترا قبل ذلك بثلاثة أشهر ، فاتجهت إنجلترا إلى ليوبولد ملك بلجيكا ، وعقدت معه اتفاقاً فى مايو سنة ١٨٩٤ ، تنص المادة الثانية منه على تأجير منطقة بحر الغزال إلى ليوبولد ، وذلك لمنع الفرنسيين من التقدم إلى أعالى النيل من ناحية الغرب ، وتنص المادة الثالثة على أن يؤجر ليوبولد إلى بريطانيا ممراً عرضه ١٦ ميلا وطوله ١٨٨ ميلا ، ويمتد من بحيرة تنجانيقا إلى بحيرة ألبرت ادوارد . وهذا الممر كانت تريده إنجلترا ، لأنه كان حلقة اتصال هامة فى المشروع المشهور بالخط الحديدى من الكاب إلى القاهرة . احتجت فرنسا وألمانيا على هذا الاتفاق ، فاضطرت بريطانيا وبلجيكا إلى التراجع وأعلنتا بطلان هاتين المادتين . كما اضطر ليوبولد لأن يوقع اتفاقاً مع فرنسا فى أغسطس سنة ١٨٩٤ ، تنازل بمقتضاه عن فكرة احتلال منطقة بحر الغزال ، فبقى الطريق مفتوحاً أمام الفرنسيين للوصول إلى أعالى النيل من ناحية الغرب ..

ثم جرت مباحثات بين إنجلترا وفرنسا فى أوائل سنة ١٨٩٥ كانت نتيجتها الفشل ، فأدى هذا إلى تحمس كبير من جانب الامبرياليين الفرنسيين ؛ وأصبحوا يحلمون — أكثر من أى وقت مضى — ببلوغ النيل عن طريق بحر الغزال . ولمعارضة المشروع البريطانى ، الذى يهدف إلى وصل الكاب بالقاهرة فى خط غير منفصم من الأراضى البريطانية ، ظهر مشروع وصل الأطلنطى بالبحر الأحمر فى خط من المراكز الفرنسية . وقد شبه ذلك بقطع الكمثرى الإفريقية بالعرض قبل أن تقطعها إنجلترا بالطول . كما أن ليوبولد قام أيضاً فى تلك السنة بمباحثات فى لندن وباريس ، يهدف من ورائها إعطاءه كل وادى النيل من الخرطوم حتى بحيرة فكتوريا بصفة إيجار . ولكنه لم ينجح

فى هذه المباحثات ونظر إلى نشاطه باستخفاف ..

وعلى العموم كانت بريطانيا فى أوائل عام ١٨٩٦ غير مستعدة لإعطاء فرنسا أو بلجيكا أو غيرهما أية امتيازات حقيقية فى أعالى النيل . وكان هدفها تأجيل المسألة المصرية السودانية حتى يتم استعدادها فتعمل فيها بقوة . ولكن لم تتح للإنجليز فرصة اختيار الوقت المناسب لهم . فلقد انقلب الموقف السياسى ، وزاده تعقيداً انهزام الإيطاليين أمام الأحباش فى عدوة فى مارس سنة ١٨٩٦ .

وعلى أثر هذه الهزيمة اتخذت إنجلترا فوراً قرارها بالتقدم لاسترداد السودان عن طريق وادى حلفا والنيل . ويعلل بعض الكتاب مثل ونستون تشرشل اتخاذ هذا القرار بأن الرأى العام البريطانى ضغط على الحكومة لشعوره بوجوب الأخذ بثأر جوردون . ويقول البعض الآخر إن الذى أزعج الإنجليز حقاً هو النشاط الذى استأنفه الدراويش فى شرق السودان ، وأنه كان هناك تفاهم بينهم وبين إمبراطور الحبشة . والحقيقة أنه بهزيمة الإيطاليين — أصدقاء الإنجليز — فى عدوة ، تحطم السد الذى حاول الإنجليز إقامته فى وجه فرنسا فى الناحية الشرقية حتى لا تصل إلى أعالى النيل من هذه الناحية . ولما أدرك البريطانيون خطورة موقفهم بهزيمة أصدقائهم وانكشاف جناحهم الشرق ، أسرعوا فى تنفيذ استرداد السودان لكى يصلوا بقواتهم إلى أعالى النيل قبل وصول الفرنسيين . وكانت حملة استرداد السودان بقيادة كتشنر ، وانتهت بهزيمة عبد الله التعايشى فى أم درمان فى سبتمبر سنة ١٨٩٨ .

وكانت فرنسا لسنين عديدة تريد جلاء الإنجليز عن مصر . وعند ما فشلت فى هذا الأمر قررت الاندفاع إلى أعالى النيل ، لترغم الحكومة البريطانية على الاتفاق بخصوص المسألة المصرية ، ولتضع حداً لحلم البريطانيين بربط مصر برأس الرجاء الصالح ، فقررت فى سنة ١٨٩٦ إرسال حملة إلى أعالى النيل بقيادة الضابط مارشان . ووصل مارشان إلى فاشودة على

النيل الأبيض - عن طريق الكنغو - فى مساء ١٠ يولية سنة ١٨٩٨ مصحوباً بستة ضباط أوروبيين ونحو مائة وعشرين من السنغاليين ، ورفع العلم الفرنسى على أنقاض القلعة المصرية القديمة هناك . كما أن ليوبولد نظم بعثتين عظيمتين فى الكونغو للتقدم تجاه النيل إلى لادو ، وذلك لمساعدة مارشان ، إن أمكن ، ضد أى هجوم من الدراويش ولحماية مؤخرته . وفى الوقت نفسه اتفقت فرنسا مع إمبراطور الحبشة على إرسال حملات فرنسية من الصومال الفرنسى وأخرى حبشية لتتجه غرباً إلى النيل الأبيض لمقابلة مارشان ومساعدته . ونلاحظ أن الحبشة كانت تطمع فى امتداد أراضيها فى النيل ، ولذلك اشتركت مع فرنسا فى هذه الحملات . وعلى العموم وصل مارشان إلى فاشودة ولم يجد هذه الحملات لفشلها فى الوصول ، لأنها لم تعمل حساب المستنقعات والنهيرات الكثيرة التى واجهتها فى طريقها ، خصوصاً وأن وقت تقدمها كان يتفق مع بدء سقوط الأمطار فى هذه المنطقة . . . .

ومما يجدر ذكره أنه قبل استئناف القتال ضد الخليفة عبد الله التعايشى ، كان هناك اجتماع هام لمجلس الوزراء فى لندن ، حضره اللورد كرومر ، المعتمد البريطانى فى مصر . وقرر فى هذا الاجتماع أنه عند استرداد الخرطوم ، يجب أن يخفق العلمان المصرى والإنجليزى جنباً إلى جنب فى السودان ، وأن على الحكومة المصرية أن تتبع مشورة بريطانيا فى كل ما يتعلق بأمور السودان. وزيادة على ذلك تقرر إرسال أوامر لكتشنر بأن يرسل بعض القوارب الحربية فى النيل الأزرق ، ويتقدم هو بقوة صغيرة فى النيل الأبيض حتى فاشودة ، أو أبعد من ذلك إذا أمكن . كما أن عليه ألا يعترف بأية مطالب فرنسية أو حبشية فى أى جزء من وادى النيل ، وأن يتجنب الاصطدام بقوات فيليك ، إمبراطور الحبشة ، مهما كان الأمر .

ورأى كتشنر أنه من الضرورى تنفيذ هذه الأوامر فى الحال بعد هزيمة الخليفة ، لأنه فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٩٨ كانت هناك باخرة نيابة تابعة للمهديين ،

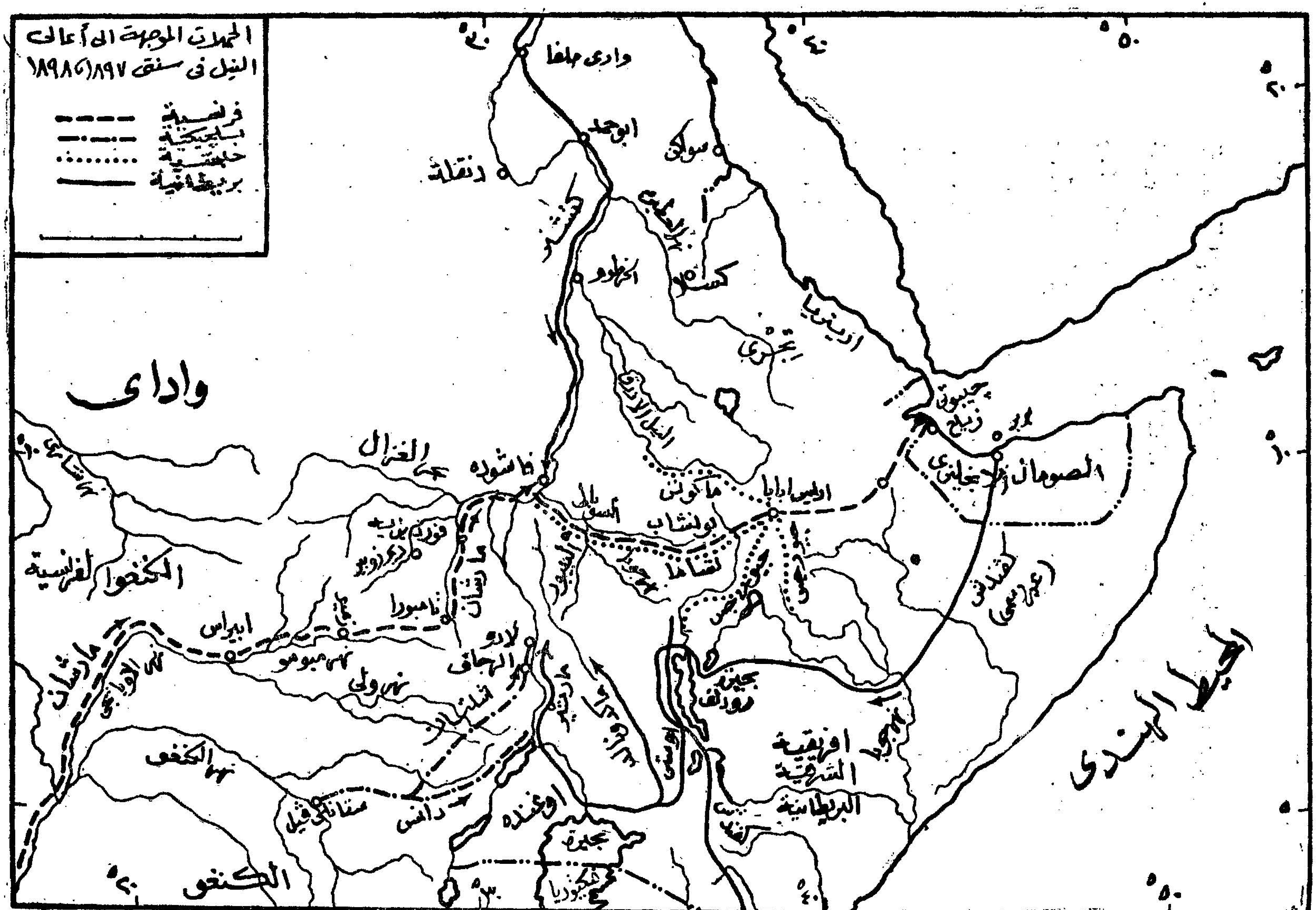
الحملات الموجهة الى أعالي
النيل في سنتي ١٨٩٧ و١٨٩٨
فرنسية
بلجيكية
حبشية
بريطانية
وادي حلفا
ابو حمد
سواكن
دنقلة
كسلا
الخرطوم
اريتريا
واداي
النيل الازرق
الغزال
فاشوده
جيبوتي
زيلع
بربره
الصومال الانجليزي
الصومال
السوباط
بحيرة رودلف
افريقية الشرقية
البريطانية
المحيط الهندي
اوغنده
بحيرة
فكتوريا
الكنغو الفرنسية
الكنغو
ابيراس
دانس
فورت ديزيه
تامبورا
لادو
الرجاف

آتية من آعالى النيل ، وأوقفت بالقرب من الخرطوم . وعند استجواب بحارتها قرروا أن باخرتهم كانت قد أرسلت إلى النيل الأبيض منذ مدة ، ولكن أطلق عليهم بعض البيض النار عند فاشودة واضطروهم للرجوع . ودعم فحصُ الرصاص الذى استقر فى خشب الباخرة الحقيقة القائلة إن هناك أوروبيين فى فاشودة . ولم تبذل السلطات فى الخرطوم أى جهد لمعرفة من هم هؤلاء . إذ بعد ذلك بثلاثة أيام رحل كتشنر بخمس بواخر وقوة من السودانيين قوامها ١٨٠٠ جندى ، يساعدها عدد قليل من الجنود البريطانيين . وعند اقترابه من فاشودة فى ١٨ سبتمبر أرسل خطابا إلى مارشان ، وأجاب عليه القائد الفرنسى قائلا إنه احتل المنطقة منذ ١٠ يولية ، ولا يمكنه تركها بدون تعليمات من حكومته . وفى اليوم التالى تقابل الرجلان . ورفض مارشان أن ينسحب ، بالرغم من احتجاجات كتشنر .

ويصف كتشنر مقابلته مع مارشان فى رسالة أرسلها من الخرطوم فى أواخر سبتمبر إلى السفارة البريطانية بالقاهرة قال فيها : « رجعت الآن من فاشودة ، وقد لقيت فيها المسيو مارشان وثمانية ضباط و ١٢٠ جندياً ، وكانوا قد رفعوا الراية الفرنسية على دار الحكومة القديمة وسكنوا فيها ، فكتبت إليه كتاباً قبل وصولى بيوم أخبره فيه أنى قادم إلى فاشودة . وفى الصباح التالى ، أى فى ١٩ سبتمبر جاءنى زورق صغير رافعاً الراية الفرنسية بجواب من مارشان يقول فيه إنه وصل إلى فاشودة فى ١٠ يولية بعد أن أمرته حكومته باحتلال بحر الغزال حتى ملتقاه ببحر الجبل ، وأيضاً بلاد الشلك على الضفة اليسرى فى النيل الأبيض حتى فاشودة . وأنه عقد معاهدة مع مشايخ الشلك مقتضاها بسط حماية فرنسا على بلادهم ، وأرسل المعاهدة إلى حكومته لتصدق عليها عن طريق الحبشة وطريق بحر الغزال أيضاً . ثم وصف القتال الذى جرى بينه وبين الدراويش فى ٢٥ أغسطس . وقال إنه كان ينتظر هجومهم عليه هجمة أعظم من الأولى . فتداركا لذلك أرسل باخرته فى طلب

المله . ولكن وصولنا منعهم من إعادة الكرة عليه . فلما وصلنا إلى فاشودة جاء المسيو مارشان والمسيو جرمان إلى باخرتنا . فأخبرتهما على الفور أن وجود قوم من الفرنسيين فى فاشودة ووادى النيل يعد تعدياً على حقوق مصر والحكومة الإنجليزية . واعترضت على احتلالهم لفاشودة ، ورفعهم الراية الفرنسية على أملاك سمو الخديوى أشد الاعتراض . فأجابنى المسيو مارشان أن الأوامر صادرت إليه صريحة باحتلال البلاد ورفع الراية الفرنسية على دار الحكومة فى فاشودة . وأنه يستحيل عليه الخروج من ذلك المكان إلا بأوامر حكومته ، وهو ينتظر ألا تبطئ أوامرها . فسألته عما إذا كان يقاومنا فى رفع الراية المصرية على فاشودة ، وهو يعلم أن معى قوة أعظم من قوته . فتردد ثم قال إنه لا يستطيع المقاومة ، فرفعت الراية المصرية حينئذ جنوبى الراية الفرنسية بنحو خمسمائة ياردة على ركن منهدم من أركان الحصون المصرية القديمة المشرفة على الطريق الوحيد بين مكان الفرنسيين وبين داخلية البلاد ، لأن المستنقعات تحيط بمكان الفرنسيين من الشمال . وقبل سفرى من فاشودة جنوباً سلمت إلى المسيو مارشان كتاباً اعترضت فيه اعتراضاً رسمياً بالنيابة عن الحكومة الإنجليزية والحكومة المصرية على احتلال فرنسا لجزء من وادى النيل ، لأن ذلك يكون تعدياً على حقوق الحكومتين . وقلت إنى لا أعترف باحتلال فرنسا لجزء من وادى النيل . وتركت فى فاشودة حامية ، وهى عبارة عن أورطة سودانية ، وأربعة مدافع ، وباخرة ، تحت أمر الماجور جاكسون ، وعينته قومنداناً لمركز فاشودة . ثم سرت إلى سُبت ورفعت الراية عليها ، وأقمت نقطة فيها فى ٢٠ سبتمبر . ولم أر للأحباش أثراً على نهر السوباط . ولكن أنبئت أن أقرب نقطة لهم تبعد ٣٥٠ ميلا عن ذلك النهر . ووجدت بحر الجبل غاصاً بالطحالب والأعشاب ، فأمرت مدفعية أن تسير فى بحر الغزال للاستطلاع متوجهة ناحية مشرع الرق . وعدت ، فلما مررت بفاشودة فى رجوعى شمالا ، أرسلت إلى المسيو مارشان ، كتاباً

أقول فيه إن نقل المواد الحربية ممنوع ، لأن البلاد موضوعة تحت الأحكام العرفية : وجاء شيخ قبيلة الشلك وكثيرون من رجاله إلى معسكر الماجور جاكسون ، وأنكر أنه عقد معاهدة مع الفرنسيين . وقد أبدت القبيلة كلها مزيد السرور بالرجوع إلى طاعتنا . هذا والمسيو مارشان تعوزه الذخيرة والمؤونة ، وكل ما يرسل إليه لا يصله إلا بعد أشهر . ثم إنه منقطع عن داخلية البلاد . ووسائط النقل فى الماء عنده لا تفى بالمراد ، وليس له أتباع فى هذه البلاد . ولو تأخرنا أسبوعين عن هزيمة الخليفة لأفنى الدراويش حملته ولم يُنْجها أحد من أيديهم . وأدرك الكابتن مارشان بنفسه تماماً عبث مجهوداته ، ويبدو أن رغبته فى العودة كانت تعادل رغبتنا فى تسهيل رحيله . فى موقفه الراهن كان لاحول له ولا قوة ، ولكن أرجو أن تتخذ حكومة جلالة الملكة التدابير اللازمة لإبعاده بأسرع وقت ممكن ، لأن وجود قوة فرنسية وعلم فرنسى فى النيل غير مرغوب فيه للغاية » .

ولقد أثار النصر فى أم درمان على قوات الخليفة عبد الله التعايشى سروراً عظيما فى إنجلترا ، واستولى هذا السرور على الانجليز كما قال تشرشل لدرجة أن الناس حمدوا الله وحكومتهم وجنرالهم ، أى كتشنر ، وإذا حكمنا على شعورهم بما يكتب فى الصحف ، نجد أن الناس قد جنوا بفرحة النصر ، ثم فى مدى أسبوع أتت إشاعات بظهور الفرنسيين فى أعالى النيل . وبالرغم من مجهودات كتشنر فى إخفاء تحركاته ، إلا أن مراسلى الصحف فى الخرطوم ، أرسلوا أخبار مقابلته لمارشان . وقبل نهاية سبتمبر أصبحت المسألة شائعة فى انجلترا . وهنا أيضاً يصف تشرشل رد الفعل فى انجلترا فيقول : « إن حادثة فاشودة عكرت صفو الابتهاج العام ، فالشعب الإنجليزى فوجئ بأن دولة صديقة — بدون أية إشارة لها — قد حاولت أن تسلبه ثمرة انتصاراته . وأدرك الآن أنه بينما هو يكرس نفسه لأعمال حربية عظيمة فى وضح النهار وأمام العالم كله ، ويجهز مشروعاً قد وطد العزم عليه ، كانت هناك عمليات

مضللة - تجرى فى الخفاء - فى وسط إفريقية لغرض دنىء هو حرمانه من نتيجة أعماله . ولقد صمم على أن يقف ضد هذا السلوك » .

وشنت الصحف البريطانية باجمعها حملة على الفرنسيين . ومن حين لآخر كانت تنتقد الفرنسيين باعتدال ، جريدة حرة كالمانشستر جارديان ، ولكن كانت هناك صحف كثيرة لهجتها حادة وعباراتها قاسية ، فتصف فريق مارشان بأنه « عصابة من المغيرين » . وكانت الجرائد لا تطيق المفاوضة أو أى مناقشات معقدة . واعتبر البريطانيون بعثة مارشان مظهراً عدائياً لإنجلترا . واعتبروا مارشان دخيلا ، ويجب طرده ، حتى ولو أدى الأمر إلى إنذار ، ثم تجهيز حملة وحرب مع فرنسا .

وكان إجماع الساسة يعادل إجماع الصحف . ووضع الأحرار والاتحاديون والمحافظون أنفسهم تحت تصرف الحكومة ، وطالبوا مجلس الوزراء باتخاذ موقف حاسم .

وقد يسأل سائل : هل كان اللورد سولسبرى ، رئيس الوزراء ، فى حاجة إلى هذا التشجيع من الساسة ومن الصحف؟ ومهما كان رأيه بالنسبة للمسألة ، فإنه منذ وقت طويل كان يرى أن الرأى العام الإنجليزى لا يرضى بسياسة منح امتيازات ما فى مسألة النيل . ولقد أنذر الفرنسيون مراراً بأن وزارة الخارجية البريطانية لن تبحث أية مطالب فى أى جزء من وادى النيل . وبعد موقعة أم درمان أرسلت تعليمات للسير إدموند مونش ، سفير بريطانيا فى باريس ، بأن يخبر وزارة الخارجية الفرنسية بأن « كل المناطق التى كانت تابعة للخليفة ، قد انتقلت إلى الحكومتين الإنجليزية والمصرية » ، وأن بريطانيا غير مستعدة للمناقشة فى ذلك . وفى أثناء المجادلة التى أتت بعد أخبار مقابلة كتشنر بمارشان أصر سولسبرى على رأيه ، ورفض التحدث عن المطالب الفرنسية حتى يُستدعى مارشان .

وعلينا أن نبحث الآن الموقف كما ظهر فى باريس . وقبل كل شىء يجب أن نتذكر أن خريف وشتاء ١٨٩٨ — ١٨٩٩ كان من أحرج الأوقات فى التاريخ الداخلى للجمهورية الثالثة قبل الحرب العالمية الأولى. فقد دخلت قضية دريفوس ، هذه القضية المشهورة التى يرجع تاريخها إلى سنة ١٨٩٤ ، فى مرحلتها الحاسمة . وكانت مسألة دريفوس مأساة ظلت مدة عشر سنوات تقيم الفرنسيين وتقعدهم . وتتلخص فى أن « ألفرد دريفوس » أحد ضباط الجيش ، اتهم سنة ١٨٩٤ بالخيانة العظمى . إذ وجهت إليه تهمة بيع وثائق حربية لحكومة أجنبية . وعقد المجلس العسكرى ، الذى كلف النظر فى قضية الضابط المشار إليه ، عدة جلسات سرية ، انتهت بإدانته والحكم عليه بالطرد من الجيش وبالسجن المؤبد . وفى سنة ١٨٩٦ ، حيث كادت هذه القضية تتوارى عن الأنظار ، ظهر على المسرح الضابط بيكار ، وكان قد عين مديراً لإدارة المخابرات ، ومن اختصاصها حفظ الأسرار الحربية ، وتبين له أن دريفوس برىء ، وأنه دست عليه بعض المستندات ، وأنه كان ضحية مؤامرة فى الجيش ، واحتج على ذلك ففصل من وظيفته . وسرعان ما انقسمت فرنسا إلى قسمين : أغلبية ضد دريفوس ، وكان قوامها حزب المحافظين ورجال الدين الكاثوليك . وأقلية تطالب بإعادة المحاكمة ، وكان قوامها لفيفاً من المصلحين المستنيرين ، اشتهر منهم الروائيان « أناتول فرانس » و« إميل زولا » . والسياسى الصحفى « جورج كلمنصو » والمهم أنه فى أثناء أزمة فاشودة بلغت قضية دريفوس ذروتها ، واتخذت طابع حرب أهلية . وامتلأ شهر اكتوبر سنة ١٨٩٨ بالمظاهرات والمنازعات والإشاعات من كل نوع ، وبالخوف الهائل والفزع . ولا داعى للاسترسال فى موضوع قضية دريفوس ، ويكفى القول إنه قضى بتبرئته فى سنة ١٩٠٦ وأعيد إلى الجيش .

ويمكن أن نتصور أنه وسط هـذه الحالة التى خلقتها قضية دريفوس ، لم يبق للفرنسى العادى ، الذى لم يكن لديه اهتمام كبير بشئون المستعمرات ، أى مجال للتفكير فى مصر والسودان ، وأما دعاة التوسع والاستعمار النشيطين ، فبطبيعة الحال ، كانوا يتتبعون سير الحوادث باهتمام بالغ . ويبدو أن هذه الدوائر اعتقدت أن استرداد الخرطوم وإثارة مشكلة السودان عامة ، سوف تنتهى باستئناف المباحثات بين انجلترا وفرنسا بشأن مصر .

والاتجاه الملائم الذى كان يجب على الحكومة الفرنسية الأخذ به فى ذلك الوقت هو الاتجاه الودى ، ففرنسا كانت فى أزمة داخلية عنيفة ، وغير مستعدة تماماً لأن تخوض غمار الحرب ، وموقف مارشان كان محفوفاً بالأخطار ، كما أن الإنجليز رفضو باستمرار تحديد مطالبهم أو بحث مطالب غيرهم . فمن البداية قال سولسبرى ، رئيس الوزارة البريطانية ، إن الرأى العام البريطانى لا يحتمل أى عرض بمنح أية دولة امتيازات فى أعالى النيل ، ونتيجة لعدم رغبة الإنجليز هذه فى مناقشة المسألة ، ولتعصب الصحافة البريطانية ، لم يسلّم دلكاسيه ، وزير الخارجية الفرنسية ، وأوضح رأيه قائلا إنه لا يمكن سحب مارشان ما لم توافق الحكومة الإنجليزية على المفاوضة . ورداً على هذا رفض سولسبرى رفضاً باتاً أى بحث حتى يجلوَ الفرنسيون من مركزهم .

ومن الممل جداً أن نذكر بالتفصيل الحجج والمناقشات ، التى قدمت فى الأسابيع التالية لإثبات أو عدم إثبات حق الفرنسيين فى وجودهم فى فاشودة ، إذ أنه منذ حرب القرم لم يُصب نزاع دولى بمثل هذه المناقشات البيزنطية المتناقضة . وذكر ولفرد بلنت فى مذكراته أن كلا من الجانبين كان مخطئاً . ولاحظ مسيو كوشرى ، وهو من أقدر من كتبوا فى الموضوع ، أن حجج الفرنسيين والبريطانيين كانت فى الأصل واحدة ؛ وإنما المتعب

أن الحجة نفسها لم تكن تقدم من كل من الجانبين فى وقت واحد . لقد أخلى المصريون السودان تحت ضغط الإنجليز وأوامرهم ، فما مركزه بعد ذلك من ناحية القانون الدولى ؟ كان رأى أعظم المشرعين الفرنسيين مثل دسبانيه وبونفس هو أن حقوق السلطان العثمانى وخديوى مصر ما زالت قائمة ، وأن السودان لا يعد مشاعاً أو بلا صاحب . ومن ناحية أخرى كان من رأى بعض الناس أمثال سير ساموبل بيكر ، وسير فردريك لوجارد أن المنطقة قد أخليت وأنها سوف تتبع أول دولة تستطيع أخذها من المهديين . ولقد ضمت الحكومة البريطانية أجزاء كانت تابعة لمصر على البحر الأحمر وفى أوغندة وأونيورو . كما ساعدت الإيطاليين فى الحصول على أجزاء أخرى على البحر الأحمر ، وأجرت مناطق للملك البلجيك ، وفى اتفاقها مع ألمانيا سنة ١٨٩٠ طالبت بجزء كبير من المنطقة الاستوائية ليكون تحت نفوذ بريطانيا .

وكان للحرية التى تمتع بها الإنجليز فى ضم أجزاء كانت تابعة لمصر أثر فى أن هانوتو ، وزير الخارجية الفرنسية ، فى سنتى ١٨٩٤ و ١٨٩٥ ، أصر على رفضه نظرية أن السودان مشاع ، وأكد حقوق الخديوى والسلطان . وبالرغم من هذا الموقف فإن هانوتو بارك بعثة مارشان ، وكان هم السياسة الفرنسية فى السنين التى تلت ١٨٩٥ هو الحصول على جزء من الغنائم . وعند ما قامت أزمة فاشودة فى سنة ١٨٩٨ انعكست الآية ، وتغير موقف الدولتين المتنافستين ، فيقول الفرنسيون إن السودان مشاع وإن لهم الحق هناك كما للإيطاليين على البحر الأحمر ، أو للإنجليز فى أوغندة ، أو للبلجيكيين فى لادو ، وقالوا إنه بالرغم من صغر قوة مارشان فإنه احتل منطقة بحر الغزال احتلالا تاماً . وجواباً على هذا قال البريطانيون إن بريطانيا تعمل من أجل مصر . وعند ما لم يقتنع الفرنسيون بهذه الحجة ضرب الإنجليز على نغمة أخرى : لنفرض أن المنطقة ضاعت بالنسبة لمصر تماماً ، وأنها تبعت

للدراويش ، فإنها الآن استردت منهم وتتبع البريطانيين والمصريين . والحقيقة أنه لا فرنسا ولا انجلترا كان لها أى حق فى التحكم فى مصر أو السودان ، أو أى جزء من وادى النيل ، فإذا جردت مناقشاتهم من الدبلوماسية والدعاية الصحفية ، فهى لا تنطوى على شىء إلا على روح الاستعمار والاستغلال ، وهذه لا تستند إلى حق بل تؤيدها القوة .

ومن الواضح أن حجج الإنجليز والفرنسيين ومناقشاتهم كانت لا دخل لها فى الوضع النهائى للمسألة . وكما ذكرت كان سولسبرى ، رئيس الوزارة البريطانية ، مصمماً على عادم الرضوخ ، أو بحث أية امتيازات للفرنسيين ، وإزاء هذه الحالة أصبحت المسألة مسألة قوة .

وكان فى الإمكان أن تسحق قوات كتشنر البالغ عددها أربعون ألفاً قوات مارشان ، ولكن ذلك معناه حرب بين إنجلترا وفرنسا . وكانت لندن تدرك هذا جيداً . ولكن الحكومة لم تكن تخشى مثل هذا العمل .

عند ما انتهت أزمة فاشودة تقريباً ، كتبت جريدة التيمس تقول إنه فى سنة ١٨٧٨ كان البريطانيون يغنون بحماسة « لدينا الرجال ، لدينا السفن ، ولدينا المال أيضاً » . أما فى سنة ١٨٩٨ ، قالت هذه الجريدة الكبيرة إنه لم يكن هناك أى غناء ، فإن البريطانيين لم يكونوا فى حاجة إلى تقوية الرأى العام ، إذ كانت هذه هى المرة الأولى التى تواجه إنجلترا فيها أزمة كبيرة دون أدنى خوف .

وكانت هذه الثقة العامة لها ما يبررها . فالسنوات الأخيرة شاهدت بناءا كبيراً للسفن وزيادة عامة فى الأسطول جعل سيادة بريطانيا فى البحر أمراً مؤكداً ، فكان لدى إنجلترا من السفن الحربية التى عمرها أقل من عشر سنوات وسرعتها ١٦ عقدة على الأقل ، ٣٤ سفينة ؛ فى مقابل ١٣ لفرنسا و ١٧ لروسيا . وكانت إنجلترا أقل من هاتين الدولتين فى الطرادات والنسافات فقط . وقيل فى أحلك أوقات الأزمة ، إن سفن الأسطول البريطانى الحربية

تعادل سفن أساطيل فرنسا وروسيا وألمانيا مجتمعة ، وإن السفن الحربية البريطانية متجانسة ومتشابهة ، ولذلك فهي أكثر انسجاماً . وعبر ناقد فرنسي عن رأيه قائلا إنه لو تركنا جانباً مسألة إحصاء السفن وعددها ، فإن الأسطول البريطاني كان يعادل في القوة أربعة أمثال الأسطول الفرنسي ، وأقوى من كل أساطيل أوروبا مجتمعة .

وكانت الاستعدادات البحرية البريطانية على قدم وساق طوال شهر اكتوبر . ففي بورتسموث أعدت كل المهمات حتى تتمكن القوات الثقيلة من أن تبحر فوراً وقت اللزوم . ولم تعرف التفاصيل للتكتم الشديد على هذه العمليات ، ومع ذلك يبدو أن فرق بحر المانش ذهبت تجاه الساحل الفرنسي استعداداً لحصار السفن الحربية الفرنسية عند برست Brest ، وراقبت قوة أخرى مضيق جبل طارق لتمنع الأسطول الفرنسي في البحر المتوسط من الخروج منه . أما في البحر المتوسط نفسه فوضعت قوة كبيرة بين مالطة وجبل طارق ، وكانت على استعداد لحصار طولون ، أو النزول عند بنزرت . وأرسلت قوة أخرى إلى الإسكندرية لحراسة قناة السويس .

وشعر الإنجليز بأنهم مستعدون لكل الاحتمالات . أما من الناحية الأخرى ؛ فقد استولى على الفرنسيين ذعر عام . وكان إجماع العالم على أن الأسطول الفرنسي ثاني أسطول في العالم بعد الأسطول الإنجليزي . ولكن السلطات البحرية الفرنسية كانت مشلولة إلى حد ما لمدة طويلة نتيجة للنزاع المتواصل بين أفرادها . وكان للساسة أيضاً دخل كبير في اضمحلال الاستعدادات البحرية الفرنسية . وعلى أي حال ، كان يبدو أن الحالة في سنة ١٨٩٨ تدعو تماماً للشفقة . فالأسطول الفرنسي في بحر المانش كان مكوناً من سفن حربية صنعت قبل سنة ١٨٨٥ وغير متجانسة وتصميماتها مختلفة . وكانت الموانئ البحرية في فرنسا نفسها وفي المستعمرات تقاسي نقصاً كبيراً في الرجال ، بينما كانت الورش غير مجهزة تجهيزاً كافياً . ففي برست وشربورج وطولون كان يمكن تشغيل ثلث المدفعيات فقط لنقص الرجال وقلة الذخائر .

وشعرت الحكومة الفرنسية فى آخر لحظة بخطورة الموقف . فبعد أن أشعلت النار فى برميل فاشودة المملوء بالبارود ، هب الفرنسيون فزعين متدهشين وعاجزين . وكانت نغمة الصحف البريطانية تنم عن الروح الحربية . وكان هناك اتجاه عام فى انجلترا بأن الوقت قد حان لتصفية المسائل مع فرنسا . وفى كل الدوائر البريطانية كانت فكرة الحرب رائجة حتى بين أعضاء الوزارة أنفسهم .

وصلت تقارير بكل ذلك إلى باريس طوال شهر أكتوبر سنة ١٨٩٨ . وفى وزارة البحرية الفرنسية كان هناك اتفاق عام فى الرأى على أن الإنجليز قد يثيرون حرباً ليتخلصوا من الأسطول الفرنسى قبل أن يقوى الأسطول الألمانى الحديث العهد . وكان الضباط الفرنسيون يرون أن فرنسا غير قادرة على الحرب فى البحر . كما أن وزير البحرية الفرنسية كان مقتنعاً بأن الحرب ضرب من اليأس ، واتفق معه فى الرأى رئيس الوزراء بريسون ورئيس الجمهورية فوريه .

وكانت سياسية دلكاسيه . وزير الخارجية الفرنسية ، اكتساب الوقت حتى تتمكن فرنسا من عمل شيئين : أولهما إتمام الاستعدادات البحرية الهامة ، وثانيهما محاولة ضم روسيا إلى مساعدتها . ولذا طلب من الإنجليز إمهاله بعض الوقت حتى يأتيه تقرير من مارشان ، وحتى يشرح له الكابتن براتييه الذى استدعى إلى باريس لحل الموقف . وفى الوقت نفسه أخذت فرنسا فى تحصين سواحلها حتى تكون فى حالة دفاع على الأقل . فأرسلت الذخيرة والجند على وجه السرعة إلى برست وشربورج ، وأعدت السفن بسرعة للعمل . وفى طولون كان العمل يجرى ليل نهار فى مراسى السفن ، وألغيت كل الأجازات . وأعيد كل الأسطول الموجود فى البحر المتوسط . ووضع تحت إمرة الأميرال فورنييه ، وهو من أقدر الضباط البحريين . وفى النهاية استطاع رئيس الجمهورية فوريه أن يقنع رئيسى اللجنتين الماليتين فى مجلسى

الشيوخ والنواب باعتماد صرف نحو مائة مليون فرنك بدون موافقة البرلمان ، وبدئ فى عملية إصلاح واسعة فى الأسطول .

وبينما كانت الأزمة فى أوجها أتى وزير خارجية روسيا إلى باريس فى ١٥ أكتوبر ، وتبعه بعد أيام قلائل وزير الحرب الروسى الجنرال كوروباتكين . ولم يُعرف إلى الآن ما دار فى المحادثات التى امتدت أياماً عديدة ، ولو أنه ليس من الصعب أن نخمن . فالعلاقات الفرنسية الروسية لم تكن على خير ما يرام فى ذلك الوقت . وكانت الجماعات السياسية فى فرنسا ، اليمينية منها واليسارية ، تشعر بخيبة أمل بالنسبة للتحالف مع روسيا ، وهو تحالف لم يبد أكثر من كونه ترتيباً للاحتفاظ بالوضع الراهن فى أوروبا ولاستدراج فرنسا إلى حظيرة السياسة الألمانية . وفى أغسطس سنة ١٨٩٨ أصدر القيصر الروسى بغير سابق اتفاق مع فرنسا منشوره الشهير للسلام . وأيقن الفرنسيون أن الروس لا يرغبون فى مساعدتهم ، ويتلخص رد الفعل العام فى الدوائر السياسية الفرنسية فى العبارة الآتية : تخلّوا عنا .

أما من ناحية الجانب الروسى فكان عدم الرضا أيضاً ظاهراً : ما فائدة حليف مشلول بمرض حاد كمسألة دريفوس ؟ ماذا يستطيع أن يفعل الإنسان بوزارة متطرفة فى السياسة مثل وزارة بريسون التى يعضدها رجال أمثال كليمنصو وجوريه ورانك وآخرون ممن يُعرفون بعدائهم للتحالف الروسى الفرنسى ؟

وأعلنت الصحافة الروسية كراهيتها للحكومة الفرنسية وعزمها على عدم مساعدتها . « عند ما يشعر الرجل بأن أمرأته لم تعد جميلة يبدأ فى الاعتقاد بأن مهرها كان ضئيلا » ، كتب هذا مراسل جريدة التيمس البريطانية فى باريس فى ١٤ أكتوبر مبيناً أنه لم يكن هناك فى الجهتين الروسية والفرنسية إلا السخط والتراشق بالتهم . وعلى العموم فإن وزير الخارجية الروسية أكد لدلكاسيه وزير الخارجية الفرنسية أن روسيا ستحترم التزاماتها ، ولكن تعبئتها العسكرية ستستغرق وقتاً طويلا ، وأسطولها لا يستطيع ترك موانئه فى الشتاء لتجمد

المياه . ولذلك فهو ينصح فرنسا بأنه من الخير لها أن تسلم بمطالب إنجلترا ، وخاصة لأن مستنقعات فاشودة ليست مسألة حيوية لفرنسا ، وبعد ذلك يمكن لروسيا أن تساعد فرنسا فى إثارة المسألة المصرية جميعها مرة أخرى .

ومن الصعب أن ندرك كيف يغيب عن بال أى شخص أن يفهم حقيقة الموقف بين روسيا وفرنسا بعد قراءة المقالات فى الصحف الفرنسية . فمثلا كتبت جريدة الشمس Soleil الفرنسية فى ١٣ نوفبر سنة ١٨٩٨ تقول : « لقد أرسلنا بحارتنا إلى كييل بمناسبة افتتاح قناة البلطيق ، وذلك لنرضى روسيا . ووافقنا بعد الحرب اليابانية الصينية على أن نستخرج الكستناء من النار لروسيا ، وبذلك استطاعت روسيا أن تكسب منشوريا وتحصل على مركز ممتاز فى بحار الصين بدون إنفاق روبل واحد (والروبل هو ريال روسى ويعادل عشرة قروش) ؛ وبدون المخاطرة بأى قوزاق ، (والقوزاق هو الفارس من جنوب روسيا) ، كما أعطينا روسيا مليارات عديدة من الفرنكات من احتياطنا الذى كان من الممكن أن ننتفع به فى الداخل . وفى مسألة فاشودة لم ترفع روسيا أصبعاً للدفاع عنا . وهى من غير شك تعتبر أنها ردت الخدمات التى أديناها لها ببعض البرقيات التى أرضت غرور مسيو فيلكس فوريه وببعض النياشين التى أرضت مسيو هانوتو » .

والمهم أن الحالة فى فرنسا وقتذاك كانت تدل على الحيرة والعجز التام . ففى وسط الاضطراب الداخلى وجدت فرنسا نفسها غير مستعدة عسكرياً وبدون المساعدة التامة من حليفتها . وكان الإنجليز عازمين على السير إلى نهاية الشوط . ولذلك لم يكن هناك أى حل للفرنسين غير التسليم . وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٩٨ بدأت الصحافة الفرنسية تتكلم عن القرار المنتظر . وناقش مجلس الوزراء الفرنسى الموضوع فى ٣ نوفبر . وفى مساء اليوم التالى أذاعت شركة هافاس الفرنسية البلاغ الرسمى الآتى : « قررت الحكومة الفرنسية سحب بعثة مارشان من فاشودة . وقد اتخذ مجلس الوزراء هذا القرار بعد دراسة عميقة للمسألة » . وبذلك عرف العالم أن فرنسا قررت الانسحاب من فاشودة بلا قيد ولا شرط .

وكان مارشان قد ترك قواته فى فاشودة وذهب إلى القاهرة عن طريق النيـــل ، بدون تصريح من باريس ، فأمر بأن يعود ثانية إلى فاشودة لينظم رحيل قواته . وكان عليه أن يترك المكان المتنازع عليه ويسافر عن طريق السوباط إلى الحبشة ومنها إلى الممتلكات الفرنسية على البحر الأحمر . وفى ١١ ديسمبر سنة ١٨٩٨ أنزل العلم الفرنسى نهائياً . ورحل مارشان ورجاله وبعد مشقة وصلوا إلى العاصمة الحبشية ، وفى الربيع كانوا فى باريس .

وبعد قرار الحكومة الفرنسية بالانسحاب من فاشودة ، ألقى تشمبرلين ، وكان بوق الامبرياليزم الاقتصادى والاستغلالى ، خطبة فى مانشستر فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٩٨ ، قال فيها إنه يأمل أن يكون الفرنسيون فى سحبهم مارشان قد اقتنعوا بالمبدأ الذى كانت بريطانيا تقاومهم من أجله وبوجاهة موقف الإنجليز . ثم انتقل تشمبرلين إلى أن مسألة فاشودة ما هى إلا رمز ، وأن المهم ليس المدينة نفسها وإنما السيطرة على وادى النيل . وذكر كلاماً كثيراً عن مصر ، وأن بريطانيا ضحت تضحيات عظيمة حتى وصلت مصر إلى درجة من الرفاهية وأن كل التضحيات التى بذلت تصبح عبثاً إذا وقعت منابع النيل فى يد دولة معادية ، أو دولة يحتمل فى أى ظرف من الظروف أن تتحول إلى دولة غير صديقة ، ثم يوجه تشمبرلين الكلام للسياسيين الفرنسيين فيقول إن على الساسة الفرنسيين أن يقلعوا عن خططهم التى نهجوا عليها سنوات طويلة ، والتى لا غرض لها إلا عرقلة السياسة البريطانية فى كل جزء من أجزاء العالم .

ويوخذ على هذه الخطبة الإشارة إلى التضحيات البريطانية من أجل مصر ، ويجوز أن يهضمها المستمع الإنجليزى ، ولكن هذه النغمة كان فى الإمكان أن نسمعها من أية دولة استعمارية أخرى . ففرنسا أو إيطاليا بلا شك كانت ترحب بتمثل تضحيات الإنجليز أو أكثر منها نظير السيطرة على كل وادى النيل . والواقع أن بريطانيا تذرعت بهذه الحجج فى تلك الأثناء ، لأن هذا

كان فى مصلحتها ، إذ جنبها عدم الانسحاب من مصر من جهة ، ومن جهة أخرى أفادها فى إبعاد الفرنسيين والبلچيكيين والأحباش وغيرهم عن منطقة أعالى النيل . وقد كان لحادثة فاشودة وقع شديد فى نفوس المصريين وأثر بالغ فى مصير المسألة المصرية وفى الحركة الوطنية فى مصر .

تبين لنا مما تقدم أن الأزمة السياسية اشتدت بين انجلترا وفرنسا على أثر هذه الحادثة ، وكان ظن المصريين أن تتمسك فرنسا بموقفها وتفتح باب المسألة المصرية وتضطر إنجلترا إلى الجلاء عن مصر مقابل جلاء الفرنسيين عن فاشودة . وقد استيقن المصريون أن آمالهم فى الجلاء ستتحقق ، إذ كانوا يعتقدون أن فرنسا لا تقدم على هذا التحدى لانجلترا إلا وهى مصرة على المضى فى سياستها إلى النهاية ، وكاد الخلاف بين الدولتين يصل إلى حرب طاحنة بينهما كما رأينا ، فعظم بذلك شأن المسألة المصرية ، وقويت آمال المصريين فى الاستقلال ؛ ولكن فرنسا تخاذلت وتراجعت آخر الأمر ، وخشيت مغبة الحرب إذ لم تتقدم حليفتها روسيا لمعاونتها ، فسلمت بوجهة نظر انجلترا ، وأمرت مارشان بالجلاء عن فاشودة ، وتم جلاؤه عنها يوم ١١ سبتمبر ١٨٩٨ . فكان هذا التسليم أكبر صدمة سياسية أصابت الحركة الوطنية فى مصر ، لأنه دلّ على أن فرنسا لا تنوى معارضة انجلترا فى احتلال وادى النيل والتصرف فيه كما تشاء ، ودل على نية الإنجليز فى دوام احتلالهم لمصر والسودان ، فزلزل هذا الحادث أمل المصريين فى الاستقلال وجنح بعض رجالات مصر إلى الولاء للاحتلال البريطانى واكتساب رضاه ، إذ رأوا فى حادثة فاشودة برهاناً جلياً على رسوخ أقدامه فى البلاد .

كتب مصطفى كامل إلى أخيه على ، وكان وقتئذ من ضباط حملة السودان كتاباً قال فيه : « . . . إن الأحوال السياسية سيئة للغاية بعد مسألة فاشودة ، وقد أظهر بعض الكبراء الجبن ، وكادوا يخونون بلاداً أحسنت إليهم بما

لا يحلم به غيرهم ، ولكنى ثابت على خطتى حتى الممات ، لأن اعتقادى أن ثمر الدفاع وإن لم يجنه المدافع الأول أو الثانى فلسوف يجنيه مصرى على مدى الأيام ، وأننا إذ لم نقتطف ثمر عملنا وجهادنا فى حياتنا ، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يبنى بعدنا » .

ولقد صدقت نبوءة مصطفى كامل ، إذ استطاعت مصر ، بعد كفاح طويل مرير ، وبعد قيام ثورة ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ أن تطرد المستعمرين الباغين ، وأن تتحرر من كل ألوان التسلط والاستغلال وأن تتبوأ مكانتها اللائقة بين دول العالم .

كتبت مدام جوليت آدم كثيراً عن حادثة فاشودة ، ومنه قولها فى مقالة لها فى فبراير سنة ١٩٠٤ عن أخطاء السياسة الفرنسية : « فاشودة ! إنها الضربة القاضية ! فقد قلت فى رسائلى قبلا أن غير واحد من ساسة فرنسا قد أفهم الخديوى والوطنيين المصريين أن فرنسا ستتدخل لصالح مصر سريعاً وبصفة حاسمة ، وأبانوا لهم أن بعثة مارشان هى الحاملة لراية استقلال مصر . فصاروا جميعاً يعتقدون أن تحرير وطنهم سيأتى من السودان . ولكن حادثة فاشودة قضت على آمال الوطنيين المصريين » .

إن لموضوع فاشودة أهمية كبيرة من الناحية الاستعمارية العامة ، ومن ناحية ارتباطه الوثيق بالمسألة المصرية ومسألة وادى النيل . وأصبح اسم فاشودة ، هذه القرية الصغيرة على النيل الأبيض ، علما بين وقائع التاريخ العالمى المعاصر ، ورمزاً لمنتهى ما وصلت إليه المنافسة الاستعمارية بين انجلترا وفرنسا ، ودليلا على ما كانت تستطيعه القوة البحرية من الفصل الحاسم فى الأمور والأزمات الدولية ، ونهاية عملية حقيقية لموقف المعارضة القوية الذى وقفته فرنسا بإزاء الاحتلال البريطانى لمصر . ولذا فموضوع فاشودة مهم من حيث التاريخ الدولى العالمى ، ولكنه يهم أبناء وادى النيل بصفة خاصة لما كان له من أثر فى تقوية دعائم النفوذ الإنجليزى فى هذا الوادى .

ولقد ظلت دراسة ذلك الموضوع من الناحية السياسية إلى السنوات القليلة الماضية قائمة على ما كتبه المعاصرون ، وما خلفه الذين اشتركوا فى مغامرة فاشودة من أمثال مارشان وكتشنر . ولذا كانت دراسة ذلك الموضوع من الناحية التاريخية العلمية دراسة مشوهة ناقصة ؛ يظهر فيها روح التحيز القومى وتمجيد الوطن ؛ سواء أكانت هذه الدراسة إنجليزية أم فرنسية ، فهى دائماً تميل ناحية معينة ، وإن كانت كلها لا تستطيع إخفاء النهاية التى انتهت إليها حادثة فاشودة بانتصار السياسة الإنجليزية وإذلال فرنسا .

على إبراهيم عبده

ما تكلفته مصر فى إنشاء قناة السويس

نجح دى لسبس فى التأثير على محمد سعيد والى مصر فاستصدر منه عقد امتياز نص فيه على الترخيص لدى لسبس فى إنشاء شركة تقوم بحفر قناة السويس واستغلالها لمدة ٩٩ عاماً تبدأ من تاريخ فتحها للملاحة البحرية الكبرى . وقد دلت الملابسات التى تمت فيها الموافقة على المشروع على أن سعيداً لم يكن يقدر مصالح مصر تمام التقدير وأنه كانت تعوزه حصافة الرجل السياسى وبعد نظره .

كان العقل والمنطق يقضيان بأن يدرس المشروع أولا من نواحيه الهندسية والمالية والسياسية ثم يصدر عقد الامتياز ولكن الذى حدث هو العكس تماماً فصدر العقد أولا ، ثم بدأت بعد ذلك الدراسات الفنية ومعرفة تكاليفه ، وسرعان ماتوالت المشكلات السياسية التى تمثلت أول ما تمثلت فى معارضة انجلترا لمشروع القناة .

والملاحظة الثانية التى نسجلها هنا وكان لها أثرها فى ما تكلفته مصر فى إنشاء القناة . هذه الملاحظة هى الصداقة الوثيقة التى كانت تربط بين الرجلين . وقد برزت هذه الصداقة شكلا وموضوعاً فى العقد . إذ تكرر لفظ الصداقة فى العقد أكثر من مرة :

« لما كان صديقنا المسيو فردينان دى لسبس قد وجه نظرنا إلى الفائدة التى سوف تعود على مصر من إيصال البحر المتوسط بالبحر الأحمر.... »

« إلى صديقى المخلص الكريم المحتد الرفيع المقام المسيو فردينان دى لسبس »

فالعنصر الشخصى كان مسيطراً على الموقف تمام السيطرة وكانت هذه السيطرة هى مكمن الخطورة ، فظهر عقد الامتياز حافلا بامتيازات خطيرة مجحفة بحقوق مصر . نذكر منها على سبيل المثال منح الشركة أراض شاسعة فى منطقة القناة وعلى ضفتى ترعة الماء العذب التى تحفرها الشركة من القاهرة

إلى بور سعيد والسويس ، أى أن الشركة تصبح مالكة لأراض مترامية الأطراف فى مديريتى القليوبية والشرقية ومنطقة القناة من شمالها إلى جنوبها . وما هى العلاقة بين إنشاء قناة السويس وبين تملك أراض شاسعة فى منطقة لها أهميتها العسكرية فى إقليم مصر وتسيطر على الطريق بين الشرق والغرب لتقوم الشركة باستغلالها واستعمارها ، إذ تستطيع أن تستقدم جاليات فرنسية وتتمتع الشركة ، بفضل نظام الامتيازات الأجنبية الذى كان قائماً فى مصر فى ذلك الوقت ، باستقلال فى التشريع والقضاء والإدارة وغير ذلك مما يتيح لها بسهولة وسرعة وبتأييد من باريس أن تبسط سلطانها على هذه المساحات الشاسعة وهو أمر يؤدى فى النهاية إلى قيام حكومة داخل الحكومة المصرية . ولا يعزب عن البال أن الإمبراطورية البريطانية فى الهند قد قامت على أكتاف التجار ولم تقم على أكتاف العسكريين . فقد نزل الإنجليز فى الهند أول الأمر تجاراً ثم اكتسبوا امتيازات تجارية وتطور موقفهم فامتلكوا الأراضى وأشرفوا على الإيرادات وانتهى بهم الأمر إلى أن غدوا سادة حكاماً . وهذا الدور حاولت شركة القناة القيام به فعلا إذ استقدمت أميراً عربياً موالياً لفرنسا وحاولت تنصيبه أميراً على الأراضى التى تمتلكها . ولولا المعارضة العنيفة التى قامت فى ذلك الوقت لوقع الخطب ولكانت الحكومة المصرية أمام الأمر الواقع .

ومن الامتيازات العجيبة التى وردت فى العقد أن منحها سعيد باشا حق بيع ماء النيل للفلاحين الذين يملكون أراض زراعية ويرغبون فى ريها مستقبلا من ترعة الماء العذب التى تعتزم الشركة حفرها . كما تتمتع الشركة بحق الإعفاء الجمركى على جميع الأدوات والمهمات التى تستوردها من الخارج بقصد استغلال الامتياز الممنوح لها ، وللشركة أيضاً أن تستخرج بدون مقابل جميع المواد اللازمة لأعمال القناة والمبانى التى ستكون تابعة لها من المحاجر والمناجم الأميرية .

وقد علق روسّى Rossetti قنصل توسكانا فى مصر على الامتيازات التى وردت فى هذا العقد فقال فى تقرير أرسله إلى وزير خارجية فلورنسا بتاريخ ٢٥ ديسمبر ١٨٥٤ « ولم يحدث مطلقاً ياصاحب المعالى أن ظفرت شركة بمثل هذه الامتيازات العظيمة و بمثل هذا السخاء من أية حكومة كانت» . أما كرابيتس Crabites فقال فى شىء من التهكم المرير : « من الغريب أن سعيداً لم يطالب صديقه بأى ثمن مقابل الامتيازات التى منحها إياه بل باع إرث الفراعنة لرجل فرنسى وقبض الثمن ابتسامة زائلة » .

ولم تكد تمر ثلاثة أسابيع على صدور عقد الامتياز حتى كانت الأموال المصرية تنساب فى يسر وسرعة وسخاء لخدمة المشروع ورجال المشروع ومن لاذ بالمشروع . فقد طلب دى لسبس إلى سعيد ، بعد أن ظفر بالعقد ، أن تنظم له الحكومة رحلة يرتاد فيها منطقة البرزخ لدراسة مشروع القناة على الطبيعة ، واستجاب سعيد ، وشاء الكرم الشرقى أن تتكفل الحكومة المصرية بجميع نفقات الرحلة . وقد رافق دى لسبس فى هذه الرحلة لينان بك وموجل بك كبيرا مهندسى الحكومة المصرية وعدد من المهندسين والرسامين والكتبة والأدلاء ومن إليهم . وكان عدد الجمال التى خصصت لنقل ماء الشرب فقط خمسين جملا . واستغرقت الرحلة ثلاثة أسابيع . وكانت هذه الرحلة أول إسهام فعلى من الحكومة المصرية على عهد محمد سعيد فى سبيل إنشاء القناة . هذا إذا تجاوزنا عن نفقات استضافة دى لسبس فى الإسكندرية عند وصوله إليها من فرنسا بحجة تهنئة سعيد على توليه الحكم ، وقد خصص لإقامته قصر المحمودية .

ولما انتهت الرحلة فى ١٥ يناير ١٨٥٥ ترك دى لسبس كبيرى المهندسين يعدان تقريرهما وأبحر من الإسكندرية فى ٢٧ يناير ١٨٥٥ إلى القسطنطينية يلتمس تصديق السلطان عبد المجيد على عقد الامتياز . ولكنه لم ينجح بسبب المعارضة الإنجليزية لمشروع القناة ، وقد حمل لواءها فى القسطنطينية السير

ستراد فورد دى ردكليف Sir Stradford de Redcliffe سفير انجلترا هناك فعاد إلى مصر . . . .

واتفق دى لسبس مع سعيد على تكوين لجنة علمية دولية تتكون من أساطين الهندسة فى دول أوربا لدراسة تقرير لينان بك وموجل بك . وأقلع إلى فرنسا يلتمس تأييد الإمبراطور وحكومته ثم ذهب إلى انجلترا محاولا التغلب على معارضة الحكومة الإنجليزية لمشروع القناة . وانتهز فرصة وجوده فى أوربا فكون اللجنة العلمية الدولية من أعضاء يمثلون سبع دول .

وجاء خمسة من أعضاء اللجنة إلى مصر بحجة دراسة المشروع على الطبيعة ومن الغريب أن دى لسبس دعا كثيراً من أصدقائه ومعارفه فى فرنسا إلى السفر إلى مصر مع أعضاء اللجنة حتى ضاقت بهم السفينة أزوريس Osiris التى أقلتهم إلى مصر . ويقول لينان بك إنه لو استجاب جميع الذين وجهت إليهم الدعوة لتطلب الأمر استئجار عدة سفن يبحرون عليها إلى مصر ولازدحمت بهم جميع فنادق مصر ! ولا بد أن نشير إلى هذه الحقيقة : وهى أن دى لسبس لم يكن من رجال الأعمال حتى يستطيع استضافة العدد الضخم من المدعوين من ناحية وحتى يستطيع هو شخصياً التنقل بكثرة بين مصر وتركيا وفرنسا وانجلترا والنمسا وإيطاليا وغيرها من ناحية ثانية . لقد كان موظفاً فى وزارة الخارجية الفرنسية ثم أحيل إلى الاستيداع لأمور نسبت إليه ، ولم يكن معاشه أو راتبه ليكفيه مؤنة العيش ، فلجأ إلى حماته مدام دى لامال Mme de la Malle يعيش معها فى الريف الفرنسى حيث كانت تمتلك قطعة أرض أشرف على استغلالها . ولكن دى لسبس كان يعلم أن مدعويه سينزلون فى رحاب الوالى ، وأن مصر هى التى تتحمل نفقات هذه النزهة ، فخزانة الوالى هى خزانة الحكومة المصرية . وفعلا فتح لهم سعيد اعتماداً قدره ١٢ ألف جنيه للإنفاق عليهم ، وأضفى عليهم الكثير من مظاهر التكريم ودعاهم إلى النزهة التقليدية لزيارة آثار مصر فى الوجه القبلى ولقضاء شطر

من الشتاء فى صعيد مصر . وانتقد لينان بك هذا التصرف وتساءل عن الفائدة التى عادت على مصر من هذه النزهة وقد رافقهم فيها وقال عنها « إن الموائد التى قدمت للضيوف طوال الرحلة قد حوت أطيب أنواع الخمور وأشهى المأكولات بكميات وفيرة » .

وبعد مضى أكثر من شهر على قدومهم بدأوا فى المهمة التى من أجلها قدموا ، فزاروا منطقة القناة زيارة عابرة من السويس واتجهوا شمالا إلى البحر المتوسط ثم استقلوا الباخرة المصرية « النيل » إلى الاسكندرية فبلغوها فى أول يناير ١٨٥٦ وفى اليوم التالى قدموا إلى سعيد تقريراً موجزاً قرروا فيه أن حفر القناة سهل ونجاحها مؤكد وأن تكاليف المشروع من كافة نواحيه لا تتجاوز ٢٠٠ مليون فرنك على ماذهب إليه كبيرا مهندسى الحكومة المصرية فى تقريرهما .

ولم تمض ثلاثة أيام حتى أصدر سعيد باشا فى ٥ يناير ١٨٥٦ وثيقتين هامتين هما عقد الامتياز الثانى وقانون الشركة الأساسى مما يدل دلالة قاطعة على أن هاتين الوثيقتين كانتا معدتين لتوقيع سعيد باشا عليهما قبل أن تقدم اللجنة تقريرها الموجز إليه . إذ لا يعقل أن يوضع عقد الامتياز الثانى متضمنا ٢٣ مادة وقانون الشركة الأساسى حاوياً ٧٨ مادة فى خلال يومين . فالأمر لم يكن سوى تمثيلية أعدها دى لسبس مع أعضاء اللجنة للتمويه على سعيد ، وأن النية كانت مبيتة على اغتيال حقوق مصر وأموالها وجهود شبابها والاستيلاء على مساحات شاسعة من أراضيها الزراعية والصحراوية لأغراض استعمارية .

جاء عقد الامتياز الثانى على غرار العقد الأول حافلا بالإمتيازات التى أغدقت على الشركة إغداقاً ، بل إن الامتيازات التى وردت فى العقد الثانى فاقت ما جاء فى العقد الأول كما وكيفاً .

وتوالت المساعدات المصرية للمشروع فاتفق دى لسبس مع سعيد على

أن تنفق الحكومة المصرية على جريدة يصدرها باسم L'Isthme de Suez برزخ السويس للدعاية للمشروع فى أوربا . وكانت تصدر نصف شهرية ، وظهر العدد الأول منها فى ٢٥ يونيو ١٨٥٦ ثم اتفق معه على إصدار طبعة منها باللغة الإيطالية .

وما لبث أن استصدر دى لسبس من سعيد فى ٢٠ يوليو ١٨٥٦ لائحة عرفت باسم (لائحة استخدام العمال الوطنيين فى حفر قناة السويس) وتطبيقاً لهذه اللائحةسيق المصريون إلى ساحات الحفر زمراً لشق القناة وفق نظام السخرة .

وكان تدخل الحكومة لجمع العمال أمراً مألوفاً فى ذلك الوقت وكثيراً ماجرى عليه العمل فى مصر مع فارق واحد هو أن الحكومة كانت تجمع العمال لتنفيذ مشروعات تقوم هى بها من أجل المصلحة العامة كحفر الترع أو مد الخطوط الحديدية أو إصلاح جسور النيل درءاً لأخطار فيضان عال . فالسخرة يمكن اعتبارها من هذه الناحية نوعاً من الضرائب ، لأن الضرائب قد تؤدى نقداً أو عيناً أو عملا . والحالة الاقتصادية السائدة فى أى بلد هى التى تحدد الأسلوب الذى تؤدى به الضرائب .

وقد أراد دى لسبس أن تتدخل الحكومة لجمع مئات الألوف من العمال المصريين وإكراههم على العمل فى حفر القناة . وهذا هو وجه الخطأ . لأن مشروع القناة يخضع للقانون العام ، ويترتب على ذلك أن تكون الشركة هى المكلفة بالقيام بنفسها بتدبير وسائل تنفيذ المشروع ، فتحصل على جميع العمال الذين تتطلبهم عمليات الحفر وفق الطريقة الحرة التى تقوم على عرض من مندوب الشركة وقبول من ناحية العامل بعد الاتفاق على الأجر وساعات العمل وما إلى ذلك . وأراد دى لسبس أن يسجل تدخل الحكومة لجمع العمال من أجل حفر القناة فى وثيقة رسمية تأميناً لمصالح الشركة فاستصدر من سعيد لائحة العمال . وهكذا غدا سعيد باشا أداة طيعة لينة فى يد صديقه دى لسبس الذى ظفر بالوثيقة الرسمية الرابعة فى أقل من عامين بعد صدور عقد الامتياز الأول ثم الثانى ثم قانون الشركة الأساسى .

وأظهر دى لسبس براعة فى صياغة مواد هذه اللائحة إذ تجنب أن يضمنها لفظ السخرة إطلاقاً وإن كانت بعض موادها تفيض بها معنى وروحاً. وهكذا كانت براعة دى لسبس لا تبرز إلا فى مجال الخداع والتدليس والتلاعب بالألفاظ ليخفى وراءها ما يبيته من تسخير الشعب المصرى فى حفر القناة. وقد قرر ثلاثة من أقطاب القانون فى فرنسا(١) فى نوفمبر ١٨٦٣ أن الإبقاء على هـــذه اللائحة إنما هو إبقاء للسخرة لأن اللائحة والسخرة مرتبطتان بعضهما ببعض بعروة وثقى لا انفصام لها.

ويكفى أن نذكر هنا — نظراً لضيق المقام. المادة الأولى من هذه اللائحة، فقد نصت على أن « تقدم الحكومة المصرية العمال الذين سيعملون فى أعمال الشركة تبعاً للطلبات التى يتقدم بها كبير مهندسى الشركة وطبقاً لاحتياجات العمل ». كانت هـــذه أخطر مادة على الإطلاق فى اللائحة وظاهر فيها الغبن الذى وقع على الشعب المصرى : إذ كانت مادة مرنة ناقصة. لم تحدد عدد العمال، ولم تعين حداً أقصى لعددهم لا يجوز تجاوزه بأية حال من الأحوال، ولم توزع حشد العمال على مواسم الزراعة بنسبة معينة، بل جعلت تقديم العمال المصريين إلى الشركة منوطاً برغبة كبير مهندسيها وهو مستخدم فرنسى كان يؤثر مصلحة الشركة على مصالح الشعب. وقد قرر أنه كان يحصل على العمال بمجرد طلب بسيط يقدمه إلى مديرى الأقاليم. وهكذا أخضع سعيد مديرى المديريات ووزارة الداخلية لسلطة مستخدم فرنسى فى شركة القناة. ولم يكن دى لسبس ليقنع بعشرين ألف عامل بل كان يسأل الحكومة إلحافاً أن ترسل إلى ساحات الحفر أربعين ألفاً. ويقول كلفن Colvin إن سعيد باشا قد جلب الشقاء على الفلاحين بل كان من أكبر العاملين على إتعاسهم بسبب امتياز قناة السويس الذى فرض عليهم السخرة فى أشد حالاتها وأبعدها عن المكافأة.

---

(1) Note consultative pour Sor Altesse Ismaïl Pacha. Vice Roi d'Egypte, délibéreé par Mtes. Odilon Barrot, Dufause et Jules Favre, en date du 30 november 1863.

وضع سعيد فى خدمة الشركة وسائل النقل الحكومية من سكك حديدية وسفن نيلية . فعلى الرغم من أن لائحة العمال قد نصت على أن تتكفل الشركة بنفقات سفر العمال إلى ساحات الحفر إلا أن سعيد باشا رضى أن تتحمل الحكومة عن الشركة هذه النفقات . وكانت هذه حلقة جديدة فى سلسلة الخدمات التى أسدتها مصر إلى الشركة .

ووضع ضباط البوليس أيضاً فى خدمة الشركة فكانوا يرافقون أفواج العمال فى سفرهم من بلادهم إلى الزقازيق – نهاية الخط الحديدى فى ذلك الوقت . وقد اتخذت الزقازيق مركزاً لتجمع العمال . وهناك يتسلمهم مندوب الشركة من ضابط البوليس بعد أن يوقع إقراراً بعدد أفراد الفوج . وفى الزقازيق يربط المصريون بالحبال فى أيديهم ، بعضهم إلى بعض ليستأنفوا السفر سيراً على الأقدام إلى منطقة القناة تحت الحراسة الشديدة من بوليس الهجانة . وكانوا يقطعون المسافة الأخيرة فى أربعة أيام . ويقول سائح فرنسى إنه شاهد صباح أحد الأيام فى شهر ديسمبر ١٨٦٢ جموعاً كثيفة من العمال يجتازون الصحراء ولاحظ أن طلائعهم الأولى قد اختفت عن الأنظار بينما كانت صفوف متراصة منهم لا تزال فى صف طويل متجهة شطر منطقة القناة .

وسخرت الحكومة جنود الجيش فى حفر القناة ونار الجند وأعلنوا العصيان ووقعت حوادث دموية بينهم وبين الفرنسيين من رؤساء ساحات الحفر . وخفض سعيد عدد القوات المسلحة المصرية بحجة التخفيف عن كاهل الميزانية ، وأرسل الجنود المسرحين والشبان المقترعين إلى صحراء البرزخ لحفر القناة وهكذا كانت القناة سبباً فى اضمحلال الجيش المصرى فى ذلك الوقت .

ولم تقف عمليات الحفر خلال أشهر رمضان ، فكان العمال ينامون نهاراً ويحفرون القناة ليلا على أضواء المشاعل .

ومات الآلاف من المصريين عطشاً فى ساحات الحفر إذ فشلت الشركة

فى توفير ماء الشرب خلال السنوات الأربع الأولى ، لأنها بدأت فى حفر قناة السويس قبل أن تشرع فى حفر ترعة الماء العذب كما كان مقرراً . واعتمدت على وسيلة بدائية هى ماء الآبار تنقلها الجمال إلى العمال ، ويقول أحد الفرنسيين المعاصرين : «كانت قوافل الجمال التى تحمل الماء تصل متأخرة نتيجة أوامر أسىء إعطاؤها أو أسىء فهمها أو أسىء تنفيذها» وهكذا شهد شاهد من أهلها . كان الموت يدرك العمال قبل أن يدركهم ماء الآبار . مما جعل هذه السنوات الأربع من أحلك الفصول سواداً فى تاريخ الشركة .

وانتشرت الأوبئة بين العمال المصريين وفتكت بهم فتكاً ذريعاً . وكان فى مقدمتها التيفود والتيفوس والكوليرا والحمى الراجعة والجدرى . ونستقى هذه المعلومات من مصادر الشركة نفسها إذ كان كبير أطباء الشركة يضع تقريراً فى نهاية كل عام يستعرض فيه الحالة الصحية بين العمال . وقد قرر فى أحد تقاريره أن زمام الموقف كاد يفلت من الشركة وأنه مرت بها فترة عصيبة إذ عجزت عن أن تجد رجالا يحملون جثث الموتى فأمرت عدداً من مستخدميها فى قسم الحسابات برفع جثثهم .

تسربت أنباء تلك المآسى إلى الخارج حتى أصبح تسخير المصريين فى حفر القناة فضيحة عامة a public scandal كما قال بحق مؤرخ مصر الخديوية ادوارد ديسى Edward Dicey وقد ذكر أيضاً أنه كثيراً ما أسىء استخدام السخرة فى مصر حتى غدا سوء استخدامها أمراً عادياً فى هذه البلاد ولكن لم يحدث مطلقاً أن أسىء تطبيقها كما حدث فى حفر قناة السويس . وأكد أنه لو استمر حفر القناة بسير سنوات أخرى على هذا الأسلوب لنقص عدد سكان مصر نقصاناً خطيراً . إنها جزية فرضتها شركة القناة على البلاد ، وكانت استغلالا لشعب بأسره من أجل خدمة مصالحها . ويقول جول فافر Jules Favre أحد وزراء فرنسا السابقين تعليقاً على هذا التجنيد : إن الولاة من أسرة محمد على يحكمون مصر طبقاً لفرمان سنة ١٨٤١ ولكنهم

لا يمتلكون المصريين كما يمتلك الإنسان قطيعاً من الغنم أو عقاراً تنتقل ملكيته من شخص إلى آخر .

حدثت هذه التعبئة المدنية التى فرضت على الشعب المصرى من أجل إنشاء القناة فى وقت لاحت فيه للاقتصاد المصرى فرصة ذهبية نادرة . فقد قامت الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١ – ١٨٦٥) وتعذر تصدير القطن الأمريكى إلى انجلترا وأوقف العمل فى عدد من مصانع الغزل والنسج فى انجلترا ، ووقعت فيها أزمة اقتصادية خانقة أطلق عليها « المجاعة القطنية » وبلغ عدد العمال الإنجليز المتعطلين فى مصانع الغزل والنسيج ٣٣٠,٦٦٤ عاملا وطالب الرأى العام الإنجليزى حكومته باستيراد القطن من جهات أخرى . فأوفدت الحكومة الإنجليزية ، بالاشتراك مع جمعية استيراد القطن فى مانشستر بعثة اقتصادية إلى مصر . وقدمت البعثة عروضاً مغرية للتوسع فى زراعة القطن وأبدت استعدادها لشراء جميع الأقطان التى تزرعها مصر بأسعار مجزية للغاية . ولكن سعيد باشا عالج الموقف على وجه معكوس . كان المفروض أن يمسك يده ولو قليلا عن الشركة ويستبقى جانباً من عمال السخرة فى الحقول يزرعون القطن الذى ارتفعت أسعاره ارتفاعاً جنونياً . ولكن زاد التدفق الآدمى على ساحات الحفر بعد وصول البعثة حتى وصل إلى ذروته فى السنوات التالية وارتفع عدد العمال إلى ٢٢ ألفاً كل شهر . وقد جاء فى تقرير رئيس البعثة الاقتصادية الإنجليزية أنه لاحظ فى كل جهة من الجهات التى زارها فى مصر وجود مساحات كبيرة من الأرض دون استغلال .

وفى الواقع كانت فى مصر فى ذلك الوقت أراض غير ذات زرع بسبب نقص الأيدى العاملة الزراعية ، واعترف سعيد بهذه الحقيقة فى مذكرة أرسلها إلى الحكومة التركية . وحاول إسماعيل فى مستهل حكمه معالجة مشكلة نقص الأيدى العاملة الزراعية باستقدام عمال من الصين والهند يقيمون فى الأراضى الزراعية ويتولون استغلالها . وهكذا أعاقت أعباء السخرة فى حفر القناة

إلى حد كبير إنتاج القطن كما أنها حجبت عن البلاد نعمة الانتفاع بارتفاع أسعار القطن . وقد تعرض لايارد Layard وكيل وزارة الخارجية البريطانية لهذا الموضوع في جلسة أول أغسطس ١٨٦٢ بمجلس العموم البريطاني فقال : « إن عدداً من الرجال يتراوح عددهم بين سبعين ألفاً وثمانين ألفاً قد انتزعوا من أعمالهم التي يؤدونها في قراهم ليساعدوا في إنشاء قناة السويس . إن هذه الخطة لابد أن تؤدي إلى بؤس عظيم . وتتعارض بشكل جدي وخطير مع الأعمال الأخرى التي تدر أرباحاً كثيرة مثل إنتاج القطن ... وقد قدر نوبار ما خسرته مصر كل سنة بسبب ذلك بأربعين مليون فرنك أي ما يقرب من مليون وستمائة ألف جنيه . وقالت بحق جريدة التيمس Times في هذا الصدد « إن رخاء مصر قد أفسده نزع الفلاحين قهراً من حقولهم ونقلهم إلى البرزخ بطريقة ظالمة غير قانونية »

* * *

وإذا انتقلنا من هذه المعاونة الآدمية الهائلة التي كلفت مصر عدة ملايين من الجنيهات خسرها الاقتصاد المصري في تلك السنوات ، نجد الأموال المصرية قد أنفقت في سخاء وسذاجة على تنفيذ المشروع وتدعيم مركز الشركة المالي المتداعي في ذلك الوقت . فقد عجز دي لسبس عن أن يبيع جميع أسهم الشركة حين طرحها للاكتتاب العام وبقي لديه أكثر من ربع مجموع عدد الأسهم على الرغم من أنه خصص لمصر بادئ ذي بدء ٦٤ ألف سهم ثمنها ٣٢ مليون فرنك . ولكنه عول على إخفاء الفشل الذي مني به وأعلن كذباً وزوراً وبهتاناً أن رأس مال الشركة قد غطي بأكمله وأن الشركة تبعاً لذلك قد استكملت عناصر وجودها وألفت الشركة نهائياً في ١٥ ديسمبر ١٨٥٨ . وانتهك في هذه الخطوة قانون الشركة الأساسي انتهاكاً صارخاً إذ نصت المادة الرابعة على أن تأليف الشركة لا يتم إلا بعد تغطية رأس المال بأكمله . وما لبثت أن استفاضت الشائعات في أوربا بهذه الحقيقة وهي أنه قد

بقى فى حوزة الشركة عدد كبير من الأسهم دون بيع بسبب امتناع انجلترا والنمسا بوجه خاص عن الاكتتاب فى أسهم الشركة . وقد أشاعت هذه الأنباء الاضطراب فى نفوس مسهمى الشركة فاضطر دى لسبس إلى أن يكشف عن حقيقة الموقف محاولا أن يرجعه إلى أسباب عسكرية حربية وهو تبرير واه ضعيف . فقد أعلن فى الاجتماع الأول للجمعية العامة لمسهمى الشركة والذى عقد فى ١٥ مايو ١٨٦٠ أنه بسبب اندلاع الحرب فى أوربا فى مستهل عام ١٨٥٩ أن نشأت حالة قهرية اضطربت فيها العلاقات المالية مع كثير من أصحاب المصارف الذين توقفوا عن الدفع ، ثم قال : « ولهذا اتفقنا مع الوالى كى يأخذ لحسابه نهائياً الأسهم المخصصة لأصحاب المصارف الأجنبية والذين حالت الظروف القهرية عن الوفاء بالتزاماتهم » . وكان هدف دى لسبس من هذا التصريح غير الصحيح هو بث الطمأنينة فى نفوس المسهمين من ناحية ووضع سعيد باشا أمام الأمر الواقع من ناحية ثانية . ولذلك ما كاد ينتهى اجتماع المسهمين حتى حضر إلى مصر وعرض على سعيد ابتياع الأسهم المتبقية لدى الشركة فرفض سعيد أول الأمر ولكنه عاد بعد ذلك بيومين فاستجاب إلى ملتمس صديقه وقبل الأسهم المعروضة وأصبح مجموع الأسهم التى فرضت على مصر ١٧٧٦٤٢ سهما قيمتها الإسمية وقت الاكتتاب ٨٨,٨٢١,٠٠٠ فرنك أى مايقرب من ٣,٥٥٢,٨٤٠ جنيهاً وكان عدد الأسهم يوازى ٤٤ ٪ من قيمة رأس مال الشركة وأصبحت مصر ثانى بلد فى العالم بعد فرنسا من حيث ملكيتها لعدد الأسهم . واستمر ضغط دى لسبس على سعيد حتى استطاع أن يستصدر منه اتفاقاً رسمياً بهذه الصفقة بتاريخ ٦ أغسطس ١٨٦٠ وكان هذا الاتفاق هو بدء التزامات مصر المالية نحو شركة القناة . ويقول مؤرخ قصة الخديوية فى مصر إنه لولا المساعدات المالية التى ظفرت بها شركة القناة على حساب مصر لاستحال على الشركة أن تستكمل مقوماتها ودعاماتها وقرر أن الدعاة الفرنسيين لم يقبلوا الاعتراف

بهذه الحقيقة . ولكن شارل روفرنسوا أحد مؤرخى القناة المناصرين لدى لسبس اعترف بجانب من هذه الحقيقة فى سنة ١٩٣٦ إذ قال : « إلى سعيد باشا والى مصر يعود فضل أكبر خاتمة أسداها لشركة القناة حين سد الثغرات التى حدثت فى عملية الاكتتاب » .

ومع ذلك فإن مصر لم تنعم بهذه الأسهم : فقد تفاقمت الأزمات المالية بالحكومة المصرية على عهد اسماعيل تفاقما أدى به إلى التفكير فى بيعها . وقام تسابق بين انجلترا وفرنسا على الفوز بهذه الأسهم واستطاع دزرائيلى رئيس الوزارة البريطانية أن يكسب الجولة فاشتراها فى سرعة خاطفة من اسماعيل فى نوفمبر ١٨٧٥ بمبلغ إجمالى قدره أربعة ملايين من الجنيهات .

ووضع مجلس العموم البريطانى أمام الأمر الواقع . وكان لهذه الصفقة طابعها السياسى بجانب طابعها المالى . واتضح بعد إبرام الصفقة أن مصر لم تكن تمتلك كل الأسهم التى اكتتب بها أول الأمر وأنها تصرفت فى ١٠٤٠ سهماً فخصم ثمنها من الصفقة وهبط المبلغ إلى ٣,٩٧٦,٥٨٢ جنيهاً . ومع ذلك فإن الحكومة الإنجليزية قد استردت من الحكومة المصرية الجزء الأكبر من هذا المبلغ بطريقة ماكرة خادعة ، إذ كان اسماعيل قد تنازل لشركة القناة طبقاً لاتفاقية ٢٣ أبريل ١٨٦٩ عن فوائد أسهم مصر لمدة خمسة وعشرين عاماً تنتهى فى ١٨٩٤ . فلما باعت مصر أسهمها لإنجلترا طلبت الأخيرة أن تدفع لها مصر فوائد بنسبة ٥ ٪ من قيمة الثمن مقابل حرمان الحكومة الانجليزية من أرباح الأسهم طوال هذه المدة .

وأذعنت الحكومة المصرية لهذا الطلب وأخذت تدفع لانجلترا الفوائد المطلوبة سنوياً . وقدر البعض أن مجموع الفوائد التى تسلمتها انجلترا من مصر منذ أن تم عقد الصفقة حتى ١٨٩٤ قد بلغ ٣,٨٣٣,٤٨٤ جنيهاً فكأن مصر قد باعت أسهمها لانجلترا بمبلغ ١٤٣,٠٩٨ جنيهاً ! ومنذ ذلك التاريخ إلى أنه

أممت شركة القناة فى ٢٦ يونيو ١٩٥٦ انساب أكثر من مائة مليون جنيه فى خزانة الحكومة الانجليزية قيمة أرباح أسهم مصر .

• • •

وقد سبقت مأساة بيع الأسهم لانجلترا عدة مآسى مالية جسيمة أخرى تحملتها مصر . وكان من بينها التعويض المالى الضخم الذى حكم به نابليون الثالث إمبراطور فرنسا بتاريخ ٦ يوليو ١٨٦٤ على أثر النزاع الذى قام بين الحكومة المصرية على عهد اسماعيل وبين الشركة . فقد تطور هذا النزاع تطوراً أدى إلى أن طلب اسماعيل تحكيم الإمبراطور . وقد جانب إسماعيل التوفيق فى هذه الخطوة لأن نابليون الثالث كان قد احتضن مشروع القناة منذ أن ظفر دى لسبس بعقد الامتياز الأول إذ لم تكد تمر ثلاثة أسابيع على صدور هذا العقد حتى منح سعيداً وسام الشرف تقديراً منه لسعيد . ورأى الإمبراطور أن قناة السويس مشروع قومى فرنسى يعلى من شأن فرنسا فى ربوع الشرق وإنها فكرة نابليونية انحدرت إليه من عمه الإمبراطور نابليون بونابرت . وكان عدد من الصحف الفرنسية يطالب السلطات العليا فى فرنسا فى ذلك الوقت بوجوب رعاية مصالح الفرنسيين الذين اكتتبوا بنصيب موفور فى أسهم الشركة . يضاف إلى ذلك أن دى لسبس كان يفزع إلى الإمبراطور كلما تعرضت الشركة لأزمة سياسية مستحكمة يلتمس تدخله لنصرة أصحاب رءوس الأموال الفرنسية التى أسهمت فى المشروع .

وانتهز دى لسبس فرصة تحكيم الإمبراطور وطالب بتعويضات خيالية بلغت ١٠٧ مليون فرنك أى أكثر من نصف رأس مال الشركة وأن تتنازل الحكومة المصرية لها عن نصيبها المقرر فى الأرباح وقدره ١٥ من صافى أرباح الشركة . ولذلك لم يكن عجيباً أن يصدر الإمبراطور حكماً جائراً بأن تدفع مصر للشركة تعويضاً قدره أربعة وثمانون مليون فرنك أى ما يساوى ثلاثة ملايين وثلاثمائة وستين ألف جنيه فى مقابل إلغاء السخرة فى حفر

القناة واسترداد جزء من الأراضى وترعة الماء العذب التى حفرتها الشركة من القصاصين إلى مدينة السويس فى حين أن المصريين هم الذين سخروا فى حفرها وقد بلغ عددهم طبقاً لإحصاءات الشركة ١٥٥,٨٩٣ مصرياً . وقد ذكر روشتين Rochstein أن هذا الحكم لم يكن غير سرقة من سرقات عدة أذعنت فيها مصر لأوربا المستنيرة الفاضلة . وقد علق رئيس لجنة التحكيم على ضخامة هذا التعويض الذى اقترحه وأخذ به الإمبراطور — علق تعليقاً غريباً إذ قال إن باشوات مصر وسراتها ينفقون كل عام على مسراتهم وعلى أمور غير مجدية مبالغ أكثر من هذا التعويض .

ويجدر بنا أن نصحح هنا خطأ شائعاً وقع فيه المؤرخون والكتاب فقد قرروا أن التعويض الذى تقرر على مصر فى مقابل إلغاء السخرة هو ٣٨ مليون فرنك . والواقع أن لجنة التحكيم قررت هذا التعويض بمبلغ ٤٢,٥ مليون فرنك وأقر الإمبراطور هذا التقدير . وقد وجدت اللجنة أن على الشركة أجوراً متأخرة للعمال المصريين بلغت فى تقدير اللجنة أربعة ملايين ونصف مليون فرنك ورأت أن تخصم هذه الأجور المتأخرة من مبلغ التعويض الذى تقرر عن إلغاء السخرة فأصبح صافى المبلغ المتعين دفعه هو ٣٨ مليون فرنك . وقد استخدم رجال القانون من أعضاء اللجنة الدهاء فى صياغة الحكم لإخفاء حقيقة المبلغ الذى تقرر تعويضاً عن إلغاء السخرة فهو يبدو للقارئ العادى لمنطوق الحكم أو للباحث المتعجل أنه ٣٨ مليون فرنك والحقيقة أنه ٤٢,١٥ مليون فرنك .

وإلى جانب هذه التعويضات الضخمة تضاف نفقات أخرى باهظة دفعتها مصر وتتمثل فى أربع نواحي : الناحية الأولى هى الرشا التى قدمت إلى السلطان عبد العزيز وإلى والدته ، وقدم لها نوبار باسم اسماعيل قلادة ماسية ثمنها عشرة آلاف جنيه استرلينى ، وإلى رجال البلاط والوزراء . وقد صدر بشأنهم أمر من اسماعيل إلى نوبار بألا يراعى الاقتصاد فى ثمن الهدايا

التى تقدم لهم . وخص فؤاد باشا الصدر الأعظم ثلاثون ألف قطعة ذهبية من العملة المجيدية لم يقبلها إلا بعد أن أذن له السلطان فى قبولها . وكذلك الرشا التى قدمها نوبار إلى موظف فى السفارة البريطانية فى القسطنطينية هو ستيفنس Stephens السكرتير الخاص للسفير ، وإلى موظف فى السفارة الفرنسية هو أوترى Outrey المترجم الأول بها . وكان كل منهما يطلع نوبار على بريد السفارة . وقد قدمت هذه الرشا أثناء مفاوضات قناة السويس التى دارت فى القسطنطينية فى شهرى يونيو ويوليو ١٨٦٣ وأسفرت عن المذكرة التى أرسلها الباب العالى إلى مصر بتاريخ أول أغسطس ١٨٦٣ خاصة بموضوع القناة .

وتتمثل الناحية الثانية فى الرشا التى قدمها نوبار فى باريس إلى الدوق دى مورنى de Morny أخ الإمبراطور نابليون الثالث ورئيس الهيئة التشريعية فى فرنسا كى يساند الحكومة المصرية فى موقفها أثناء نزاعها مع الشركة خلال سنتى ١٨٦٣ و ١٨٦٤ . ولم يشأ اسماعيل أن يطلق على هذه المبالغ اسم الرشوة ولكن سماها « نقود الهمة » .

أما الناحية الثالثة التى أنفقت فيها الأموال المصرية بسخاء عجيب فكانت الحملة الصحفية التى نظمها نوبار فى باريس ضد شركة القناة ونعى عليها افتقارها إلى وجود قانونى escistence légale لأن السلطان لم يكن قد أصدر تصديقه على عقد الامتياز ، كما نعى عليها ضعف مركزها المالى واعتمادها على السخرة وقد نعتها بأنها وسيلة متبربرة تنفر منها الشعوب المتمدينة . واستمرت تلك الحملة فترة طويلة أوقعت الارتباك فى دوائر الشركة ونشرت الاضطراب بين المسهمين واشتركت فى هذه الحملة خمس جرائد وكانت الجريدة تتقاضى ستين جنيهاً عن نشر المقال الواحد . وكان دى لسبس يتساءل عن الخزانة العجيبة التى تمول هذه الحملة الصحفية وقد أطلق عليها اسم الحرب الصليبية باسم الإنسانية .

وكانت الناحية الرابعة هى الاستشارات القانونية التى كان يصدرها أعلام القانون فى فرنسا فى ذلك الوقت وبعض أعضاء مجلس النواب الفرنسى مؤيدة وجهة نظر الحكومة المصرية فى نزاعها مع الشركة . وكان نوبار يطبع أعداد وفيرة من هذه الاستشارات ويوزعها بالمجان على مختلف هيئات باريس وجمعياتها وأنديتها ودور النشر . وكانت الصحف فى باريس تنشر هذه الاستشارات بعد أن تتقاضى خمسة فرنكات عن كل سطر . أما الصحف الموالية والمشتركة فى الحملة الصحفية المصرية فكانت تصدر أعداداً خاصة أحياناً وملاحق أحياناً أخرى لنشر الاستشارات التى كان يزيد من قيمتها أنها صادرة عن أئمة التشريع فى فرنسا . ويقول المستشار كرابيتس Crabites إنه لم يكن فى فرنسا أحد فى ذلك الوقت يدانى أولئك المشرعين علواً فى كفايتهم .

* * *

واستطاعت الشركة أن تبتز من الخزانة المصرية أموالا جمة فى صورة صفقات كانت تعقدها مع الحكومة ثم تردها إليها بعد ذلك بعد أن ترفع أثمانها أضعافاً مضاعفة . اشترت الشركة من الحكومة المصرية تفتيش الوادى بمبلغ يقل عن مليونين من الفرنكات ثم باعته إياها بعد ذلك بعشرة ملايين من الفرنكات . وتنطبق على هذه الحالة ثكنات الجيش المصرى فى دمياط ومبانى مدرسة الهندسة فى القاهرة فقد اشترتها بثمن بخس باعترا ف دىلسبس ثم تنازلت للحكومة عنها وعن المستشفيات المقامة فى البرزخ وعن حق الإعفاء الجمركى لقاء ٣٠ مليون فرنك . ثم عادت فاستردت الامتياز الأخير فى اتفاق أول فبراير ١٩٠٢ على عهد الاحتلال البريطانى الذى وجدت فيه الشركة نصيراً مويداً .

* * *

وقد أخذت مصر على عاتقها — طبقاً للاتفاق الذى عقدته الحكومة

المصرية مع الشركة بتاريخ ١٨ مارس ١٨٦٣ — انشاء ترعة الماء العذب من مدينة القاهرة حتى قرية القصاصين لتتصل بالترعة التى حفرتها الشركة من تلك القرية حتى نفيشة ثم مدتها جنوباً إلى السويس . وقد أطلق على هاتين الترعتين معاً فيما بعد ترعة الإسماعيلية . وكانت مصلحة الشركة فى عقدها الاتفاق واضحة فإن عقد الامتياز الثانى كان قد فرض على الشركة القيام بهذا العمل ، وكان هذا عبئاً مالياً ثقيلاعليها لم تكن فى استطاعتها — وموار دها المالية محدودةضئيلة فى ذلك الوقت — أن تقوم بحفرها . وكان التقرير الذى وضعه لينان بك وموجل بك كبيرا مهندسى الحكومة المصرية بتاريخ ٢٠ مارس ١٨٥٥ والذى عرف باسم « المشروع الابتدائى لشق برزخ السويس » . L'avant projet pour le percement de l' Isthme de Suez قد أكد ضرورة البدء بحفر الترعة الحلوة قبل الشروع فى شق قناة السويس حتى يجد العمال المصريون مورداً مائياً ثابتاً يطمئنون إليه عند شروعهم فى إنشاء قناة السويس فى صحراء البرزخ . ثم جاء تقرير اللجنة العلمية الدولية فى ديسمبر ١٨٥٦ فأكد هذه الحقيقة مرة ثانية . ومع ذلك فإن الشركة أرجأت حفر ترعة الماء العذب على الرغم من أهميتها الحيوية القصوى للمشروع كله حتى وضعت هذا العبء على عاتق الحكومة المصرية . وكان حفر هذه الترعة يتطلب نزع ملكية أراض زراعية ودفع أثمانها لأصحابها . وكانت هذه الأراضى تقع ابتداء من شبرا — حيث مأخذ الترعة — ثم مديريتى القليوبية والشرقية . وقد أشار اتفاق ١٨ مارس ١٨٦٣ صراحة إلى تلك الصعاب التى تخلصت منها الشركة إذ جاء فى مقدمته : « وقد اعترف سمو الوالى ومسيو فردينان دى لسبس أن وسائل إنشاء هذا الجزء من القناة ، بمعرفة الشركة وبأموال من طرفها — خصوصاً فيما يتعلق بنزع ملكية الأراضى المملوكة للأفراد ، والاستيلاء عليها ، قد يثير مشكلات إدارية داخلية كثيرة التعقيد عظيمة الخطورة وأن الحكومة المصرية راغبة فى حل هذه المشكلات طبقاً لقوانين البلاد وعاداتها .....

وقد وضعت الحكومة المصرية مواردها المالية والفنية والتموينية وعمال السخرة بل وجنود جيشها فى حفر تلك الترعة وبلغت تكاليف حفرها واحد وعشرين مليون ونصف مليون فرنك ،أى ما يقرب من ثمانمائة وستين ألف جنيه .

* * *

وقد أنفق اسماعيل على حفلات افتتاح القناة مليوناً وأربعمائة ألف جنيه وبرر أنصاره إنفاقه هذا المبلغ الضخم بأنه أراد أن يظهر مصر أمام أوربا دولة غنية متحضرة ثم ينتهز الفرصة ويعلن أمام حكام أوربا – أباطرة وملوكاً وأمراء – استقلال مصر التام عن تركيا . وهو تبرير غير معقول لأنه لم لم يحدث . كما أنه لم تخف على المدعوين لحفلات افتتاح القناة حالة البؤس التى كان يئن منها الشعب المصرى على عهده . بل ندد بعضهم فيما بعد بهذا السفه . ويكفى أن نذكر أن أحد ضيوفه ذكر أنه غادر قصر عابدين فى منتصف إحدى ليالى شهر ديسمبر ١٨٦٩ على إثر انتهاء إحدى الحفلات الساهرة التى أقامها إسماعيل ابتهاجاً بافتتاح القناة . وفى طريقه إلى الفندق الذى كان ينزل فيه وجد أشخاصاً نائمين على أرصفة الشوارع فى زمهرير الشتاء وأخذ يسائل نفسه هل هؤلاء البؤساء هم رعايا الحاكم الذى كنت فى ضيافته منذ دقائق معدودة وكانت أطيب أنواع الخمور وأغلاها تسكب أمام الضيوف بكثرة وكأنها تتدفق من صنابير الماء ! ! ؟

تم حفر القناة وافتتحت للملاحة البحرية فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٩. بعد أن أنفقت مصر فى إنشائها المال الوفير فى سذاجة وسخاء . وظل لمصر مصدران دسمان هما الأسهم التى كانت قد ابتاعتها وعددها ١٧٧٦٤٢ سهما ثم نصيبها فى أرباح الشركة وكان هذا النصيب مقرراً فى عقدى الامتياز بمقدار ١٥ ٪ من صافى أرباح الشركة . وكان هذان المصدران ثروة لا ينضب معينها تتجدد كل عام . ولكن لم تكد تمر ست سنوات على افتتاح القناة حتى باع

إسماعيل أسهم مصر إلى انجلترا . وقد سبق أن شرحنا الملابسات التي تمت فيها هذه الصفقة الخاسرة بالنسبة لمصر ، ومع ذلك فلم تمر خمس سنوات بعد ذلك حتى باعت الحكومة المصرية فى سنة ١٨٨٠ على عهد توفيق المصدر الثانى وهو حصة مصر المقررة فى أرباح الشركة .

كانت هذه الحصة مرهونة لدى نقابة من الماليين فى باريس وعجزت الحكومة المصرية عن الوفاء بالدين . وعقد مجلس الوزراء المصرى جلسة غير اعتادية فى ١٤ يناير ١٨٨٠ برآسة رياض باشا وحضرها السير ايفلن بارنج Baring المراقب المالى الإنجليزى . أما المراقب الفرنسى فقد كان متغيباً فى باريس فحضرها نيابة عنه Liron d'Airoles . وخصصت هذه الجلسة لمناقشة بيع الحصة وانتهت بموافقة مجلس الوزراء على بيعها إلى البنك العقارى الفرنسى بمبلغ تافه للغاية هو ٢٢ مليون فرنك أى ٨٥٠ ألف جنيه ومع ذلك فإن هذا المبلغ لم تأخذه مصر بل دفع لأصحاب الديون الأجانب ضمن أقساط ديونهم وفوائدها . بقى أن نعرف أن مجلس الوزراء كان يضم عدا رئيسه رياض كلا من عثمان رفقى ناظر الجهادية والبحرية ومصطفى فهمى ناظر الخارجية والبارودى ناظر الأوقاف وعلى مبارك ناظر الأشغال وحسين فخرى ناظر الحقانية وعلى إبراهيم ناظر المعارف .

أما البنك العقارى الفرنسى فقد أسس شركة باسم « الشركة المدنية لاستيفاء نسبة الـ ١٥ ٪ من أرباح قناة السويس المخولة للحكومة المصرية » وكانت تنحصر وظيفتها فى تحصيل قيمة هذه الحصة من شركة القناة وتوزيعها على مسهمى الشركة المدنية . وكانت هذه الحصة تدر ربحاً سنوياً يزيد على مليون جنيه مع أن رأس مال الشركة المدنية كان أقل من مليون جنيه . وهكذا فقدت مصر فى عهد الأب وابنه — إسماعيل وتوفيق — هذين المصدرين الدسمين .

* * *

لقد بلغت تكاليف انشاء القناة — اعتماداً على المصادر العلمية الوثيقة

المعاصرة ، ٤٢٢,٨٠٧,٨٨٢ فرنكا أى ما يقرب من ١٧ مليون جنيه (١٧,٣١٢,٣١٥ جنيهاً) وبلغت ما دفعته مصر فى إنشاء القناة حسب البيان الرسمى الذى قدمته الحكومة المصرية لمجلس شورى النواب ، سنة ١٨٧٦ (١٦,٠٧٥,١١٩) جنيهاً وهو نفس الرقم الذى جاء فى تقرير لجنة كيف Cave هذا عدا آلاف المواطنين الذين ماتوا نتيجة العطش أو الجوع أو الإعياء أو الأوبئة فى ساحات الحفر .

ثم كان ما هو أفدح خسارة من ملايين الجنيهات التى أنفقت وآلاف الأرواح التى أزهقت ونعنى به الاحتلال البريطانى فقد كانت القناة من أهم الأسباب التى دفعت انجلترا إلى احتلال مصر وظل كابوس الاحتلال جاثماً على الصدور طيلة ٧٣ عاماً يمتص دماء المصريين ويعرقل تقدم البلاد حتى إذا تم جلاء الإنجليز عن مصر فى يونيو ١٩٥٦ تلت ذلك الجلاء الخطوة الطبيعية وهى تأميم شركة القناة فى ٢٦ يوليو من نفس ذلك العام .

عبد العزيز محمد الشناوى

قراءتان فى كتابات المؤرخين فى مناهجهم وأهدافهم

أقدم تحت هذا العنوان قراءتين :

الأولى : فى كتاب من سنيوبوس إلى فردينان لوط .

الثانية : فى فصل نشره أرنولد توينبى بمناسبة انتهائه من كتاب له بعنوان « ماذا حاولت أن أصنع ؟ »

أولا : كتاب سنيوبوس إلى فردينان لوط

(وهذا أهديه للدكتور ثابت الفندى أستاذ الفلسفة
فى كلية الآداب بجامعة الاسكندرية)

سنيوبوس مؤرخ أستاذ ، مدرس قبل كل شىء ، أهم ما نشر له ، كتابه فى التاريخ السياسى لأوروبا المعاصرة ، وله كتاب آخر « التاريخ النزيه للأمة الفرنسية » وعنايته بالتدريس أهم صفاته ، وقد ألف لخدمة الطلاب مشتركاً مع لانجلوا « مقدمة للدراسات التاريخية » ، نُشر لأول مرة سنة ١٨٩٨ . وله كتاب آخر فى المنهج التاريخى أقل شهرة فى جامعاتنا على الرغم من أهميته ، هو كتاب « المنهج التاريخى مطبقاً على العلوم الاجتماعية » .

والخطاب الذى سأعرض له ، وجهه سنيوبوس من عزلته فى إقليم بريتانى إلى صديقه فردينان لوط المؤرخ المشهور لغارات القبائل المتبربرة ولنهاية العالم القديم . وتاريخ الكتاب ١٠ إلى ٢٩ يونية فى ١٩٤١ أى كتبه فى فترة الهزيمة والاحتلال الألمانى . والكتاب كتاب مؤرخ ، لا يحفـل بالزائل احتفاله بالباقى ، ليس ذلك لأن نكبة فرنسا كانت شيئاً ضئيلا ، لا ، إنما هى نكبة ولكنها تزول . فلا ينبغى لها أن تملك عليه لبه . فكتب من عزلته فى الريف لصديقه وزميله كتاباً طويلا فى التاريخ ودراسة التاريخ ومنهج التاريخ . كان ذلك — كما قلت — فى ١٩٤١ ، وتوفى سنيوبوس فى العام التالى (٢ مايو

١٩٤٢) . وبقى الكتاب فى أوراق لوط ، ولما مات هذا الأخير سلمت أرملته الكتاب إلى تلميذه فافتييه فنشره ، فى المجلد العاشر بعد المائتين من المجلة التاريخية الفرنسية (عدد يوليه – سبتمبر ١٩٥٣) واستغرق من تلك المجلة اثنتى عشرة صفحة . وهو مهم لأنه ثمرة خبرة طويلة وتفكير عميق من جانب مؤرخ كبير .

قال إن التاريخ – قطعاً – علم ، ذلك لأننا نسمى علماً أية حصيلة من المعلومات نحصل عليها بتطبيق منهج محقق على دراسة طائفة من الحقائق أو الوقائع من نوع واحد . ووثائق المادة التاريخية تتعلق ببنى الإنسان منتظيمن فى جماعات ، وهى وقائع حدثت فى أزمنة متعاقبة ماضية .

والتاريخ من العلوم الوصفية . أى ليس من العلوم العمومية ، وهذه (ومن أمثلتها – الفيزيقا أو البيولوجيا) تعمل لاكتشاف قوانين . أما العلوم الوصفية فمادتها حقائق أو وقائع مفردة . وتهتم العلوم الوصفية بتوزيع تلك الأفراد فى المكان (النبات مثلا) أو فى المكان والزمان (الجيولوجيا مثلا) . والتاريخ يختلف عن سائر العلوم الوصـــفية فى أن من أفراد مادته ما هو حسى (كعمل من أعمال الإنسان مثلا) ومنها ما هو نفسى (عاطفة من العواطف الإنسانية مثلا) .

وانتقل سنيوبوس من هذا إلى عمل المؤرخ فى الآثار الحسية والشهادات الشفوية والمكتوبة ، مبيناً بالتفصيل الطرق والآفات التى تعيب عمل المؤرخ والتاريخ كله وعرض فى أثناء ذلك لكل ما يشغل بال الذين تحدثوا فى قضايا المنهج التاريخى . وخصوصاً قضية اليقين .

وإذا شاء السادة الفلاسفة المشتغلون بتلك القضايا وصفاً دقيقاً لعمل المؤرخ فأمامهم هذا النص المهم من انشاء مؤرخ ثقة بعد خبرة نصف قرن من الزمان.

ثانيا : أرنولد توينبى يتحدث عما حاول أن يصنع

قال توينبى فى فصل نشرته مجلة International Affairs (المجلد الحادى والثلاثون . العدد الأول : فبراير ١٩٥٥) .

قال : منذ سنة ١٩٢٧ وأنا أعمل فى كتابى هذا « دراسة التاريخ » وكان قد مضى علىّ إذ ذاك ثلاث سنوات وأنا أعمل فى الدراسات السنوية التى كان ينشرها المعهد الملكى للشئون الدولية . والعملان – دراستى للتاريخ ودراساتى السنوية لشئون العالم المعاصر – سارا جنباً إلى جنب وخدم كل منهما الآخر . فكيف يستطيع إنسان أن يتكلم عن أحداث زمانه دون أن يربطها على وجه ما بتاريخ الإنسانية ، وكيف يستطيع أن يفهم ماضى الإنسانية دون أن يستخدم للوصول إلى ذلك ما تعلمه من دراسة معاصريه عن الإنسانية التى مضت . ولابد – مثلا – لمن يريد أن يبعث حورابى واخناتون وعاموس والبوذا من أن يدرس معاصريه من أمثال غاندى ولينين وروزفلت ، مثلا .

هذا إلى أن الحقبة من الزمان التى عشتها كانت فترة انقلاب تلم فى أحوال الإنسان وخصوصاً ذلك الانقلاب الذى أصاب مركز « الغرب » فى العالم فجعله شيئاً آخر غير الذى كان . وكل من عاش فى هذه الحقبة وتتبع أمورها يسهل عليه أن يفهم الكثير من أمور الماضى . نضيف إلى ذلك ما كشفت عنه جهود الأثريين فى مختلف أقطار العالم من أحوال وأطوار لم تكن شيئاً مذكوراً . وهذا ما أثار فى نفسى الرغبة فى أن أقف وفى أن أنظر وفى أن أكون لنفسى صورة من ذلك الماضى الإنسانى . فكتابى كان لشفاء ما فى نفسى . وقد أحس غيرى بنفس الرغبة . فكانت لذلك الغير محاولات . وسيكون لمن سيأتى بعدنا محاولات ، وسيتناول غيرنا ما عملناه بالتعديل والتصحيح والمراجعة . وستحل كتب محل كتب .

وبعد ، فإن الحقبة التى نعيش فيها تختم عهداً من التاريخ الحديث يصح أن نطلق عليه اسم « العصر الحديث المتأخر » ومدته قرنان ونصف قرن من الزمان ، مبدؤه حوالى سنة ١٧٠٠ وهو عصر السيطرة الأوروبية على العالم وعصر « سيطرة الطبقة الوسطى » على أوربا ، ومن ثم على شعوب العالم .

ومن هذا العصر الحديث المتأخر عدّل المفكرون ، وبصفة خاصة

مفكرو القرن الثامن عشر ، النظرية العامة للتاريخ العام . وهى نظرية الأديان السماوية وقوامها حصر ذلك التاريخ بين بداية هى خلق الله العالم ، ونهاية هى قيام الساعة .

ونجد أشهر تعبير عن تلك النظرية فى المقال الجليل عن تاريخ العالم للحبر الخطير بوسييه Bossuet . قلت إن فلاسفة القرن الثامن عشر عدلوا تلك الصورة . حاولوا أن يحذفوا منها الخلق والساعة . وأوجدوا للتاريخ العام صورة أخرى – صوروه حركة تجرى فى خط مستقيم نحو كمال تبلغه فرنسا أو اسبانيا أو انجلترا أو الأمة التى ينتسب إليها الكاتب . وهى صورة لا يستطيع أن يدبر أصحابها مكاناً لهند أو لصين أو حتى لروسيا أو لأمريكا . ولا تجد فيها مكاناً لبعض حضارات الماضى ، فى أمريكا الوسطى أو فى الأناضول .

والواقع إننا لا نستطيع أن نقبل حركة تاريخية تجرى فى خط واحد ، إننا لا يمكن أن نتصور التاريخ إلا شجرة كثيرة الفروع ، ففى التاريخ تتعاصر الحضارات ، أما فعلا وإما فلسفياً ، فى تفكير المؤرخ . هذا والعلوم الإنسانية الآن (نظرية المعرفة ، علم النفس ، الانثروبولوجيا ، الاجتماع . الاقتصاد) تتبادل المعلومات وتستخدمها فى عرض الظواهر الاجتماعية عرضاً معقولا مفهوماً . ولا بد من أن يأتى اليوم الذى ندخل فيه التاريخ فى نطاق تلك الدراسات الاجتماعية فيفيد ونفيد . وقد حاولت أن أطبق ذلك المنهج العلمى فى دراستى وأن أسير به بقدر ما يستطيع من السير .

أقول هذا عامداً ، فللسير بالمنهج العلمى حدود . فإنى أؤمن مثلا بأن اصطداماً يقع بين شخصيتين إنسانيتين لا يمكن أبداً التنبؤ بما يسفر عنه من نتائج ، فهو لا يخضع لقانون معروف . كذلك ما تنفجر عنه النفس الإنسانية شعراً أو إلهام أنبياء لا يخضع أيضا لأى قانون : فهى ظواهر تنبعث عن قدرات الخالق وتعود بنا إلى الصورة التى رسمتها الكتب السماوية للتاريخ الإنسانى .

وفى أثناء عملى فى هذا الكتاب – منذ سنة ١٩٢٧ . تغيرت نظرتى للأشياء فأصبح « للدين » المكانة الأولى فى تصويرى للتاريخ العالمى . وليس هذا الدين هو الدين المسيحى الذى نُشِّئْت عليه . بل أصبحت أعتقد أن لا دين بعينه يمكن أن يدعى لنفسه أنه وحده الدين الحق ، وأصبحت أرى أن ديانات الهند سوف يكون لها أثرها فى المكانة التى أتصورها للدين فى المستقبل ، على أنى أعتقد أن أيسر سبيل لفهم العالم هو ما يهيئه لكل إنسان دين آبائه وأجداده ، وهذا بشرط ألا ينفى عن الأديان الأخرى ما يمكن أن تسديه لخير الإنسانية .

انتهى الكتاب ، ولكن الموضوع لا يمكن أن ينتهى ، فالأثرى يحفر ويكشف والعالم النفسانى يغوص ويتعمق فى باطن النفس ، وما دام لدى طالب التاريخ شىء من فهم وذكاء ولب فلن يعوزه العمل .

محمد شفيق غربال

عرض وتحليل لكتاب عن حياة الجنرال ونجت

حاكم عموم السودان وسردار الجيش المصرى

عنوان الكتاب :

Wingate of the Sudan

The Life and Times of General Sir Reginald Wingate maker of the Anglo Egyptian Sudan.

By Sir Ronald Wingate.

وهو من تأليف إبنه ، وقد نشر الكتاب لأول مرة فى سنة ١٩٥٥ فى مدينة لندن ويحتوى على ٢٨٣ صفحة وخريطتان وعدد من الصور .

ولد ونجت فى سنة ١٨٦١ وعمر إلى ١٩٥٣ . فمات فى سنته الثانية والتسعين : عمل فى مصر ستة وثلاثين سنة ، قضى سبع عشرة منها حاكماً عاماً للسودان وسرداراً للجيش المصرى ، وثلاث سنوات منها مندوباً سامياً فى القاهرة ، وانقطعت صلته الرسمية بمصر فى ١٩١٩ .

ورفض ونجت أن ينشر شيئاً عن نفسه أثناء حياته ، ولكنه رتب أوراقه وسلمها لابنه استعداداً لنشر شىء بعد موته . وإذا عرفنا أن ونجت أتقن فن إدارة المخابرات العسكرية إتقاناً مشهوداً ، أدركنا أن المادة التى جمعها لنفسه وتركها لابنه لابد أن تكون على قدر عظيم من الضخامة والقيمة . ولابد أيضاً من أن تكون كثيرة التنوع .

فقد كان ونجت يجيد العربية (وخصوصاً العربية الدارجة فى مصر والسودان) والفرنسية والألمانية ، ودرس التركية — ومن أسباب دراسته — فيما يقول — رغبته فى الاتصال الشخصى الوثيق بصديقه الغازى مختار باشا ،

القومسير العثمانى فى مصر حتى انقطاع الصلة بين مصر والسلطة العثمانية . والأصح أن نقول إن « المخابرات » على عهد ونجت اتسع نطاقها فامتدت إلى كل ما له صلة – أو يمكن أن يكون له صلة – بالقاعدة البريطانية للسياسة فى مصر والسودان ، كما سنشرح بعد قليل .

وبعد فماذا صنع ابن ونجت بالمادة التى خلفها له أبوه ؟ نقول إنه استخدمها لنشر كتاب للقارئ العام ، وإنه لم يطمع فى أكثر من بيان القدر الذى كان لأبيه فى أحداث تلك الحقبة ، وأنه لازم الاعتدال حتى فى كلامه عن استدعاء الحكومة البريطانية لأبيه فى سنة ١٩١٩ شبه معزول . وإنها لم تكافئه فيما بعد كما كافأت كرومر وكتشنر بالمنح المالية السخية وألقاب التشريف وما إلى ذلك . وفى هذا ما يستحق النظر . فقد يقع على عمال الإمبراطورية البريطانية من النقل أو العزل أو التوبيخ ما يقع ، ويتحمل العامل ما يقع عليه من ذلك وقد يسكت مع إنه يستطيع أن يقول شيئاً فى الدفاع عن مسلكه . ويسكت لأن الكلام – ولو أنه على حق فيه – قد يضر بمصلحة الإمبراطورية . وهذا ونجت بالذات استدعته حكومته لأنه استقبل سعد زغلول وزميليه فى نوفمبر وكان ما كان من احتقال سعد ونفيه واضطراب مصر . فلم يقل ونجت كلمة لبيان أن رأيه فى معاملة القادة المصريين كان أصوب من رأى رؤسائه . ثم جاءت لجنة ملنر لمصر فعابت على ونجت فى تقريرها أنه كان يجب عليه أن يكون أكثر تصميماً وأشد إلحاحاً بإزاء حكومته فى موقفها من مفاوضة القادة المصريين . ولم يقل ونجت شيئاً أيضاً فى الرد على ذلك . وجاء ابنه فى سنة ١٩٥٥ ، وبعد أن جرى كل ما جرى – ولم يقل شيئاً كثيراً فى نقد الحكومة التى عاملت أباه تلك المعاملة وقطعت حياته السياسية وهو لم يبلغ بعد الستين .

أعتقد أن هذا يستحق منا النظر .

على أن بالكتاب معلومات وآراء جديرة بالتأمل ، ومن الخير أن نعرضها متنقلين بين فصول الكتاب فصلا فصلا ».

يبدأ الكتاب بالمقدمة ، وموضوعها مصر إلى سنة ١٨٦٣ . وعرض فى المقدمة لبحث أصل ارتباط مصر بالسودان فى الزمن الحديث ، وذكر ما قيل من أن الذى بعث محمد على على إنشاء ذلك الارتباط كانت رغبته ، فى نظر البعض ، الحصول على ما تدره تجارة الرقيق من أرباح . أو رغبته — فى نظر فريق آخر — التخلص من جنده ، أو ، أخيراً ، رغبته فى الحصول على الذهب والزمرد من السودان . وقال ونجت المؤلف آن لا صحة فى هذه الآراء كلها . فأما تجارة الرقيق فلم تكن مصر يوماً من الأيام أهم طرقها . كان أهمّ من طريق مصر الطريقان أو الطرق عبر الصحراء الكبرى إلى طرابلس الغرب أو إلى المغرب الأقصى أو عبر البحر الأحمر إلى الجزيرة العربية . وأما التخلص من الجند فلا نعرف عن حاكم يتخلص من جنده ، وكان الأسهل أن يعيدهم إلى بلادهم . وأما الذهب والزمرد فلم يكن لها من الشأن إذ ذاك وفى أى وقت ما يغرى أحداً . الأصدق من هذا كله أن بلداً أخذت شئونه تكتسب خصائص الدولة الحديثة لا يصبر على بقاء حدوده معرضة للاضطراب وحينئذ كان لابد له من تأمين تلك الحدود .

ثم قال إن الحكام فى السودان على ذلك العهد كانوا قساة . ولكن كان منهم من كانت له حسنات ، ذكر من هؤلاء خورشيد وأبو ودان . ثم طالب المؤلف الكتّاب بما طالبنا به منذ زمن طويل أن تقارن الأشياء بما يعاصرها . فإن زعم لاحق أنه أفضل من سابق ، قلنا فى هذا ما يجب أن يكون .

وتحدث المؤلف فى الفصل الأول عن الخديو اسماعيل والتدخل البريطانى فى مصر ومن آرائه فى هذا الفصل لفته النظر إلى أن الخلط السائد إذ ذاك بين الوالى والدولة مسئول عن كثير من العيوب .

وتكلم فى الفصل الثانى عن نشأة المترجم له . وفى الفصل الثالث عن موت جوردون واخلاء السودان (١٨٨٣–١٨٨٥) وفى هذا الفصل أشياء تستحق التأمل . ذكر تصميم الحكومة البريطانية على ألا تستخدم الحكومة

المصرية جيشها الجديد فى الحركات العسكرية ضد المهدى . وخصوصاً فى السودان الشرقى ، وإن لم يمنعها ذلك من أن تضع مدافع ذلك الجيش وخيوله وجماله تحت تصرف السير جيرالد جراهام فى تلك الأقطار . وقد أثار ذلك استياء حتى فى صفوف البريطانيين فى الجيش المصرى ، وكان فيهم ونجت .

ونقل المؤلف فى ذلك الفصل مقتطفات نقلها من مذكرات البارون مالورتى وقدأودعها مالورتى لدى ونجت . ومالورتى هذا نبيل نمسوى ، خدم فى السلك الدبلوماسى النمسوى ورافق الأمير مكسمليان للمكسيك فى ذلك المشروع النحس الذى كان قد فكر فيه نابليون ثالث للمناداة بمكسمليان إمبراطوراً على تلك البلاد . وقد أخفق المشروع وقبض المكسيكيون على مكسمليان هذا وأعدموه وترك مالورتى خدمة حكومته ولحق بخدمة الحكومة المصرية وكان رجلا طلعة ، له معارف فى كل الدوائر . وفى المذكرة التى سلمها لونجت آراء لرياض ونوبار وتوفيق فى مسألة إخلاء السودان وفى العلاقة بين الحكومة المصرية والسلطات البريطانية ، وهذه الآراء لا تخرج فى مجموعها عما نعرف .

وينقد المؤلف سياسة « الإخلاء » ، أو « التخلى » أو « الترك » ويقول فى نقده إن « الإخلاء » لا يجلو الحقائق . حقائق ستين عاماً من الارتباط المصرى السودانى ، أقيمت فى خلالها مدن ، وفتحت مدارس ، ونشأت تجارة ، وتكون مجتمع ، ونظام .

ثم عرض لجوردون ولأسباب إخفاقه . عرض لكونه لا يقرأ العربية ولا يكتبها ، وإنه كان يتحدث بها بصعوبة وفى موضوعات محدودة . وعرض لكونه لم يفهم السودان ولم يفهم المهدى والمهدية ، لأنه كان لا يفهم الإسلام ، ولأنه كان مسيحياً متعصباً .

ولا نزال فى حيرة ولا نزال فى تساؤل ، لم عين الخديو اسماعيل جوردون في مناصب عليا بالسودان !

وموضوع الفصل الرابع من الكتاب : السودان تحت حكم الخليفة عبد الله

وإعادة بناء مصر (١٨٨٥ — ١٨٩٥) . وفى هذا الفصل بيان عن « المخابرات جاء فيه أنها تتكون من أربعة فروع : أولها عسكرى ، يختص بجمع المعلومات العسكرية عن قوات الخليفة وتوزيعها ، وثانيها سياسى اقتصادى ، يختص بجمع معلومات عن الحالة فى السودان . وثالثها يختص بعلاقات السودان بالشعوب . المجاورة كالأحباش ، ورابعها يختص بالأوروبيين المقيمين فى أسر الخليفة وفى سنة ١٨٩١ نشر ونجت ما تجمع لديه فى كتابه المشهور Mahdism & The Egyptian Sudan . والكتاب مادة مخابرات وهو أساس مادة كتاب شقير المشهور عن السودان . وفى سنة ١٨٩٢ نشر ونجت مقالات فى مجلة United Service Magazine (وهى مجلة عسكرية) عن حصار مدينة الخرطوم وسقوطها . ومادتها استقاها من شهادات العسكريين والمدنيين ومن هؤلاء بروينى بك . من تجار الخرطوم . وقد استطاع أن يهرب منها بعد سقوطها .

وعمل ونجت فى تنظيم هروب الراهب أورفالدر والراهبتين شريكتيه فى الأسر . ونظم ونجت « المادة » التى استخلصها من الراهب ونشرها بالإنجليزية فى كتابه المشهور عشر سنوات فى أسر المهدى . كما نجح فى تنظيم هروب سلاطين ، وهو من الأجانب الذين عينتهم حكومة إسماعيل فى السودان ، وكان آخر مناصبه قبل أسره إدارة مديرية دارفور ، ومن مذكرات سلاطين ، نشر الكتاب المشهور « النار والسيف فى السودان » . والكتابان ، وما صحبها من معلومات لم تنشر مادة مخابرات ودعاية . وبلغت الإدارة على يد ونجت مبلغاً من حسن التنظيم يدلك عليه قولهم إذ ذاك « لا شىء مما يجرى فى القاهرة أو فى أرجاء السودان أو مع ضفاف بحيرة تشاد يخفى على ونجت » .

وسيتسع نطاق الإدارة بعد استرداد السودان فيمتد للأقطار الإفريقية المجاورة وللجزيرة العربية وما يجاورها ، كما سنشرح لك بعد قليل .

والفصل الخامس من الكتاب يتعلق بإعادة فتح السودان (١٨٩٦ —

١٨٩٩) ونلفت النظر إلى ما جاء عن البعثة للحبشة فى سنة ١٨٩٧ التى اشترك فيها ونجت وكان على رأسها رنل رد ، السكرتير الأول بالوكالة البريطانية بالقاهرة . وأهم ما كانت ترمى إليه البعثة جمع معومات مختلفة عما يجرى فى الحبشة (وهذا ما عنى به ونجت بالذات ، وخاصة ما يتعلق بمرور الأسلحة والمهمات وحركات الفرنسيين) وحمل الإمبراطور منيليك على التزام سياسة الحياد فى الحرب القائمة ضد حكومة الخليفة . ولما عرف رد وعرف معه ونجت أن منيليك قد أبلغ الحكومات (بما فيها الحكومة البريطانية) أن نطاق ملكه يمتد للنيل غرباً عدلا عما كان قد هما به من مفاوضاته لتحديد الحدود بينه وبين السودان المصرى وتجنبا الكلام فى هذا كله واكتفيا بالتزام منيليك سياسة الحياد .

فى هذا الفصل أيضاً رواية لفاشودة . نقتطف منها أن ونجت هو الذى حمل كتشنر على أن يؤكد فى مفاوضته للضابط مارشان حقوق مصر فقط ، ومن ذلك ألا يرفع فى فاشودة إلا العلم المصرى وحده وأن يلبس كتشنر الطربوش وما إلى ذلك .

وقد خلف ونجت كتشنر حاكما عاماً للسودان وسرداراً للجيش المصرى (١٨٩٩ — ١٩١٦) وخصص المؤلف الفصل السادس لهذا الموضوع .

واستخلص من هذا الفصل ما ورد فيه (فى الصفحات ١٧٢ — ١٧٣) عن العلاقات التى أنشأها ونجت عن طريق الضابط الكولونيل مايلو تالبوت بالسيد إدريس السنوسى فى يوليه ١٩١٦ ، وقد أدت تلك العلاقات إلى وقوف السيد إدريس من الحكومتين الإيطالية والبريطانية موقفاً يخالف موقف السيد أحمد السنوسى ، الذى اختار مواصلة الحرب ضد إيطاليا وحلفائها متحداً بالدولة العثمانية .

ويكمل الفصل السابع حديث الحرب العالمية الأولى الذى بدأ فى الفصل السابق — ويتناول اخضاع دارفور والثورة العربية ، وربما كان هذا الفصل أهم فصول الكتاب كله من حيث ما قدّم للمؤرخ من مادة جديدة .

والجديد فى هذا كله أن السودان قد أصبح فى ذاته قاعدة من قواعد العمل السياسى العسكرى للحكومة البريطانية .

خـذ مثلا ما يقصه الكتاب فى صفحة ١٨٩ عن إرسال ونجت فى سنة ١٩٠٧ لأحد رجال مخابراته لدراسة السكة الحديدية الحجازية من مبدئها فى دمشق إلى حيث انتهت ،وقال هذا المندوب إن القبائل البدوية لا تستطيع أن تفعل شيئاً لقطع تلك السكة وذلك لضعفها وعجزها عن التغلب على قلاع الحراسة التى أقامها الترك على طول الخط . وأن تلك القبائل لا تستطيع أن تفعل شيئاً أكثر من الإخلال الضئيل بحركة النقل على الخط .

فى سنة ١٩٠٧ كانت هناك دراسة لاحتمال قطع السكة الحديدية الحجازية يوماً من الأيام !

والواقع أن السنوات التى سبقت الحرب العالمية الأولى كانت سنوات عمل فى تلك المناطق — وخصوصاً فى سيناء والأردن :

إلا أن الجديد فى هذا الفصل هو العمل من السودان ، ويدلك على ذلك تعيين ونجت وهو فى الخرطوم قائداً عاماً فى الحجاز . ولهذا أسبابه :

أولا : أن السودان بالذات « حساس » لمصير الحجاز .

ثانيا : أن ثغور السودان على البحر الأحمر ، قواعد بحرية بريطانية .

ثالثاً : إن أكثر الجيش المصرى فى السودان تحت سلطان ونجت .

رابعاً : أن العمل فى السودان تنفرد به الحكومة البريطانية فلا رقباء من حلفاء أو من الحكومة المصرية التى تخضع ولكن على مضض وتذعن ولكنها تتململ .

واعتقد أن رأى ونجت ، كما يصفه هذا الفصل ، يمثل الموقف البريطانى من الثورة العربية خير تمثيل — فالأساس فى هذا الموقف هو :

أولا : إجلاء الترك عن الجزيرة العربية وبخاصة عن الحجاز .

وثانياً : الموافقة على نقل النفوذ فى إمارات وشياخات عربية فى مختلف أنحاء الجزيرة للحكومة البريطانية وحدها .

ثالثاً : عدم الوقوف موقف محدد من الحركات العربية خارج الجزيرة ، بل هو موقف يتكيف تبع الظروف . ونجت بالذات لم يهتم به كثيراً . ولم يعتبره من شأنه . بل الذى يهمه هو ما يجرى فى الحجاز فقط .

ومما يلفت النظر فى هذا الفصل (فى ص ١٩٧) أن المؤلف سأل أباه عن رأيه فى العلاقات بين لورنس والأمير فيصل . وكان من رأى ونجت أن فيصل هو الذى يستخدم لورنس لا العكس !

والفصلان الثامن والتاسع يتعلقان بالفترة التى قضاها ونجت مندوباً سامياً ويتعلق كذلك بثورة سنة ١٩١٩ .

ولم أر فى الفصلين من جديد إلا سعى اللورد إدوارد سيسيل (وكان المستشار الثانى للحكومة المصرية) فى تنظيم التبعية المصرية للحكومة البريطانية وتألفت لذلك لجنة رأسها بلفور ومن أعضائها كرزون وملنر وكان سكرتيرها رونالد ستورس (السكرتير الشرقى بالوكالة بالقاهرة) ويحضرها ملن شيتهام (المستشار بالوكالة) ولم تصل اللجنة لشىء مكتوب (ص ٢٠٩)

ولم أر فى الفصلين من جديد إلا توضيح أن ما جرى من رفض المفاوضة مع القادة المصريين واعتقالهم ونفيهم إلى آخره يرجع فى الأغلب إلى أن الحكومة البريطانية تركت الموضوع لكرزون وكان يعمل وزيراً للخارجية فى أثناء غياب بلفور فى مؤتمر الصلح فى باريس .

ومن طرائف هذين الفصلين (ص ٢٢٥) زيارة الصهيونيين برياسة حايم وايزمان للقاهرة . وقول ونجت إنهم أناس « خام » لا يعرفون شيئاً عن البلاد العربية . وإنه نصحهم بحسن معاملة العرب الذين يعيشون بينهم .

وياويل العرب من أولئك السذج « الخام » ! إنهم قد لا يعرفون العرب . ولكنهم يعرفون ماذا يريدون !

محمد شفيق غربال

نقد لكتاب : إنجلترا والشرق الأوسط

المؤلف إيلى خدورى

من المعلوم أن كتب السياسة والتاريخ تتضمن كثيراً من الأوهام والخداع ، ذلك أن كتاب التاريخ لا يلتزمون المنهج العلمى الحق فى ما يمس ماضى أمتهم من وقائع وأحداث ، وإنما يلجأون غالباً إلى صبغ تلك الوقائع والأحداث بصبغة تتمشى مع غرورهم الوطنى والقومى لتظهر أمتهم بالمظهر اللائق ولتستر مثالبها ومعايبها . ويتوسل كتاب التاريخ والسياسة لتحقيق غرضهم هذا بالتصرف والانتقاء فى سرد الأحداث وتفسيرها . ولا يصادفون فى سبيلهم عقبات جدية ومصاعب تمنعهم من الوصول إلى غايتهم . فالوقائع التاريخية من الكثرة والإعضال بدرجة يتمكن معها المؤرخ أن يدونها بأشكال مختلفة وذلك عن طريق إهمال ذكر بعض الحوادث أو الإسهاب فى ذكر بعضها الآخر ، أو ترك جانب من وقائع فى الظل لئلا تلفت الانتباه أو ما إلى ذلك عن طريق انتخاب الوقائع ومزجها بشكل أو بآخر . وأكثر ما يبدو ذلك فى كتب التاريخ القومى وبخاصة فى القضايا التى تتصل بحياة الشعب الذى ينتسب إليه أولئك المؤرخون من جهة ، وبحياة الشعوب التى يعتبرونها مناوئة أو منافسة لهم من جهة أخرى . ويتوهمون النجاح فيما يعرضون من وجهات نظر تتفق ونزعاتهم وعواطفهم القومية ، حتى إذا استقصيت « المصادر الأصلية » التى تتعلق بالقضية موضوع الخلاف ، وحققت جميع الروايات ومحصت بانت الحقيقة التاريخية جلية للعيان وظهر تباعد الكاتب عن مناحى البحث الحيادى والدقة العلمية . ويمكن القول أن معظم ما كتب الغرب عن تاريخ العرب الحديث يتجه اتجاهاً مغرضاً فى كتابته .

وبين أيدينا الآن كتاب : England and the Middle East, by Elie Kedourie, London, Bowes & Bowes, 1956, 136 pages Sources, sppendices, index, 305.

مؤلف الكتاب يهودى بغدادى المنشأ ، كتب بحثه خلال دراسته فى كلية سان أنطونى بأوكسفورد .

بدأ المؤلف فى الفصل الأول يشرح أسس السياسة الإنكليزية فى الشرق الأوسط ما بين ١٨٣٠ – ١٩١٤ عند ما كان يتزعم هذه السياسة پالمرستون وبونسونبى وستراتفورد كاننج ،وبسط تمسك بريطانيا بمراعاة مبدأ تمامية أراضى الدولة العثمانية صيانة لمواصلاتها بين البحر الأبيض المتوسط وبين الهند ، وإبعاداً لروسيا وفرنسا عن مجالها ، كما بسط موقف تلك السياسة من مسألة الإصلاح فى الدولة العثمانية . وتطرق إلى وقوف سالسبورى وغيره فى وجه سياسة بريطانيا التقليدية ، وإلى الانقلاب الذى طرأ عليها بعد دخول بريطانيا فى الوفاق الثلاثى سنة ١٩٠٧ بحيث أصبحت تؤيد تقسيم الدولة العثمانية سنة ١٩١٥

وفى الفصل الثانى يبسط المؤلف بإيجاز ظروف إخراج اتفاقية سايكس بيكو السرية ، ويشير إلى التزامات بريطانيا نحو العرب بموجب مراسلات مكماهون لحسين ، ويرى المؤلف أن الشريف حسيناً كان قد أعلمه وكيله — فى القاهرة شريف الفاروقى ، بشروط الاتفاقات الفرنسية البريطانية بصدد الأراضى العربية فى آسيا : وبالتالى فالحسين لم يخدع من قبل الحكومة البريطانية ولم يكن نشر الاتفاقية على يد البلاشفة الروس ضربة مفاجئة للشريف وصحبه !

وفى الفصل الثالث يتكلم المؤلف عن مارك سايكس من خلال كتبه وخطبه ؛ وكيف أن مبدع اتفاقية سايكس بيكو كان سياسياً رومانتيكياً خيالياً . وكيف أنه بينما كان من أكبر مؤيدى الدولة العثمانية ، يزدرى الأرمن ويحتقر اليهود ، ويعاكس الأمانى القومية لرعايا السلطان ، إذا به يصبح أثناء الحرب بطل قضية الصهيونية والقومية العربية والدولة الأرمنية ...

وقد أفرد المؤلف للورنس فصلا خاصاً انتقده فيه بشدة وقال عن كتابه

« أعمدة الحكمة السبعة » إنه كتاب يهدف لورانس من ورائه إلى تبرير أعماله الخاصة لا تبرير الحركة العربية .

ويبسط المؤلف فى الفصل الخامس خطوات السياسة البريطانية فى سبيل إبطال مفعول اتفاقية سايكس بيكو بين ١٩١٨ و ١٩١٩ .

وفى الفصيلين الأخيرين السادس والسابع يتناول المؤلف أحداث سوريا والعراق بين ١٩١٩ — ١٩٢١ ويوضح موقف السياسة البريطانية منها بحيث كانت تتأثر بها وتؤثر فيها ..

ولسنا بصدد الكلام على الفصل الأول فهو مفيد وجيد ، ولا عن الفصلين اللذين عقدهما لسايكس ولورانس فهما لا يخرجان عن المعروف ولا يضيفان شيئاً مذكوراً إلى معلوماتنا . وإنما يهمنا الفصل الثانى الذى شرح فيه المؤلف إبرام اتفاقية سايكى بيكو ، فقد زعم فيه أن الشريف حسيناً كان على علم سابق بالاتفاقية المشؤومة ! !

قال المؤلف كدورى (أنظر صفحة ٣٧ — ٤١ من كتابه) إن الشريف ومعاونيه كانوا يعلمون مطالب انجلترا وفرنسا فى آسيا العربية ومع ذلك فقد اختاروا أن يقذفوا بمصيرهم فى صف هاتين الدولتين . وبعبارة أخرى إن نشر البولشفيك لنص اتفاقية سايكس بيكو فى نهاية ١٩١٧ لم يكن ضربة قوية مفاجئة للشريف أو لقادة الثورة الآخرين ! !

إن هذا القول لا يستند إلى أساس صحيح .

حقاً إن الشريف وصحبه كانوا على علم — مع العرب كافة — بأطماع دولتى الوفاق قبل الحرب العالمية الأولى ولكن لا يجوز القول بأن نبأ اتفاقية سايكس بيكو وصل إلى علمهم على وجه التأكيد ، فن المعلوم أن الاتفاقية المذكورة كانت سرية ، وأنه بينما كانت المفاوضات جارية بشأنها مع روسيا كانت بريطانيا تفاوض العرب لتحديد منطقة الاستقلال العربى التى يقبل العرب بموجبها أن يثوروا ضد الترك ؛ ولما بلغ الحسين نبأ الاتفاقية رسمياً باجر

توا بإرسال عرض الترك للصلح مع العرب إلى الإنجليز فى القاهرة وطلب منهم تفسيراً كاملا محدداً للموضوع برمته ، ولو فرضنا جدلا بأن الحسين كان يعلم بوجوه هذه الاتفاقية من قبل ، وكان الإنجليز يعلمون بذلك ، فلماذا اضطربت وزارة الخارجية البريطانية هذا الاضطراب عند ما طلب منها الحسين تفسيراً للاتفاقية ؟ ولماذا ردت عليه ذلك الرد الملتوى فألبست الاتفاقية ثوباً كاذباً فى حقيقته ومداه ؟ ولماذا أشارت على الحسين بأن يعتبر نسخة الاتفاقية التى أرسلها له جمال باشا مثالا جديداً للدسائس التركية ؟ هل كان ثمة حاجة لكل ذلك ؟ !

ويستند المؤلف كدورى فى دعم الزعم السابق إلى وكيل الملك حسين فى القاهرة محمد شريف العمرى الفاروقى ، الضابط العربى الموصلى الذى فر من جبهة غاليبولى والتحق بالخطوط الإنكليزية حيث أرسل إلى القاهرة .

قال المؤلف : « إن السلطات الانكليزية كشفت للفاروقى عن مدى المطالب الفرنسية وطلبت منه إبداء الرأى » ، ويستطرد المؤلف : « أعلم الفاروقى الشريف حسيناً بأنه أخبرهم أن المطالب الأساسية للجمعيات السرية العربية التى تشتمل على رقعة الأرض الممتدة من البصرة إلى مرسين لا يمكن تعديلها ولكن يمكن منح فرنسا وانجلترا الامتيازات الاقتصادية وحق الإرشاد الإدارى فى المناطق التى تطلبانها .

ويلوح أن هذا لم يكن كلامه الأخير ، فنى محادثة له مع مكماهون أرسل بها هذا إلى جراى ؛ أوضح أن لاحتلال فرنسا للمقاطعات العربية الصرف ، حلب وحماة حمص ودمشق ، سوف يقاومه العرب بالقوة ، وبهذا هو الاستثناء ... فسوف يقبلون بعض التعديل فى الحدود الشمالية العربية المقترحة من الشريف حسين . وقال الفاروقى لمارك سايكس فى نفس الوقت إن العرب يوافقون على أن تكون البصرة ومنطقتها المزروعة إلى الجنوب أرضاً بريطانية. هذه الآراء والشروط التى قدمها الفاروقى تؤلف أساس اتفاقية سايكس بيكو التى

بدأت مفاوضاتها التفصيلية فى ديسمبر ١٩١٥ أى بعد أن تم تعهد مكماهون للحسين ،وإن مكماهون عند ما كان يكتب للحسين كان يستعمل نفس الجمل التى كان يستعملها الفاروقى ... »

إن تفنيد حجج المؤلف يقتضى منا الرجوع إلى المصادر الأصلية للمسألة ، ومنها كتاب مقدرات العراق السياسية للعمرى. وفيه نجد نص الرسالة التي بعث بها الفاروقى إلى شريف مكة الملك حسين. والرسالة صريحة فى رد دعوى المؤلف .

لقد ذكر الفاروقى للحسين أن الإنكليز بعد أن أطلعوه علي جوابهم للشريف بشأن استثناء غرب خط الشام حمص حماة حلب مرسين إسكندرونة معتذرين بأن لفرنسا حليفتهم مصالح لا يسعهم لأجلها أن يغضبوها . واستطرد يقول فى رسالته : « بعد أن أطلعونى على هذه المواد وطلبوا منى رأيى الشخصى أجبتهم بصفة شخصية حسب معرفتى السابقة ، والمحاورات التى دارت بينى وبين ياسين بك (الهاشمى) وبعض الإخوان ، أنه لا يمكن بوجه عام من الوجوه التنازل عن شبر أرض فى سوريا ، وإنى لست أعرف فى غرب خط الشام وحلب بلد غير عربية كما يدعون ،وقلت لهم لا بد من الاعتراف بذلك ووضع معاهدة تحالف وأن لا يبرم صلح إلا باشتراك سيادتكم وأن يعترف بهذا الاستقلال جميع الدول المتفقة مع أمريكا وهو يشمل سوريا والعراق ، وأن يمدونا بالأموال والذخائر الحربية ، ويمكن الاعتراف للانكليز بالمنافع الاقتصادية فى العراق وللفرنسين فى سوريا وجلب المفتشين منهم . جرت هذه المذاكرة مع أصحاب السلطة هنا وقد تكلمت أيضاً فى هذا الموضوع مع أحد نوابهم المختص من قبل دولتهم وهو سير مارك سايكس وهذه المذاكرة الشخصية تعددت وتكررت مراراً ، وأظنهم قنعوا بها وفهموا أننا ننفعهم أزيد من نفعهم لنا ، ومصالحهم فيها أكثر من مصالحنا ، ولما ورد خطاب سيادتكم إليهم أخبرونى أنه جاء مشتملا على ما ذكرته ، وقد أرسلوا جوابهم مع رسولكم الشيخ عريفان ..... »

(نص الرسالة فى مقدرات العراق السياسية ج ١ ص ٢٢٢ – ٢٢٣) ؛

وجاء رد الملك حسين على رسالة وكيله الفاروقى يثنى عليه ويرى ضرورة إقامته فى مصر لما له من ثمرة لا سيما بعد ما « أبدته قريحتك الفطرية من المباحث والاقتناعات فى مسائل الحدود.. » العمرى مقدرات نفس الجزء ص ٢٢٤ ؛

ومعلوم أن رسالة الشريف إلى مكماهون المؤرخة فى ٥ نوفمبر ١٩١٥ تضمنت شروط الحسين الأخيرة للثورة العربية كما تضمنت أقصى ما يمكن التنازل عنه من الأراضى ، ولم يتزحزح الحسين عن هذه الشروط فيما بعد أبداً كما تدل المراسلات التالية مع مكماهون :

ذكر الحسين لمكماهون فى ٥ نوفمبر ١٩١٥ :

١ – « رغبة فى تسهيل الاتفاق ، وخدمة الإسلام ، واجتناب ما من شأنه تعكير صفو المسلمين ، واعتماداً على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة ، فإننا نتنازل عن إصرارنا فى ضم مرسين وأدنة إلى المملكة العربية .

أما قضية حلب وبيروت ، وسواحلهما فهى عربية صرفاً ، وليس هناك فرق بين المسلم العربى والمسيحى العربى فكلاهما من نسل واحد ..... »

٢ – لما كان العراق قسما من المملكة العربية وكان مركز حكوماتها فى عهد على بن أبى طالب والخلفاء الذين تبعوه .... فلذلك أعتقد أنه ليس فى المستطاع إقناع الشعب العربى بالتنازل عن هذا القطر . إنما رغبة منا فى تسهيل الاتفاق واعتماداً على عهودكم ... وحفظاً لمصالحنا المشتركة فى هذا القطر ، فقد نوافق أن نترك الآن لمدة قصيرة الأراضي التى تحتلها الجيوش الإنكليزية تحت إدارة انكلترا ، لقاء مبلغ من المال يدفع كتعويض عن مدة احتلال تلك المنطقة ...

وفى رسالة الشريف المؤرخة فى أول يناير ١٩١٦ أكد تمسكه بفحوى رسالة ٥ نوفمبر ١٩١٥ :

« .... إن ما يتعلق بقضية العراق ، وقضية التعويض الذى اقترحناه

لقاء احتلاله فإننى رغبة فى تقوية ثقة بريطانيا بنوايانا وغايتنا فى القول والعمل ، أدع أمر تقدير المبلغ إلى حكمتها وعدالتها .

أما ما يتعلق بالأقسام الشمالية ومرافقها فقد أبدينا لكم فى كتابنا السابق أقصى ما يمكن أن نوافق عليه من تعديلات . »

من كل ذلك يظهر تهافت الأسانيد التى استخدمها المؤلف فى دعم زعمه : فالفاروقى فى حديثه مع مارك سايكس لم يذكر له أن العرب يوافقون على ترك العراق الجنوبى لبريطانيا .

والشريف حسين لم يقبل أبداً استثناء حلب وبيروت وسواحلهما من المملكة العربية لأنها «عربية صرف» ، فإذا صدقنا تقرير مكماهون إلى جراى الذى تضمن قول الفاروقى لمكماهون بأن احتلال فرنسا للمقاطعات العربية الصرف حلب وحماة وحمص ودمشق سوف يقاومه العرب بالقوة ، وبهذا الاستثناء فسوف يقبلون بعض التعديل فى الحدود الشمالية العربية المقترحة من الشريف حسين ..... »

أقول إن صدقنا هذا التقرير فمعناه أن الفاروقى تسرع وتجاوز حدود مهمته وتكلم بما لا يحق له الكلام عليه . والمعول عليه هنا لا الفاروقى ولا آراؤه الشخصية ، وإنما المعول عليه هو الشريف حسين فهو المرجع الأخير والأول فى هذا الشأن ، وقد جاء رده على طلب الانكليز استثناء المناطق الواقعة غربى المدن الأربع دمشق حمص حماة حلب ، بالرفض البات ، ورضى فقط أن يستثنى مرسين وأضنة على ما بينا آنفاً .

ولدى المؤلف كدورى دليل آخر على زعمه بأن الحسين وصحبه كانوا يعرفون سابقاً مضمون وفحوى اتفاقية سايكس بيكو ، وهو أن السيد محمد رشيد رضا صاحب مجلة المنار ، كتب عام ١٩٢٢ ما يلى : (الجزء ٢٢ ص ٤٥٢) :

« جاء إلى القاهرة فى إبريل — مايو ١٩١٧ أحد القواد الذين كانوا مع

الأمير فيصل فألفيناه معتقداً بأن الملك (حسين) وافق الانكليز والفرنسيس على ما قرروا بشأن سوريا والعراق . ثم سمعت هذا الخبر بعينه بعد شهر من مسلم آخر كان مشتغلا بهذا العمل مع اللجان (الجمعيات) . ثم أخبرنا بعض من كانوا مع الأمير فيصل أنهم رأوا كتاباً من والده له يذكر عين ذلك . ويعلله بأن فرنسا تحفظ له سواحل سوريا من التعدى عليها إلى أن يصير للدولة العربية أسطول يحميها به على أنها تدفع مبلغاً معيناً للدولة العربية فى كل عام ما دامت محتلة فى تلك السواحل... »

إن الشطر الأول من رواية السيد محمد رشيد رضا مما لا يقره العقل والمنطق ، ولا تسوغه الحقائق التالية ، ولئن صح الشطر الثانى من الرواية فهو لا يمكن أن يخرج فى مضمونه ومداه عن المباحثات التى جرت بين الحسين وبين سايكس بيكو فى جدة (مايو ١٩١٧) ؛ فمن المعلوم أن الحسين فى هذه المباحثات تحفظ فى إجراء تسوية لمسألة لبنان على نسق التسوية التى سبق الاتفاق عليها مع انكلتره بشأن جنوب العراق ؛ أى إيجاد تعاون بين فرنسا والحكومة العربية فى لبان يحدد بزمان معين تقوم خلاله فرنسا بمساعدة الحكومة العربية المذكورة بإعانة مالية تقدمها وتعمل على ترويج مصالحها ضمن نطاق السيادة العربية .

ولكن الحسين لم يتعهد بشىء ولم يرتبط بشىء ، وإنما كان أقصى ما أمكنه عمله هو أنه وعد سايكس بيكو بأنه سيبحث مع زعماء الحركة العربية ويسعى لإقناعهم بإجراء تسوية لموضوع لبنان ... ومع أن المحادثات بين الحسين وبين سايكس بيكو لم تذع ، إلا أن الحسين صرح بعدئذ أن محادثات جدة دارت بالدرجة الأولى حول قبول العرب بالاعتراف لفرنسا بمنطقة نفوذ فى سواحل سوريا الشمالية أى فى لبنان . إن الكولونيل بريمون رئيس البعثة الفرنسية فى الحجاز يذكر فى كتابه الحجاز فى الحرب العالمية (ص١٤٣) إن مارك سايكس زار جدة واجتمع بالحسين قبل أن يرافق جورج بيكو إلى

جدة ويجتمع ثانية بالحسين ، وأن سايكس ذكر فى التقرير الذى رفعه لرئاسة البعثة الفرنسية فى الحجاز أنه حاول تهيئة ذهن الشريف حسين لقبول شروط اتفاقية سايكس بيكو ، ولم يقل سايكس ولا بريمون إن الشريف حسيناً قبل وسلم بشروط الاتفاقية جملة أو تفصيلا .

وهذا القول من جانب بريمون وسايكس يدل دلالة واضحة على أن الحسين لم يكن يعلم أبداً بوجود الاتفاقية ولا بفحواها فكيف نسوغ لأنفسنا تصديق رواية السيد رشيد رضا وغيره . إن ما تلا من أحداث لا يمكن تفسيرها إلا إذا اعتقدنا اعتقاداً جازماً بأن الحسين لم يكن يعلم أبداً بوجود اتفاقية سايكس بيكو قبل نشرها من طرف البلاشفة أواخر عام ١٩١٧ . إن السيد رشيد رضا يذكر أن سايكس بعد عودته من جدة ذكر لأحد خاصته أن ملك الحجاز وافق على أن تكون سواحل سوريا لفرنسا (المنار ج ٢٢ ص ٥٢ ٤) .

فيجوز أن هذا النبأ قد وصل إلى العرب عن هذا الطريق فألبس الموتورون[1] هذه الرواية ثوب الحقيقة والتصديق ، واعتبروا أن حديث سايكس صحيح ، وأن حديث حسين مع سايكس وبيكو فى جدة كان قبولا نهائياً بتسليم سواحل سوريا الشمالية إلى فرنسا ، وهو قول يعوزه الدليل . ولم تجترئ فرنسا ولا انكلترا على هذا الزعم رسمياً فلو كان قد صح وقوعه لما توانت الدولتان وبخاصة فرنسا عن إبراز حجتها فى المطالبة بالاستيلاء على سوريا أثناء انعقاد مؤتمر الصلح . أو لتبرير احتلالها البلاد فيما بعد .

ويذكر المؤلف فى صفحة ٥٦ من كتابه أن من يتأمل فى مراسلات مكماهون لحسين يرى بأن رقعة الأرض الموعودة للشريف والعرب هى نفس رقعة الأرض التى طالب بها الفاروقى فى محادثاته مع مكماهون، ونفس

---

(١) من المرجح أن السيد رشيد رضا كان موتوراً من الحسين ؛ فقد منع من زيارة دار الوكالة العربية بالقاهرة ومن الاجتماع بالمندوب العربى فيها بموجب برقية من الخارجية العربية فى مكة بتاريخ ٧ ذى القعدة ١٣٣٥ (العمرى ٢ : ١٦٠) ، ولعله أصبح مناضبا لعدم تلبية رغبته فى منصب مشيخة الإسلام الذى طالما تطلع إليه ورغب إلى الملك حسين عبثاً أن ينعم عليه به ، كما أصبح فيما بعد ساخطاً على الملك فيصل ...

الرقعة التى تركت للعرب فى اتفاقية سايكس بيكو - مقاطعات دمشق حمص حماة حلب . أى أنه لا يوجد تناقض بين اتفاقية بيكو وبين وعود مكماهون للحسين .

ولا حاجة إلى القول بأن هذه دعوى كان جورج أنطونيوس فى كتابه يقظة العرب قد فندها ، كما فندتها الأحداث والوقائع التالية التى أعقبت نشر الاتفاقية المشئومة .

ويرى المؤلف أن من جملة الأدلة على معرفة الحسين لفحوى اتفاقية سايكس بيكو قبل نشرها ، هو أنه كان يوصى دوماً مندوبه فى القاهرة بأن لايبدى أى اهتمام بمسألة سوريا وأن يدع الأمور تأخذ مجراها الطبيعى(ص٤٠)

ولكن هذا القول لا يدل إلا على أن الحسين أراد أن يجنب مندوبه التورط بتصريح أو تشبث من شأنه أن يسىء إلى القضية السورية ، وذلك لعلمه بوجود تحريكات فرنسية بين صفوف بعض المسيحيين اللبنانيين الذين استمالتهم فرنسا وخوفتهم من الخلافة الهاشمية ومن حكومة « البدو » ، ويظهر هذا جلياً فى برقيات الفاروقى إلى الحسين الذى خشى أن يؤدى تدخل مندوبه فى المسألة السورية إلى إثارة مشاكل قد يتوسل بها الأعداء لإثارة أمور لم يحن أوان بحثها ومناقشتها بعد .

ويذكر المؤلف فى صفحة ٤٠ أن السوريين فى القاهرة عند ما أرسلوا يطلبون من شريف مكة ومن نجله فيصل أن يحتجا على تصريح بلفور بعد إصداره فى نوفمبر ١٩١٧ « أفهموا من قبل وكيل ملك الحجاز فى القاهرة أن الشريف قد سلم تماماً ببرنامج البريطانيين بشأن اليهود فى فلسطين ، كما سلم للفرنسيين بالاستيلاء على سوريا ... » واستند كدورى فى هذا الزعم الباطل على تقرير كتبه وليام ييل — Yale's Report of Dec. 10, 1917

ونحن نقول لو صح زعم « ييل » لوصلنا شىء من أنباء ثورة النفوس فى القاهرة على تصريح الحسين ووكيله ، ولكن لم يصل إلينا أية إشارة عن هذا الموضوع لا من قريب ولا من بعيد ، لا من أعداء الثورة العربية

ولا من الموتورين الساخطين على الحسين الذين يأخذون عليه عناده وعدم تقبله للنصيحة ولا من المخلصين الملتفين حوله ولا من بعض السوريين الناقدين لسياسته ! !

وجملة القول إن مانعلم من طبيعة الشريف حسين العنيدة ، وتشبثه الحرفى بعهود بريطانيا له ، وتبرمه بولده فيصل عند ما اعتقد أنه تساهل قليلا مع الفرنسيين فى موضوع سوريا والإيعاز إليه بالعودة من باريس حالا . وجفاء الحسين مع لورانس من أجل قضية فلسطين ،وما تبع ذلك من وقائع وأحداث حرمانه من عرشه ونفيه إلى قبرص . مما يدل على تمسكه الشديد بفحوى مذكرته لمكماهون فى تحديد منطقة الاستقلال العربى ، كل ذلك يجعلنا نرى أن قول المؤلف اليهودى فى حق الحسين والحركة العربية قول ظالم . ويجعلنا نرى فى المؤلف عدواً من أعداء الحركة العربية الذين كانوا قد اتخذوا من واقع بدء الثورة العربية فى الحجاز وسيلة للحط من شأنها فظلوا ينعتونها — كما فعل المؤلف — تارة باسم الثورة الحجازية وطوراً باسم الثورة الشريفية . ولا يخفى علينا لماذا تحاشى المؤلف التطرق إلى وعد بلفور والظروف التى رافقت إخراجه مع أنه من صميم موضوع السياسة البريطانية فى الشرق الأوسط خلال هذه الفترة ، فى حين تناول ظروف إخراج اتفاقية سايكس بيكو بشىء من التفصيل ، اكتفى بالإشارة إلى وعد بلفور إشارة عابرة ! !

وعلى أية حال فالكتاب فى مجمله يلقى بعض الضوء على تاريخ العلاقات البريطانية بالشرق الأوسط العربى فى الفترة ما بين ١٩١٤—١٩٢١ ، وكنا نرجو لو أن المؤلف وقف قليلا عند بعض المصادر ومحصها ، وإذن لانتفت عنه صفة التحيز ، ولاقترب من البحث العلمى الحيادى المطلوب فى دراسته التاريخ .

أحمد طربين

مساعد فى معهد الدراسات العربية العالية

مؤتمر الآثار الثانى فى البلاد العربية

المنعقد ببغداد

فى المدة الواقعة بين ١٨ – ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٥٧

اجتمع مؤتمر الآثار الثانى فى صباح يوم الخميس ٢٨ تشرين الثانى (نوفمبر) بكامل هيئته المؤلفة من وفود الدول العربية وهيئاتها وأقر التوصيات الآتية :

١ – بما أن آثار البلاد العربية تراث مشترك خاص بالأمة العربية جمعاء فإن المؤتمر يوصى الدول العربية أن تتخذ كل التدابير التشريعية والتنفيذية لحمايتها وصيانتها والاحتفاظ بها سليمة للأجيال الصاعدة .

٢ – يوصى المؤتمر أن تعمل دوائر الآثار فى مختلف الدول العربية على أن لا تستعمل المبانى الأثرية الدينية ما دامت تحت تصرف الأشخاص والهيئات ، مملوكة أو موقوفة ، فى غير الأغراض التى أنشئت من أجلها ؛

٣ – يوصى المؤتمر جامعة الدول العربية بالعمل على وضع قانون آثار موحد لجميع البلاد العربية ، وتنفيذا لهذه الغاية تؤلف لجنة من رجال الآثار والقانون تقوم بدراسة مقارنة لقوانين الآثار المعمول بها فى البلاد العربية ودراسة القوانين الأخرى والاتفاقات الدولية لوضع مشروع ذلك القانون الموحد .

٤ – رغبة فى ضمان التعاون الأثرى بين الدول العربية وفى تنفيذ مقررات مؤتمرات الآثار يوصى المؤتمر جامعة الدول العربية بما يلى :

بإحداث مكتب دائم للآثار مستقل فى إدارته تابع للأمانة العامة لجامعة الدول العربية يرأسه مدير دائم اختصاصى فى الآثار ويقوم بجانبه مجلس

استشارى يتألف من المديرين العامين للآثار فى الدول العربية أو من ينوب عنهم يجتمع بناء على دعوة المدير الدائم مرة على الأقل فى كل سنة أو بناء على طلب ثلث الاعضاء . ويحدد نظام المكتب الدائم ومقره وطريقة تمويله من قبل المجلس الاستشارى المنصوص عنه فى الفقرة السابقة والذى سيجتمع المرة الأولى بناء على دعوة أمانة جامعة الدول العربية كما سينتخب هذا المجلس فى اجتماعه الأول المدير الدائم .

٥ — يوصى المؤتمر أن تتخذ الدول العربية فى علاقاتها مع بعثات التنقيب الأجنبية موقفا موحدا فى قضايا الحفريات والتنقيبات وأن يكون هذا الموقف متفقا مع أحكام المبادئ العامة لنظام الحفريات الدولى الذى أقرته الجمعية العامة لليونسكو فى مؤتمرها التاسع فى مدينة نيودلهى فى شهر كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٥٦ .

٦ — يوصى المؤتمر بالعمل على إيجاد تعاون وثيق بين دوائر الآثار ودوائر السياحة والدعاية وغيرها فى كل دولة عربية وبين الدول العربية بعضها مع بعض لكى يعطى للآثار الدور السياحى المهم اللائق بمكانتها ويعرف الوجه الحقيقى للبلاد العربية فى ماضيها وحاضرها ويوصى المؤتمر أيضاً بعقد مؤتمر سياحى أثرى مشترك بين الدول العربية .

٧ — يوصى المؤتمر بتشجيع تأليف الجمعيات الأهلية ممن يعنون بشؤون الآثار والتاريخ وإعطاء هذه الجمعيات التسهيلات العلمية والإدارية الممكنة من جانب الجهات المسؤولة فى الحكومات العربية وذلك لبث الثقافة الأثرية والتعاون مع دوائر الآثار فى تأدية مهمتها للمحافظة على التراث التاريخى وتحبيب الآثار إلى الجمهور .

٨ — يوصى المؤتمر بأن تعمل دوائر الآثار فى الدول العربية على حث بلديات المدن التى تحتوى على آثار بأن تخصص نسبة معينة من مواردها تنفق على صيانة الابنية الأثرية وإنشاء المتاحف المحلية فى كل من تلك المدن

كما توصى بأن يكون هنالك اتفاق بين دوائر الآثار فى البلاد العربية وبين البلديات على نصب نماذج ونسخ من الآثار فى الأماكن العامة من المدينة .

٩ — يوصى المؤتمر دول الجامعة العربية أن تضمن قوانينها حماية العمائر الأثرية القائمة بمفردها أو مجموعات هذه العمائر التى ترى أن تحفظها للأجيال القادمة وذلك عن طريق تحديد مناطق كافية لحمايتها لا يسمح بإنشاء الأبنية الجديدة فيها إلا بشروط خاصة تنظم ارتفاعات هذه الأبنية وطرزها وحجومها حسب ما تراه دوائر الآثار ؛

١٠ — يوصى المؤتمر جامعة الدول العربية أن تعمل على وضع معجم مصور للمصطلحات الأثرية المختلفة ويسمى « المعجم الأثرى » يشمل المصطلحات الفنية المتعلقة بكل فروع الآثار على أن يكون ترتيب هذه المصطلحات حسب ترتيب « معجم انكليزى — عربى » وحسب ترتيب « معجم عربى — انكليزى » وتذكر فى كليهما أيضاً ما يقابل المصطلحات باللغتين الافرنسية والألمانية .

وتنفيذا لهذا العمل تؤلف لجنة فنية دائمة يعهد إليها بذلك ويخصص لها الاعتماد اللازم للتأليف والنشر .

١١ — يوصى المؤتمر بإنشاء متاحف وطنية فى عواصم الأقطار العربية ومدنها الرئيسية تخصص فيها أجنحة أو قاعات رئيسية تعرض فيها معالم المدنيات فى مختلف الأقطار العربية وتجمع المعروضات لهذه الاجنحة أو القاعات من قطع أثرية ونماذج ومخططات وصور عن طريق التبادل أو بتراضى الدول المعنية بالأمر . وتكون هذه المتاحف بمثابة مراكز ثقافية تساعد على دراسة تطور الحضارة فى جميع الأقطار العربية .

١٢ — يوصى المؤتمر بأن تعمل السلطات الأثرية على إنشاء متاحف محلية فى مختلف المدن ويراعى فى ذلك أن يحفظ فيها ما يتعلق بتاريخ

المنطقة التى تقع فيها المدينة أو بعض ما يكتشف فيها من آثار أو ما يتبق من مخلفات عمائرها الأثرية .

١٣ – يوصى المؤتمر دول الجامعة العربية التى لا يوجد فيها متاحف أو مؤسسات أثرية أن تبادر إلى إنشاء مثل هذه المؤسسات لصيانة تراثها الأثرى وإنشاء مثل هذه المتاحف لتحفظ فيها تلك البلاد كنوزها الأثرية .

١٤ – يوصى المؤتمر دول الجامعة العربيه بإنشاء متاحف شعبية يقام فى كل منها قسم خاص بالأزياء والأدوات والمواد التى تتعلق بحياتها الشعبية لارتباط هذه المتاحف ارتباطاً وثيقاً بالتراث الحضارى لتلك البلاد .

١٥ – يوصى المؤتمر مديريات الآثار فى البلاد العربية بأن تعمل على أن يكون لكل متحف من متاحفها أو منطقة أثرية فيها دليل مصور لأهم الآثار .

١٦ – يوصى المؤتمر بأن تتوسط الجامعة العربية لدى أصحاب الجلالة والسمو ملوك وأمراء الجزيرة العربية للحصول على موافقتهم على السماح ببعثة أثرية عربية تنتدب المؤسسات الأثرية والعلمية فى البلاد العربية أعضاءها للقيام بالدراسات والتنقيبات الأثرية فى أنحاء الجزيرة العربية .

١٧ – يوصى المؤتمر دول الجامعة العربية بأن تعمل على تحقيق الانسجام بين طرز البناء فى كل قطر عربى وتأمين التجدد الذى لا بد منه للعمارة وذلك عن طريق جمع لجان فنية تتألف من بعض علماء الآثار ومن المهندسين المعماريين اللامعين للبحث فى هذا الموضوع ووضع الخطوط العامة لتطور المدينة العربية فى المستقبل بما يجمع بين الإبداع والاقتباس من القديم .

١٨ – بما أن ترميم الأبنية الأثرية هو أمر فنى فلا يجوز أن تتم عملياته عن طريق المناقصات العامة ولهذا يوصى المؤتمر الدول العربية أن تفسح المجال لدوائر الآثار لتقوم بترميم الأبنية الأثرية مباشرة وأن يكون فى وسعها الاستعانة بالصناع الفنيين الماهرين .

١٩ – يوصى المؤتمر دوائر الآثار فى البلاد العربية بتأسيس مختبرات

(معامل كيماوية) فنية للمتاحف لمعالجة الآثار وإذا تعذر إيجاد مختبر فى كل متحف فيؤسس مختبر واحد عام لكل قطر من الأقطار العربية .

٢٠ – يوصى المؤتمر الدول العربية بقبول مبدأ التعاون الأثرى فيما بينها ويشمل هذا التعاون ما يأتى :

(ا) تبادل القطع الأثرية بصورة موقتة أو دائمة

(ب) تبادل النشرات والكتب الفنية والتاريخية والأثرية

(ج) تبادل الصور الفوتوغرافية والنماذج والرسوم المعمارية لأهم الآثار والمبانى التاريخية .

(د) تبادل الرقوق (الأفلام) السينمائية وغيرها التى تعرض الآثار أو مناظر المواقع الأثرية والحفريات .

(ﻫ) تبادل الفنيين والاختصاصيين العرب والسماح لهم بإجراء الدراسات الأثرية أو الاطلاع على المكتشفات الحديثة .

مقترحات

١ – أخذ المؤتمر علماً بملاحظة اللجنة الفنية المتعلقة بإنشاء موسوعة تصويرية لأهم المبانى والآثار الموجودة فى البلاد العربية ورأى تكليف الوفود بدراسة هذا الموضوع وعرضه على المؤتمر القادم .

٢ – كما أخذ المؤتمر علماً بملاحظة اللجنة القانونية وهذا نصها « تود اللجنة أن تلفت نظر المؤتمر إلى وجود مشكلة تتطلب الدرس والحل ألا وهى صيانة المبانى الأثرية التى فى حيازة دوائر الأوقاف أو الهيئات الدينية أو الجمعيات أو الأشخاص وتوصى اللجنة أن تدرس الوفود هذه المشكلة وإيجاد الحلول الملائمة لها لتعرض على المؤتمر القادم » .

٣ – يقترح المؤتمر على جامعة الدول العربية أن يكون انعقاد مؤتمر الآثار للبلاد العربية دورياً مرة كل سنتين وأن يكون انعقاده المقبل فى عام ١٩٥٩ .

التسجيل الحديث للآثار المصرية القديمة

[مثل الجمعية المصرية للدراسات التاريخية فى مؤتمر الآثار الثانى للدول العربية ، الدكتور محمد جمال الدين مختار المدرس بكلية المعلمين بالقاهرة وألقى سيادته على المؤتمرين هذا البحث]

استرعى نظرى بين قرارات المؤتمر الأول للآثار الذى عقدته الإدارة الثقافية للجامعة العربية فى دمشق فى سبتمبر سنة ١٩٤٧ الفقرة رقم ١٢ ومنطوقها « أن تتبادل المطبوعات في الآثار والصور ونماذج التحف والخرائط وغير ذلك بين الدول العربية .

هذه الفقرة تشعرنا باهتمام دول الشرق العربى العريقة الحضارة بتاريخ وآثار بعضها البعض . ولكن فى الوقت نفسه كان يجب أن يسبق أو يزامل هذه الفقرة ، فقرة أخرى تنص على الاهتمام بتسجيل تلك الآثار ووضعها فى وثائق ومستندات يسهل تداولها بعد طبعها . والواقع أن المؤتمر الأول للآثار لم يتعرض لموضوع تسجيل الآثار فى قراراته رغم الأهمية الكبرى للتسجيل الآن فى النواحى العلمية والفنية بل القومية كذلك .

ولما كانت مصر قد بدأت فعلا فى تسجيل آثارها على نطاق واسع وبطريقة علمية حديثة ، واختارت الآثار الفرعونية كخطوة أولى يليها خطوات أخرى تتناول تسجيل آثار العصور الحضارية التالية فقد عن لى أن أتحدث عن تسجيل الآثار الفرعونية فى مصر وما بذل من جهد فى هذا السبيل .

* * *

وليس تسجيل الآثار الفرعونية بالأمر الجديد على مصر فقد استصحب نابوليون معه أثناء حملته على مصر بعض علماء الآثار الذين عكفوا على تسجيل الآثار المصرية . وقد ظهر هذا التسجيل فى أجزاء من كتاب « وصف

مصر» "Description del' Egypte" الذى طبع فى باريس بعـــد ذلك بيضع سنوات .

وقد نشطت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر حركة جديدة لتسجيل النقوش والرسوم ووصف الآثار تتمثل فى نشاط بعثة « روزلّينى Rosellini » الإيطالية وبعثة « ليبسيوس Lepsius البروسية .

ثم توالت بعد ذلك البعثات العلمية التى أعطيت حق التنقيب فى مصر فسجلت معظم ما كشفت عنه من آثار فى مطبوعاتها وتقاريرها .

• • •

ولكن إزاء الحالة السيئة التى آلت إليها بعض المعابد والآثار الأخرى نتيجة لفعل العوامل الطبيعية كالزلازل والمؤثرات الجوية ، وخاصة بعد أن أزيلت الرمال التى كانت تحمى تلك الآثار ، أو نتيجة لفعل الإنسان كالتخريب والسرقة والتهريب والحروب أو لتعميم نظام الرى الدائم وارتفاع درجة الرطوبة فى المناطق الأثرية أو بسبب تنفيذ بعض مشروعات الرى التى تغمر الآثار بالمياه — نتج عن كل هذه العوامل منفردة أو مجتمعة أن شوهت أو ضاعت بعض معالم تلك الآثار وتآكل الكثير من نقوشها وصورها ، فرأت الحكومة المصرية أنها إن لم تستطع أن تنقذ بعض هذه الآثار فلا أقل من أن تسرع فى تسجيلها بالتصوير والرفع الهندسى . . الخ ويكون هذا التسجيل مرجعاً وسجلا لكل باحث .

* * *

وقد عقد فى ابريل سنة ١٩٥٥ اتفاق بين الحكومة المصرية وهيئة اليونسكو ، التى تهتم بحماية الآثار والتراث الإنسانى الثقافى ، على التعاون فى تسجيل الآثار المصرية وما عليها من نصوص ونقوش ثم رصده فى سجلات خاصة وذلك عن طريق إنشاء مركز خاص لتسجيل الآثار ودراسة

الحضارة المصرية ، يتخصص فى هذا العمل ويعمل على المحافظة على هذه الوثائق والاستمرار فى جمعها وتبادلها مع الهيئات العلمية فى البلاد الأخرى.

وقد نص فى المادة الأولى من هذا الاتفاق على تعهد الحكومة المصرية بإنشاء هذا المركز ، ونص فى مادته الثانية على أغراض إنشائه وهى قيامه بالتسجيل الفوتوغرافى والكتابى لتاريخ الفن والمدنية المصرية القديمة ومساعدة العلماء المصريين والأجانب للذين يرغبون فى الدراسة . ونصت المادتان الثالثة والرابعة على طريقة إدارة المركز وذلك بإنشاء مجلس لإدارته محدد تشكيله واختصاصاته بمقتضى لائحة تضعها الحكومة المصرية . وتتعهد هيئة اليونسكو بمقتضى المادة الخامسة من المشروع بتقديم الأجهزة والأدوات اللازمة للمركز كما تمده بالخبراء والمستشارين وحددت الاعتمادات اللازمة لذلك .

* * *

وبذلك ظهر للوجود مركز تسجيل ودراسة تاريخ الفن والحضارة المصرية القديمة Centre de Docamantation et d'Etudes sur l'Histoire de l'Art et de la Civilization de l'Egypte Ancienne ويشرف على هذا المركز الدكتور أحمد بدوى مدير جامعة عين شمس ويضم الأقسام الآتية :

١ — القسم العلمى ويعمل به عدد من الأثريين قد يكون قليلا للآن ولكنه سوف يستكمل مع الزمن ، كما أنه يستعين بجهود الخبراء من جميع الدول وكذا بالإخصائيين فى وقت فراغهم .

٢ — القسم الهندسى ويعمل به مهندسون متخصصون .

٣ — أقسام التصوير والرسم والنماذج ويعمل بها مصورون ورسامون وفنانون متخصصون .

٤ — القسم الإدارى ويقوم بالأعمال الإدارية والتجارية والكتابية .

وقد رأى المجلس الأعلى للآثار فى ١٩٥٤/١١/٢٣ أمام عزم الحكومة على تنفيذ مشروع السد العالى ، وما سيترتب على ذلك من غرق معابد وآثار بلاد النوبة البدء فوراً فى تسجيل آثار النوبة ، وقد بدأ المركز فى تسجيل آثار تلك المنطقة قبل آثار طيبة التى كان مزمعاً البدء بها . وقد أوفدت البعثات إلى النوبة فى أربع مواسم قضتها فى تسجيل معابد أبو سنبل – كلابشة – دابود .

وقد تقدم التسجيل ووسائل نقل النقوش بعد أن حسنت الاختراعات الحديثه أساليبه وزادت من إمكانياته . ويقوم مركز تسجيل الآثار الآن بأنواع من التسجيلات معتمدا على الآثار القائمة ومستعينا بالوثائق القديمة ، نذكر من هذه التسجيلات :

١ – التسجيل الفوتوغرافى العادى والملون .

٢ – التسجيل الفوتوجرامترى أى أخذ صور الأثر بحيث يمكن عرضه مجسما مع إظهار مدى البروز والانخفاض فى السطوح . وهى طريقة دقيقة للغاية ، كانت قاصرة على الخرائط الطبيعية والطبوغرافيه وتسخدم الآن لأول مرة فى تسجيل الآثار المصرية . ويستخدم فى هذا النوع من التسجيل جهاز التقاط للصور (كاميرا) لها عدستان وذات بعدين Two Dimensions وهى تلتقط الصور من أبعاد معينة وتخرج صوراً مزدوجة Double يمكن رسم خطوط كنتورية عليها بواسطة جهاز خاص .

وهذه الصور من الدقة بحيث يمكن الاستفادة بها فى رسم المسطحات والتفاصيل المعمارية كما يمكن الاعتماد عليها فى أى وقت لعمل نماذج مجسمة دقيقة بآلة خاصة . هذا علاوة على أنها تفيد فى عرض الاثر مجسما كما هو فى الطبيعة . وهى فوق هذا تعين الاخصائيين على التعمق فى دراسة وسائل البناء التى اتبعها البناء القـديم ووسائل نحت التماثيل وخاصة فيما يتعلق بتشكيل ملامح الوجه .

وسوف يرسل مركز تسجيل الآثار هذا العام بعثة للتخصص فى التصوير الفوتوجرامترى حتى يمكن الاعتماد على المصريين فى هذه الناحية كما تهتم كليات الهندسة بالجامعات المصرية بهذا النوع من التصوير ؟

٣ — نسخ النصوص الهيروغليفية وبحثها .

٤ — شف بعض الرسوم والمناظر المنقوشة والمرسومة .

٥ — رفع المعابد ورسم قطاعتها ومساقطها .

٦ — عمل نماذج مجسمة لأهم المناظر والنقوش بالجبس أو غيره من المواد .

٧ — عمل نماذج مصورة (ماكيتات) للمعابد الهامة والأبنية المعمارية .

٨ — رسم الخرائط التوضيحية للمواقع والأماكن .

٩ — تنسيق هذه التسجيلات ودراستها ثم نشرها .

١٠ — وعلاوة على هذه التسجيلات المختلفة يعنى المركز بإصدار كتيبات للثقافة العامة وقد أصدر منها فعلا كتيبين عن (فيلة) و (أبو سنبل) باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية حتى يمكن للناطقين بالعربية والأجانب الاستفادة منها كمصدر مبسط ولكنه دقيق يمكن الاعتماد عليه .

وسيعنى المركز فى المستقبل القريب بعمل لوحات تعليمية وأفلام ثقافية وشرائح زجاجية Slides لموضوعات معينة يمكن الاستفادة بها فى التدريس وفى المحاضرات العامة .

وعندما تتم للمركز تسجيلات كافية سيعمد إلى تسجيلها على أفلام صغيرة بطريقة الميكروفيلم لحفظها كوثيقة يرجع إليها عند الحاجة وعلى سبيل الاحتياط ، وقد أخذ بهذه الطريقة فى مصر سنة ١٩٥٠ حينما صورت مخطوطات دير سانت كاترين بشبه جزيرة سينا ، وهو المشروع الذى تم إنجازه بتعاون جامعة كاليفورنيا مع جامعة الإسكندرية .

وهذه التسجيلات والوثائق بأنواعها المختلفة سوف تكون مرجعا

للمختصين والدارسين وخير عون للأساتذة فى بحثهم وفى شرحهم . كذلك سيكون تسجيل الآثار وسيلة من وسائل التعليم الثقافى لأبناء البلاد ومصدراً لتزودهم بتاريخ الحضارة المصرية ووسيلة لتزكية الروح الفنيه ، وهو فى نفس الوقت إعلان عن عظمة مصر وضمان لتقدم دراسة تاريخ الفن والمدنية المصرية القديمة .

هكذا يتضح لنا مدى أهمية وفائدة تسجيل الآثار مما يحتم على الدول العربية الاهتمام بتسجيل Registration وتوثيق Documentation آثارها الخالدة ثم تبادل هذه التسجيلات والوثائق .

محمد جمال الدين مختار